MAC-726-10/03
معهد الثقافة الشعبية
رقم الجرد 324
تاريخ الوصول
MAC-726-04/03
19 DEC 2010
AR.30

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة أبي بكر بلقايد بتلمسان

كلية الأداب و العلوم الإنسانية و الإجتماعية

قسم الثقافة الشعبية

مكتبة العلوم الإنسانية و العلوم الإجتماعية
علوم الإعلام
جامعة أبو بكر بلقايد - تلمسان

أضرحة الأولياء بمدينة تلمسان

دراسة تاريخية و فنية من خلال ثلاثة نماذج

رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير

شعبة : الفنون الشعبية

من اعداد الطالبة :

* مهتاري فائزة المولودة زهرقة

.الأستاذ المشرف:

*أ.د. الشايف عكاشة

.مساعد المشرف

*أ. معروف بلحاج

السنة الجامعية 1999-2000

إهـــــداء

إلى من قال فيهما ربي ﴿ وبالوالدين إحسانا ﴾

إلى أثمن لؤلؤتين أملكهما في الوجود من عيني و قلبي

إليكما أبي و أمي العزيزين

إليك أمي الحبيبة دونا عن العالم جميعا لأنه لولاك لما رأى هذا العمل النور

إلى من كانوا لي في الحياة بهجة

زوجي و طفلي "محمد ياسين"

إلى إخوتي و عائلاتهم

إلى والدي زوجي و كل عائلته

إلى كل من أدين لهم بالفضل في جميع أطوار الدراسة

إليكم أساتذتي

الشكـــــرات

من باب الإعتراف بالجميل و الإقرار بالحق، أتقدم بشكري الجزيل إلى أستاذي المشرف "شايف عكاشة" الذي رغم مسؤلياته الثقيلة و إنشغلاته العديدة إلا أنه وافق الإشراف علي و أمدني بنصائحه القيمة و توجيهاته الرشيدة.

كما أتقدم بشكري الجزيل إلى الأستاذ مساعد المشرف "معروف بلحاج" الذي تحلى بالصبر الجميل معي و ساعدني كثيرا بحكم تخصصه في الفنون. إذ لم يبخل علي بالكثير من المعلومات القيمة و النصائح الثمينة.

لا يفوتني أن أشكر أيضا أستاذي و خالي العزيز "بابا أحمد عبد الرحيم" الذي أمدني بكم هائل من المصادر و المراجع القيمة و كذا بنصائحه و توجيهاته في المجال الصوفي.

تشكراتي أيضا للأستاذ "حجاج أول محمد" على مساعدته لي بالمصادر و المراجع.

كذلك أتقدم بالشكر الجزيل إلى المهندس المعماري القائم على عملية الترميم بمسجد سيدي إبراهيم السيد "بن عصمان"

و أخيرا إلى كل من دلو أمامي الصعوبات و أناروا لي الدرب على طول مسيرتي في إتمام هذا الإنجاز العلمي.

مقـــدمة

إن تناول موضوع في تخصص يتعلق بالفنون ليس بـالأمر الهين البسيط، إذ أنـه في الحقيقـة يحتار المرء من أين يبدأ فعنوان يحمل مفردة الفن يزخر بفيض هـائل مـن الأفكـار و المنـاحي يكفـي لأي منها أن يكون عنوانا بذاته، خاصة إذا كان هذا التخصص الفني يتعلق بمدينة عريقة في الأصالة كتلمسان، هذه الأخيرة التي أسالت الكثير من الحبر، إذ يكفيها فخرا أنها عاصمة الزيانيين و مهـد العلماء و حاضرة العلم و التقوى.

هذه المدينة التي لا تزال تتشبث بشخصيتها المستقلة الفريدة مـن نوعهـا رغـم كـل تيـارات التغيير و التغير و كذا تيارات الجهل و التجاهل لقيمتها و لبعض معالمها التي لعبت و لا تـزال دورا أساسيا في إثراء تراثها الحضاري المجيد. إن هذه الشخصية المركبة لتلمسان تتفاعل من أجل توازنها عدة مجالات أساسية و من بين هذه المجالات العمارة المتمثلة في المباني الشاهقة التي تزين تلمسان و تحفـظ لهـا وقارهـا و هيبتهـا و تعتـبر شـاهدا علـى عظمـة أجدادنـا و مـدى تفوقهـم و عبقريتهم في حسن تذوقهم للفنون و حسن إستيعابهم لها.

كما أن هذه الآثار دلت و لا تزال على حقب مختلفة مـرت بهـا هـذه المدينـة الـتي عرفـت الكثير من الأمجاد و المآسي، و قد أصبحت هذه المعـالم تستغيث شـاكية مـن الإهمـال و التصـدع و الجهل أو التجاهل لقيمتها الحضارية و التاريخية الهامة.

و لقد حز في نفسي كثيرا أن أرى هذا الإثر الحضاري الذي ينطوي على إرث ثقـافي ثـري و هائل يسقط في طيات النسيان و التخريب حتى أصبح يعاني حالة مزرية، خاصة منها الأضرحـة التي جعلت من تلمسان قبلة للزوار و القاصدين الورعين.

إن الأضرحة بمدينة تلمسان على غرار عدة معالم أثرية أخرى تكاد أن تطمس معالمها فمنها من تعرض للحرق و التخريب، و منها من أصبح مجلس سوء لشـرب الخمـر، و منهـا تـأكل بفعـل العوامل الطبيعية المختلفة حتى كاد أن يهوي، لذلك بدى لي أن أمزق هذا الصمت الرهيب الـذي يحـف و يحيـط بهـذه الأضرحـة. اللهـم إلا بعـض المشـاريع المتـأخرة الـتي تحـاول الـترميم

و الإصلاح. و بما أن وعينا الحضاري و الثقافي ينعكس من خلال حفاظنا على عناصر تراثنا فقد وجب علينا الحفاظ على هذا الإرث الثمين الذي لو غفلنا عنه خسرنا جزءا من شخصيتنا و تاريخنا و بالتالي هويتنا.

كما يجب علينا إعطاء صورة حية لما تعانيه الأضرحة بتلمسان و لو من خلال ثلاث نماذج حتى لا تغفل عامة الناس عن البقية المتبقية من الأضرحة العديدة و الكثيرة. لقد عز علي دراسة كل الأضرحة بمدينة تلمسان مع العلم أنها كلها ذات قيمة تاريخية و حضارية لا تقل عن الأخرى و لكنها كثيرة و قد اقتصرت دراستي على ثلاث أضرحة نظرا لقيمة الأولياء التي يسكنوها و بالتالي قيمتها في قلوب سكان المدينة و كدا للحالة المزرية التي أصبحت تعانيه و أخيرا لاختلاف أنماطها المعمارية و هي ضريح سيدي أبي مدين هذا الضريح العتيق الذي حوى عدة بصمات فنية لعدة حقبات متعاقبة على تلمسان يتعرض للحرق التعسفي فيحطم ضريح الولي و يقضى على أجمل المعالم الأثرية و الفنية.

ضريح سيدي الحلوي هذا الإشبيلي الورع الذي قدم إلى تلمسان و قدّم حياته قربانا لوعيها الديني و الخلقي يصبح مجلس سوء لشرب الخمر و تعاطي المحرمات حتى اضطر القائمون عليه يغلقون أبوابه أمام الزوار القاصدين فهل هذا هو الحل ؟ إنه تدنيس لحرمة هؤلاء الرجال و قدسيتهم.

أما ضريح سيدي إبراهيم المصمودي الذي يقع على بعد أمتار في حديقة مسجد سيدي إبراهيم و الذي يتمركز بروضة آل بني زيان و نسب إلى سيدي إبراهيم تكريما لتقوى الرجل و علمه، يكاد يهوي متأثرا بالعوامل الطبيعية، و لعلمكم فهو غير معني بعملية الترميم التي يتعرض لها المسجد في الأشهر الأخيرة.

و لكن الموضوع لا يتوقف عند هذا الحد إذ أننا أردنا أن نبرز الأنماط المعمارية لهذه الأضرحة الثلاثة، فما هي الأنماط المعمارية لهذه الأضرحة ؟ إذ أن إثنان من هذه الأضرحية بنيت في العهد الزياني و مع ذلك نجد إختلافا واضحا بينهما أحدهما ثري يعكس إجتهادا و ذوقا سليما و الآخر بسيط يعكس فترة ضعف أما الضريح الثالث فقد تعددت أساليبه بتعدد المرممين و هو بذلك يظهر تحفة معمارية رائعة.

* ضريح سيدي أبي مدين أسس في العهد الموحدي و عرف إثراءه من طرف أبي الحسن المريني.

* ضريح سيدي الحلوي أسس من طرف (أبي زيان بن عثمان بن يغمراسن). عند نهاية حصار الثمان سنوات الرهيب الذي ضرب على تلمسان.

* و ضريح سيدي إبراهيم أسسه السلطان أبو حمو موسى الثاني بعد رحيل المرينيين النهائي من تلمسان.

فهل للإستقرار السياسي إنعكاس على الفنون ؟ و هل للخلفية التاريخية و الدينية أثر في ظهور الضريح ثريا رائعا أو بسيطا رمزيا و إذا نعم فكيف ؟و هل للأضرحة درجات و أنواع ؟ فضريح سيدي أبي مدين و ضريح سيدي إبراهيم تعلوهما قبة في حين يظهر سيدي الحلوي بسقف بسيط هل من سبب في ظهور القبة في ضريح و إنعدامها في آخر و هل كان للضريح بالمشرق تأثير عليه بتلمسان و إذا نعم فكيف ؟

أسئلة نجيب عنها في سياق حديثنا عن الأضرحة و أيضا ضمن المقارنة التي سوف نقيمها بين مختلف أضرحة بعناصرها المعمارية المتعددة.

إني و أنا أحدد العراقيل و المشاكل التي اعترضتني أرفع نداءا مستعجلا إلى السلطات المعنية للإلتفات بهذه الأضرحة و الإعتناء بها إذ لم يكن من السهل علي الدخول إلى ضريح سيدي أبي مدين إلا بعد الحصول على إذن من دائرة الآثار و السلطات العسكرية و أيضا بضريح سيدي الحلوي تعذر علي أخذ صور نظرا لغلقه مع أن الإمام لم يبخل علينا بمساعدته.

و أخيرا فبضريح سيدي إبراهيم المصمودي لم نجد أدنى مشكل في أخذ الصور و ذلك بفضل تعاون المهندس المعماري المكلف بترميم المسجد، كما أود الإشارة إلى أن تخصصي في شهادة ليسانس هو تخصص لغة إنجليزية لذلك صعب علي دراسة العمارة الإسلامية نظرا لبعد التخصصين. كما وجدت صعوبة بالغة في ترجمة المصادر و المراجع خاصة فيما يخص المصطلحات التقنية الخاصة بالعمارة.

فيما يخص المنهج المتبع، فهو وثيق الصلة بتخصصي في الفنون و هو المنهج التاريخي الوصفي إذ أننا قمنا بدراسة تاريخية و كذا بدراسة فنية ميدانية وصفنا خلالها الأضرحة، و أيضا المنهج التحليلي المقارن.

و قد قسمنا البحث إلى مدخل و ثلاثة فصول و خاتمة تناولنا في المدخل لمحة عن التصوف ثم أدرجنا قائمة لبعض أولياء تلمسان و عرفنا مصلطح الضريح، أما في الفصل الأول فقد حددنا

الموقع الجغرافي لمدينة تلمسان و عرفنا بتسمية المدينة ثم تناولنا دراسة تاريخيها من العهد الإدريسي إلى العهد التركي، في الفصل الثاني تناولنا شخصيات الأولياء الذين درسنا أضرحتهم فيما بعد و هم سيدي بومدين ــ سيدي الحلوي و سيدي إبراهيم، و يعد الفصل الثالث فصلا خاصا بالأضرحة الإسلامية مع مقارنة فيما بين الأضرحة الثلاثة المدروسة في تلمسان من ناحية المخطط كما قارنا بين العناصر المعمارية و المواد المستعملة في الأضرحة الثلاثة.

إن هذا العمل هو ثمرة مجهود لن نبخل به على مدينتنا العريقة حتى ننفض عليها غبار النسيان و نساهم بقسط بسيط في الحفاظ على شخصيتها الشامخة.

المدخـــل

أولا : التصوف

ثانيا : لمحة عن أولياء تلمسان

ثالثا : التعريف بمصطلح الضريح

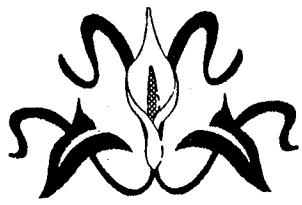

أولا: التصوف

لقد بدى لنا أن نمهّد تمهيدا مختصرا و وجيزا حول الصوفية، حتى نستطيع أن نضع الأولياء الذين سوف نتناولهم بالدراسة ضمن إطارهم الديني الصحيح و اللائق بهم، خاصة و أن هذه الأضرحة لم تقم صدفة لهؤلاء الرّجال بل لكونهم توفّرت فيهم سمات و خصال أهّلتهم لأن تخلّد ذكراهم، و تشيد أضرحة لهم تجعل منهم عبرة و قدوة للأجيال التي ستأتي بعدهم.

و بما أن موضوع التصوّف ذو شجون فقد حاولنا الاختصار قدر المستطاع، حتى لا نخرج عن حدود موضوعنا، و دون أن نخلّ أيضا بجانب مهم منه حتى لا يبدو هذا الأخير مبتورا ناقصا. و حتى لا نطيل الحديث سوف نبدأ بتعريف التصوّف الذي كان المنهاج المشترك لكلّ هؤلاء الأولياء على اختلاف اعتقاداتهم و اتجاهاتهم :

1- تعريف التصوف :

عرّفه الإمام الجنيد أبو القاسم القواريري بقوله: "هو أن يميتك الحق عنك و يحييك به ."[1] "و معنى يميتك عنك: أي عن نظرك لنفسك و يحييك به أي بذكره و مناجاته. و يواصل الجنيد أيضا: التصوف هو أن تكون مع الله بلا علاقة. و قيل التصوّف هو الدخول في كلّ خلق سنى و الخروج من كل خلق دني."[2]

و الخلق السنيّ هو الخلق الرفيع كالورع و الزهد و التوكل و الرضا إلخ... و الخلق الدني كالرياء و العجب و الكبر و الحسد و سوء الظنّ.

و قد عرّفه الشيخ زروق رضي الله عنه: "قد حدّ التصوّف و فسر بوجوه تبلغ نحو الألفين ترجع كلّها لصدق التوجّه إلى الله تعالى و انما هي وجوه فيه و الله أعلم.. ثمّ قال :

1- أحمد بن أحمد بن عجيبة الحسني: كتاب إيقاظ الهمم في شرح الحكم، المطبعة الجمالية بحارة الروم، مصر 1913- ص 4.

2- أحمد بن أحمد بن عجيبة الحسني : المصدر نفسه، ص 4.

و الاختلاف في الحقيقة الواحدة إن كثر دلّ على بعد إدراك جملتها، و العبارة (التعبير) عنه بحسب ما فهم منه، وجملة الأقوال واقعة على تفاصيله، و من أجل ذلك ألحق الحافظ أبو نعيم بغالب أهل حليته عند تحليه كلّ شخص قولا من أقوالهم يناسب حاله فيقول: "و قيل إن و التصوف كذا"، فاقتضى أنّ كلّ من له نصيب من صدق التوجه له نصيب من التصوف و أن تصوّف كلّ أحد صدق توجهه.[1] "

و لا يكون التصوف إلا بفقه إذ لا تعرف أحكام الله تعالى الظاهرة إلا منه، و لا فقه إلا بتصوف إذ لا عمل إلاّ بصدق توجه و لا هما إلاّ بإيمان إذ لا يصحّ واحد منهما بدونه، و منه قول مالك رحمه الله: "من تصوّف و لم يتفقه فقد تزندق، و من تفقه و لم يتصوف فقد تفسق و من جمع بينهما فقد تحقق[2]

و قد وجدنا تعريفا آخر مختصرا للتصوف يقول: "التصوّف هو التخلف بالاخلاق الإلاهية[3]و سوف لن يفوتنا أن نورد في سياق الحديث التعريف الذي قدمه الدكتور عكاشه الشايف في التصوف قائلا: "و الصوفية لغة، نسبة إلى الصوف، و هو اللباس المفضل عند مريديها، و قد أخذوه تقليدا عن الرهبان النصارى، و الصوفية نوع من التزهد و الغيبية، و تمثل ردة فعل من العقلانية... و كان التوكيد فيها على العاطفة (الحبّ الإلاهي) و على النور الداخلي الذي يقذفه الله في قلب المؤمن، و على الزهد و التقشف للإنسان إلى معرفة الله و التقرب الشخصي منه، و أخيرا الاتحادية، في سير تطورها أخذت الصوفية أيضا بعض الآراء المستمدة من البوذية كالاتحاد

1- أبو العباس أحمد بن محمد زروق: قواعد التصوف، مكتبة الكليات الازهرية- القاهرة 1989، ص 3.

2- كمال الدين عبد الرازق القاشاني من صوفية القرن الثامن الهجري: اصطلاحات الصوفية، تحقيق و تعليق الدكتور محمد كمال إبراهيم جعفر، مركز تحقيق التراث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1981م، ص 156.

با لله و الفناء فيه... و مما يشير إلى أثر الرهبة المسيحية في الصوفية الانقطاع للتأمن الروحي، و إطالة الهجود و الصلاة.[1].

و لعلّ الحديث سوف يجرّنا إلى الحديث عن المبدأ الأول عند الصوفية و الذي يقوم على مسألة الولاية المأخوذة من المذهب النصراني الغنوسطي، و الولي هو من يواليه الله و ينصره".[2]

و في البداية سنعرّف الولاية ثمّ سننتقل إلى الولي :

أما الولاية فهي قيام العبد بالحق عند الفناء عن نفسه، و ذلك بتولي الحق إياه حتى يبلغه غاية مقام القرب و التمكن[3]

و منها الولي : من تولى الله امره و حفظه من العصيان، و لم يخله نفسه بالخذلان حتى يبلغه في الكمال مبلغ الرجال، قال الله تعالى: ﴿و هو يتولى الصالحين (3)﴾ و من أجل إثراء الموضوع أردنا الإستزادة من المعلومات حتى نوفر تعريفا شاملا و كاملا حول هذان المصطلحان اللذان سوف نتعامل معهما طيلة عملنا، بحكم شدة الوثاقة بين الضريح و الولي الذي يسكنه.

و نورد هنا تفسيرا أكثر توضيحا للولاية.

فالوَلاية بالفتح: مصدرٌ.

و الوِلاية بالكسر: اسم و معناهما النصرة، قاله سيبويه و يقول الأزهري في هذا الصدد : الولاية بالفتح أظهر في النسب و النصرة، من قولهم: وليّ بين الولاية و بالكسر فهي الإمارة من قولهم وال بين الوِلاية.

1- الدكتور شايف عكاشة أستاذ بجامعة تلمسان: الحضارة العربية الإسلامية بين التطور و التخلف، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، 04-1994، ص 86-87

2- كمال الدين عبد الرازق القاشاني: نفس المصدر السابق، ص 54.

3- كمال الدين عبد الرازق القاشاني: المصدر نفسه، ص 54

و أمّا في الإصطلاح، فهو التمسّك بالطاعة على وجه القربة و الوليّ له معنيان :

-المعنى الأول أنه فعيل بمعنى مفعول و هو من يتولى الله سبحانه أمره: قال تعالى ﴿**و هو يتولى الصالحين**﴾ فلا يكله إلى نفسه لحظة، بل يتولى الحق سبحانه رعايته.

- و المعنى الثاني فعيل مبالغة من فاعل و هو الذي يتولى عبادة الله و طاعته فعبادته تجري على التوالي من غير أن يتخللها عصيان. و يفسّر هذا اللّفظ، حيثما ذكر حامله على أنه راجع إلى معنى القرب و الدّنو، و قد شاع ذلك لغة و استعمالا، فأولياء الله تعالى عبارة عن أقرب خلقه إليه، و أدناهم بالمنزلة و المكان لديه.

و من شروط الولي أن يكون محفوظا في ولايته، كما أنّ من شرط النبي أن يكون معصوما. و الآيات الواردة في حقهم عديدة، قال أبو أمامة الباهلي، قال رسول الله صلى الله عليه و سلم حاكيا عن ربه: "إنّ أغبط أوليائي مؤمن خفيف الحاد، ذو حظ من صلاة، أحسن عبادة ربّه و أطاعه في السرّ، و كان في الناس غامضا لم يشر إليه بالأصابع، و كان رزقه كفافا يتصبّر عليه، ثمّ نقر عليه السلام بأصبعه الأرض و قال: و عجلت منيّته و قلّت بواكيه و قلّ تراثه.و سئل رسول الله صلى الله عليه و سلّم عن أولياء الله تعالى فقال: ﴿**هم الذين يذكر الله تعالى برؤيتهم**﴾. و قيل في حقهم شعرا :

أمر ثقب النجوم من السماء ❖❖❖ نجوم الأرض أبهر في الضّياء

فتلك تبين وقتا ثم تخفى ❖❖❖ و هذي لا تكدّر بالخفاء

هداية تلك في ظلم الليالي ❖❖❖ هداية هذه كشف الغطاء[1]

و قال عمر بن الخطاب: "سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول": "إن من عباد الله تعالى عبادا ما هم بأنبياء و لا شهداء يغبطهم الأنبياء و الشهداء يوم القيامة"، قيل يا رسول

1- أبو العباس أحمد بن يتصارن الماجري المغربي : المنهاج الواضح في ذكر مناقب الشيخ أبي محمد صالح، الطبعة الأولى 1933، المطبعة المصرية محمد محمد عبد اللطيف،ص 100 .

الله أخبرنا من هم و ما أعمالهم، فلعلّنا نحبّهم: "هم قوم تحابوا في الله على غير أرحام بينهم و لا أموال يتعاطفن بها، فو لله إن وجوههم لنور، و أنهم لعلى منابر من نور، لا يخافون إذا خافى الناس، و لا يحزنون إذا حزن الناس"، ثم قرأ عليه السلام: ﴿**ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم و لا هم يحزنون** [1]. ﴾

و من المسلم به ان يكون لرجال كهؤلاء كرامات يخصّهم الله تعالى بها، و قد تداولتها ألسن الناس على مرّ العصور، فما هي الكرامة؟

2- الكرامـــة :

لفظها في اللغة اسم مشتقّ من التكريم أو الإكرام، بمعنى الفضل أو التفضل [2]"و في الاصطلاح هو أمر خارق للعادة يظهر على يد الوليّ من غير دعواه، يعقبه وقوع العلم بالتصديق ضرورة، و الكرامات لاحقة بمعجزات الأنبياء، فكرامات كلّ أمة لاحقة بمعجزات أنبيائها، فكرامات هذه الأمة لاحقة بمعجزات نبينا محمد صلى الله عليه و سلم.

قال سيدي أبو مدين يوما لأصحابه: كل معجزة كانت للأنبياء ظهرت كرامات للأولياء في هذه الامة تشريفا و تعظيما و تكريما لنبيّنا محمد (ص)، فقيل له يا سيدي و هل وقعت لبعض الأولياء كرامة بإنقلاب العصاحية قال نعم في حديث طويل[3]

و قال الإمام عز الدين بن عبد السلام: ما من عارف من امة محمد صلى الله عليه و سلم و لا ذي حال كريم أو مقام عظيم من كل ما يتقرب به إلى الله تعالى إلاّ و له عليه السلام مثل أجر ذلك العمل مضافا إلى أجور معارفه و أعماله، و ما من درجة علية و لا رتبة سمية نالها أحد من أمته باتباعه و إرشاده إلاّ و له مثلها مضافا إلى درجاته و علوّ مرتبته و مقاماته صلى الله عليه

1- الآية الرابعة من سورة يونس .

2- أبو العباس أحمد بن ينصارن الماجري المغربي: نفس المصدر السابق، ص 100 .

3- أحمد بن محمد المقري التلمساني : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، دار صادر بيروت ـ المجلد السابع، ص 143.

و سلّم و قد يضاعف له ذلك لأن كلّ من دعا أمته إلى هذا أو سنّ سنة حسنة كان له أجرها و أجر من عمل بها على عدد العاملين، ثمّ يكرر ذلك مضافا لنبينا محمد صلى الله عليه و سلم[1] .و قال أبو يزيد البسطامي: مثل ما حصل لنبينا عليه السلام كمثل زق فيه عسل ترشح منه قطرة، فتلك القطرة مثل ما لجميع الأولياء، و مثل ما في الظرف مثل ما لنبيّنا محمد صلى الله عليه و سلم و ذهب كثير من الناس إلى أن الكرامة لا تقع اختيارا، و لو قصد الولي وقوعها اختيارا لم تقع. و قد خالف إمام الحرمين "**الجويني**"[*]في هذا، فقال: "هذا قول غير مرض بل المختار عندنا ألا يمتنع وقوع الكرامة على وفق مراد الولي و قصده و اختياره كما لا يمتنع وقوعها على غير اختياره ، و دليل ذلك فعل عمر رضي الله عنه حين صرخ و هو على المنبر بساريته و جيشه، و هم بأكناف نهاوند و كان قصده و اختياره أن يسمعوا كلامه فوقع ذلك كما أراد و اختار[2] .

و هي تخص أولئك الذين لا يستأنسون كثيرا بها بل عند ظهورها، يصير خوفهم من الله تعالى أشد و حذرهم من قهره أقوى، و هم لا يفرحون بها إلا لإظهار الدل و التواضع في حضرة الله، فإن ترفعوا و تكبروا بسبب تلك الكرامة، فقد بطل ما بهم [3]

و قد كثر الحديث عن التسليم بوجودها إلا أنه مهما كان الإختلاف في وقوعها أو عدم وقوعها فلا بد من التسليم بأنها ظاهرة ثقافية تلمس عندنا في الممارسات اليومية لدى الناس. و لا حجة لمن يرفضها جملة و تفصيلا بإسم العقل، لأن الظاهرة التي لا توزن بميزانها، و لا تقدر

1- المقري : نفس المصدر السابق، ص 142 .

*- الإمام الجويني : هو إمام الحرمين، شيخ من شيوخ العقيدة الأشعرية، أخذ عنه أبو حامد الغزالي، من مؤلفاته كتاب الإرشاد.(ينظر إلى كتاب محمد بن محمد مخلوف شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الكتاب العربي بيروت - لبنان، ص 320).

2- المقري : المصدر نفسه، ص 142 .

3- جمال الدين بو قلي حسن : إبن يوسف السنوسي في الذاكرة الشعبية و في الواقع، رسالة لنيل درجة "ماجستار" جامعة تلمسان، معهد الثقافة الشعبية سنة 1997، ص 87 - 88.

بمقاييسها، تكون عرضة لأسوأ الأحكام، إن ظهور الكرامات على يد الأولياء جائز عقليا و شرعيا.[1]

1- جمال الدين بوقلي حسن : نفس المرجع السابق، ص 88 -89.

ثانيا : لمحة عن الأولياء بتلمسان

يحتل الضريح مكانة لا يستهان بها في الحياة اليومية و العقائدية للإنسان المسلم، و بالتالي في منشآته المعمارية و الثقافية لذلك يستلزم علينا الموضوع الذي نحن بصدد دراسته إلقاء نظرة حول الضريح الإسلامي لما لهذا الأخير من دور هام في حياة الإنسان اليومية.

لقد وجد الناس المقهورون في هذه الأضرحة و فيمن يسكنهم من أولياء صالحين أو علماء منفذا و ملجأ من مشاكلهم، و قهرهم و تعسف الحكّام عليهم.

و من أمثلة هؤلاء الأولياء المشهورين في تلمسان :

أ- سيدي الحسن بن مخلوف بن مسعود بن سعد المزيلي الراشدي أبو علي الشهير بأبوكان:(*)

الشيخ الإمام العالم الولي الصالح القطب الغوث الشهيربأبركان أخذ عن الإمام سيدي إبراهيم المصمودي و الإمام ابن مرزوق الحفيد و أخذ عنه الحافظ التنسي و سيدي على التالوتي و أخوه لأمه الإمام الشيخ السنوسي[1]

ولد الشيخ بتلمسان في قرية تسمى جمعة (جامحة) و التي تحطمت بفعل الحروب و هجرها سكانها إلى تلمسان و المدن المجاورة، جاءت أمّه لتستقر بالمنصورة في عهد السلطان أبي الحسن المريني حينما كان يحاصر تلمسان عام 737هـ، في حكم أبي تاشفين[2]

لقد كان الشيخ متمكنا من كل فروع العلم، العلوم الإسلامية، القواعد اللغوية، الحساب وخاصة كل ما يتعلّق بالكتب التي تعالج المذهب المالكي و الفرائض الدينية[3]

---

*- أبركان : معناها بالبربرية الأسود

1- ابن مريم (أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد) : البستان في ذكر الأولياء و العلماء بتلمسان، المطبعة الثعالبية الجزائر سنة 1326 -1908،ص 74

2- BARGES: Complément de l'histoire de Beni Zeiyane (Rois de Tlemcen) ouvrage du cheikh Mohammed Abd'al-Djalil al Tenessy, Paris 1887, p. 322.

3- BARGES: Ibid. p. 340

توفي آخر شوال سنة 857 و هو يحتل أعلى درجة التصوف و ضريحه موجود خارج باب زير بمدينة تلمسان من الجهة الشمالية الشرقية، و قد شيد مسجد فوق ضريحه يحمل إسمه و لكن هذا المسجد أصبح خرابا اليوم.[1]

ب- أبو إسحاق الطيّار:

و الشيخ أبو إسحاق الطيار "من أكابر الأولياء قيل أنّه لم يضطجع أربعا و عشرين سنة قائما بالليل صائما بالنهار، توفي قبل كمال السبعمائة و قبره مزار بالعباد[2]

جـ- سيدي يعقوب :

قبة ضريح سيدي يعقوب من أقدم القباب و من اكثرها شعبيّة. سيدي يعقوب التفريسي من الأولياء العظام الزهاد في الدنيا... و كان لخطاب الشيخ رضي الله عنه عدد هائل من الطلبة و المستمعين و أحاديث كراماته لا تحصى، و قبره رضي الله عنه بباب وهب. [3]

د- سيدي السنوسي:

الشيخ محمد بن يوسف عامر ابن شعيب السّنوسي، ولد بتلمسان عام 830 للهجرة (1426-1427م) تحت حكم السلطان أبو عبد الله محمد ابن تاشفين، أصله من قبيلة بني سنوس(*)(4) .

1- محمد بن رمضان شاوش : نفس المرجع السابق، ص 261.

2- ابن مريم : نفس المصدر السابق ص 296-297

3- ابن مريم: المصدر نفسه، ص 296-297.

* - قرية بني سنوس : موجودة جنوب غرب تلمسان، إن بني سنوس في الواقع هي مجموعة سكانية من القرى نصف حضارية تعيش بالقرب من تلمسان. و لما كان "بني سنوس" عريقة في التاريخ و التمدن و كان موقعها بين المغربين الأقصى و الأوسط فإن أستاذنا الدكتور "عبد المجيد مزيان" لا يستبعد أن يكون منشأ السنوس بهذه الناحية. (أنظر جمال الدين بوقلي حسن : الإمام إبن يوسف السنوسي و علم التوحيد، المؤسسة الوطنية للكتاب، 3 شارع زيروت يوسف، الجزائر 1985، ص 55.)

4- Ch Brosselard : « Inscription Arabes de Tlemcen, in R.A. T4, Office des Publications Universitaires Alger, N° 3 1858-1859, p 245

نشأ خيّرا، فاضلا مباركا، صالحا... قرأ على يد الشيخ أبو الحجّاج يوسف ابن أبي العباس أحمد بن محمد الشريف الحسني أخذ عنه القراءات السبع... و على يد الولي الكبير الصالح الحسن بن مخلوف الشهير بأبركان... و ألبسه الإمام العلامة الولي الزاهد الناصح ابراهيم التازي الخرقة... كان رحمه ا لله آية في علمه و هدية و صلاحه و سيرته و زهده و ورعه، برز في علم التوحيد و المعقول و شارك غيره في العلوم الظاهرة و انفرد بالعلوم الباطنة... و هو في علوم الباطن قطب رحاها و شمس ضحاها... صار جامعا بين الشريعة و الحقيقة... جمع له العلم و العمل و الولاية إلى النهاية... كان أورع أهل زمانه. من مؤلفاته العقيدة الكبرى المسماة عقيدة التوحيد ثم العقيدة الوسطى ثم الصغرى، توفي و هو يبلغ الثالثة و الستين من العمر[1]

مات يوم الأحد من جمادى الثانية سنة 895هـ (ماي 1490م) و ضريحه موجود على يمين الطريق المؤدي للعبّاد و غير بعيد عن قبر أبي عامر.

هـ- أبو عبد الله ابن مرزوق :

الشيخ الصالح أبو عبد ا لله محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق بن الحاج التلمساني، القيرواني الأصل، مولده في حدود تسع و عشرين و ستمائة،... و كان الفقيه أبو عبد ا لله هذا من الصلحاء المشاهير و الأولياء الأعلام، محدثا فقيها متصوّفا زاهدا عابدا، له كرامات و مكاشفات و آثار في الترهيب و العلم شهيرات... و توفي أوائل رجب الفرد (12) سنة إحدى و ثمانين و ستمئة، فدفن إزاء أمير المسلمين أبي يحيى يغمراسن بن زيان في دار الراحة من الجامع الأعظم لوصية أمير المسلمين رضي ا لله عنه[2].

1- ابن مريم: نفس المصدر السابق، ص (238...247).

2- أبو زكرياء يحي ابن خلدون : بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد تقديم و تحقيق و تعليق الدكتور : عبد الحميد حاجيات، إصدارات المكتبة الوطنية (النصوص و الدراسات التاريخية 4) الجزائر 1400-1980، ص 114.

و – أبو إسحاق التنسي :

و أبو إسحاق (بن يخلف بن عبد السلام) التنسي، من العلماء الصالحين الأولياء، زاهد ورع، ذو كرامات شهيرة، و مكانة عند الملوك عظيمة، ألف في العلم كثيرا وحج و عاد إلى تلمسان فتوفي في حدود الثمانين و ستمئة، قبره رحمه الله بالعباد[1] .

ي – أحمد بن الحسن الغماري :

لا خفاء أنه من أكابر أولياء الله تعالى المنقطعين لعبادته و تلاوة آياته في آناء الليل و أطراف النهار مع الصبر على ملازمة الخلوات و ترك جميع الشهوات... كان سيدي احمد يمكث بدويرته بعد اغلاق المسجد مدة ثم يأتي إلى المقصورة فيتهجد بها الليل كله... و قد توفى بتلمسان في ثاني عشر شوال سنة 874 و دفن بخلوته شرقي الجامع الأعظم[2]

ك – سيدي محمد ابن أبي عامر :

ينتمي محمد بن أبي عامر لعائلة أصلها من المهدية و قد انتقل إلى تلمسان، بعد اضطراب حكم الحفصيين بتونس، فأتى إلى تلمسان في حكم أبي حمّو موسى الأوّل و شغل منصب القاضي بحكم علمه الواسع بهذا المجال، و قد عايش أيضا فترة الحكم المريني بتلمسان، توفي في شهر ذي الحجة من سنة 745. ضريحه موجود في المقبرة الواقعة يمين طريق العبّاد إذ نجد قبة صغيرة، تأثرت كثيرا و لم يبقى من معالمها الكثير [3].

ل – سيدي عبد القادر الجلاني:

عبد القادر بن أبي صالح بن جنكي دوست(*) ينتهي نسبه إلى الحسين بن علي رضي الله عنها. الشيخ أبو محمد الجيلي الحنبلي المشهور الزاهد، صاحب الكرامات، قدم بغداد و تفقه على

1- أبو زكرياء يحيى ابن خلدون: نفس المصدر السابق، ص 114.

2- ابن مريم: نفس المصدر السابق، ص 31.

3- Ch Brosselard: Opsit , N3, p. 241-242-243.

* – دوست : كلمة فارسية و معناها بالعربية الصديق.

القاضي أبي سعد، و سمع الحديث، و كان يأكل من عمل يده، و تكلم في الوعظ و ظهر له صيت و كان له سمت و صمت.

ولد بجيلان سنة 491 هـ و توفي سنة 561 هـ، كان إمام زمانه و قطب عمره و شيخ شيوخ الوقت بلا مدافع. ضريحه الذي يحوي جثمانه يوجد ببغداد بالعراق. و ضريحه المشيد له بتلمسان مزار، معروف[1] .

إلى جانب مجموعة كبيرة من الأولياء بعضهم بقيت معالمهم مسجد (لالة رويا) مسجد (سيدي البنّا) مسجد (سيدي اليدّون) مسجد (لالة غريبة) و هذه المساجد تحوي أضرحة هؤلاء الأولياء و تنسب إليهم.

أمّا من الأضرحة المنعزلة: قبة ضريح سيدي بوجمعة، سيدي الدّاودي، قبة سيدي عبد الله بن منصور (بأحواز تلمسان، عين الحوت تحديدا)، و قبة سيدي محمد بن علي التي تقع على بعد 200 متر شمال ضريح سيدي عبد الله بن منصور، قبة سيدي عبّاد بالعبّاد، و قبة سيدي سعيد.[2]

1- محمد بن محمد مخلوف : شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، ص 85.

2- Le site : Tlemcen : p. 65

ثالثا : التعريف بمصطلح الضريح

و تجدر الإشارة بادئ ببدئ إلى التعريف الإصطلاحي للضريح حتى نحدّد الخطوط العريضة و المراحل الهامة التي مرّ بها. و كذا العوامل التي أثرت في ظهوره بشكل رائع في عدّة حقبات من الزمان و بشكل بسيط في عهود أخرى.

الضريح مأخوذ من كلمة ضرح، و ضرح الشيء أخفاه أرضا، فهو لغوّيا يعني القبر و فعل ضرح أي حفر و شق التراب أو الأرض. و قد اقترن الحديث عن الضريح بقبر ولي من أولياء الله الصالحين، أو بسلطان من السلاطين أو بعالم من العلماء. و قد شاع مصطلح المقبرة و التربة رمزا للضريح أمّا القبر فهو آخر مثوى للإنسان البسيط و العادي[1] .

و الضريح معلم توفرت فيه سمات العظمة و الهيبة بقي تتقاذفه موجات القبول و الرفض و ذلك راجع للنزعات الدينية و الاتجاهات المذهبية، و بما أنّ حديثنا سوف لن يتّصل بهذا الجانب فنحن نحبذ الحديث عنه كمعلم أثري بارز لعب و لا يزال يلعب دورا هاما في إثراء الفنّ المعماري الإسلامي.

لا يكاد يخلو بناء أي ضريح من القبّة، و القبة اختلفت حولها الآراء فمنهم من قال أنّها "ترمز إلى صورة متطورة للخيمة التي يستخدمها البدو العرب... و في بلاد المشرق إلى الباري عز و جل بقولهم "أبو الخيمة الزرقاء" أي مالك السماوات و الأرض[2].

فيما يرجع آخرون وجودها إلى كون "القبة التي تبنى فوق الضريح سواء كانت فارسية أو إسلامية ترمز إلى السماء[3]

1- سعيدي محمد (استاذ بجامعة تلمسان): ظاهرة زيارة الأولياء و الأضرحة في منطقة تلمسان و أبعادها الاجتماعية و النفسيّة، مطبوعات الكراسك (Edition Crasq) وهران، جوان 1995، ص 40.

2- سعيدي محمد : المرجع نفسه، ص 40.

3- ثروت عكاشة: القيم الجمالية في العمارة الإسلامية (الأضرحة و المقابر)، دار العارف القاهرة 1981،ص 136.

و المهم أن الضريح لا يخلو من القبة فهي سمة ملتصقة به التصاقا وثيقا، و ضريح الولي نفسه مكان يمتاز بالبياض الناصع في أعاليه مكونا وسط ظلام الغابات و الغياض منظرا طبيعيا مألوفا في شمال إفريقيا... و توحي تقبيتها البدائية بالمحافظة على تقاليد محليّة قديمة[1].

و الضريح قديم بقدم العمارة الإسلامية إذا ستثنينا العصرين الأموي و العبّاسي فقد وجد في مختلف العصور الإسلامية نذكر منها الأضرحة الفاطمية، الأيوبية، الأضرحة السلجوقية، الأضرحة المملوكية، العثمانية و الصفويّة، و لعلّ ندرته إن لم نقل إنعدامه في العصرين الأموي و العباسي قد كان لقرب عهدهما بالإسلام الذي كان يمقت تعظيم الأضرحة و الإسراف في بناءها.

و قد أصبحت أضرحة الورعين و المتعبدين هذه الشخصيّات الجليلة معابد عادية يقصدها الورعون الأوفياء كما يقصدون المسجد.

النساء خاصة في إفريقيا الشمالية، لم تكن لهن عقيدة سوى إجلال هؤلاء الصالحين، و لا معبد آخر سوى زيارة هذه الأضرحة و إنجاز أعمال و معتقدات أشبه بطقوس، تضحيات و قرابين، كإشعال الشموع، الرشّ بماء الورد و كلّ هذا يكوّن الزيارة[2]

أمّا الضريح بمدينة تلمسان، فلا نجده إلاّ في عهد الموحدين و لعلّ أوّل ضريح شيد هو ضريح الشيخ أبي مدين شعيب، إذ لم تخلّف لنا حقائق تاريخية تبرز وجود أضرحة بارزة قبل هذا العهد. هكذا و مع مرّ العصور، كانت هذه الأجيال من الرّجال التي وهبت حياتها إلى الله (الرجال الصالحين) قد جعلت من تلمسان "المدينة المحروسة"[3].

1- ارنست كونل: الفن الإسلامي، ترجمة الدكتور أحمد موسى، دار صادر بيروت 1966، ص 124.

2- Wiliam et George Marçais : les monuments arabes de Tlemcen, Librairie des Ecoles Française, 4, Paris 1903, P 330-331

3- Anonyme : Le Site Tlemcen, p 64.

و رغم كثافة هذه الأضرحة فالبعض منها محليّ و الأخرى مشهورة في كلّ المغرب يتزايد عددها كلّما تقدمنا نحو الغرب،/فالرّيف المجاور لتلمسان غنيّ بشكل ملحوظ بالأضرحة الجليلة. وبعض هذه الأضرحة مخصص لعلماء و زهاد ناسكين، فقرية عين الحوت مشهورة بالوليين الصالحين و هما "عبد الله بن منصور" و "سيدي محمد بن علي".[1]

و نظرا للإهتمام الذي كان يحيط به هؤلاء الأسياد المدينة، و الهيبة التي كان يغمرها بها العلماء كانت محبّة السكان و تقديرهم لهم لا توصف فحينما كان يدفن أحد هؤلاء الأسياد المشهورين بفضيلته و ثقافته و ورعه، كان الناس جميعا سواء في تلمسان أو في ضواحيها لا يتأخرون عن المشاركة في مراسيم الدّفن و لقد كان هؤلاء العلماء محل حبّ و احترام و تقدير العامة من الناس و تجدر الإشارة أيضا إلى أنّ ثلاثة أنواع من الأماكن تكوّن أماكن مفضلة لهذه الأضرحة.

- الجوار المباشر لأبواب المدينة : كانت الأضرحة المقببة تكثر أمام بوابات المدن و في الجبانات خاصّة"[2] فالمقابر في الإسلام عادة ما كانت تقام على بوابات المدن، و يدفن الرّجل الصالح التقيّ قرب باب المدينة بدون وجود مقبرة مسبقة في هذا المكان، و هذا من أجل ضمان بركة هذه الباب بجوار هذا الرجل التقي، فالوليّ إذن هو نوع من العبقرية الحاميّة للمكان المعيّن، فحراسة المدخل المجاور لضريحه مسلّمة لقوّته و حماسه (فهو الملاك الحارس) فعليه أن يحميها من العدوّ و من الشرور التي قد تريد الدخول إلى المدينة. (و مثال ذلك محاولة ملك تونس الدخول إلى تلمسان(*).

1- William et Georges Marçais : les monuments ..., p 339-341.

2- أرنست كونل: نفس المرجع السابق ، ص 124.

* - عندما قدم حاكم تونس إلى تلمسان سأل وزراءه من أين أدخل إلى المدينة ؟ فقالوا من أي باب شئت، فسأل عن عدد الأبواب و قال من هو الوليّ الذي يحمي باب الجياد؟ فقالوا سيدي أبي مدين، و باب العقبة؟ سيدي أحمد الداودي، و باب الزاوية؟ سيدي الحلوي، و باب القرمادين من يحميها؟ فقالوا لا أحد، فقال من هذه الباب سوف أدخل، و تحكي الاسطورة أن سيدي عبد الله بن منصور الذي كان لا يزال حيّا قد اخذ على عاتقه حماية باب القرمادين حتى يحمي تلمسان"(ينظر إلى كتاب »: « Les monuments Arab ... , P 332-333 : William et Georges Marçais) .

ـ كما نجد في بعض الأحيان مقابر أمام أو خلف أو بجوار الضريح من أجل البحث عن التبرك مما أعطى الفرصة لظهور مقابر صغيرة على أبواب المدن/ بتلمسان مقبرتان قديمتان توجدان مباشرة بجوار قباب سيدي وهاب و سيدي يعقوب في الوسط و الأرضية التي تتوزع فيها المقابر تحيط بسيدي الدّاودي(1)[4].

ـ كما نلاحظ أيضا أن المرتفعات تعدّ من الاماكن الملائمة لدفن الصالحين، هذا فمن الجبل أو التلّ الذي دفن فيه يستطيع الوليّ المراقب أن يحمي البلد الذي يقع تحت قدميه، أمّا الذين يسيرون في هذه السهول فيحسّون بالأمان بما أنهم تحت حماية الولي طالما يشاهدون قبته البيضاء بتلمسان (لالة ستي) (تلك التي تراقب البلد) كما تسميّها الأغاني المحليّة، مدفونة فوق الهضبة الحجرية التي تطل على المدينة و تقع في الجزء الجنوبي الغربي، ضريح سدي أبي مدين يقع على المنحدر الشمالي لمنحدر المفروش و أخيرا الولي المبجل عبد القادر الجيلاني الذي نجد مقامه (معلم اثري تذكاري) بمكان عال غير بعيد عن تلمسان.

ـ كما نجد و في العديد من الأحيان أضرحة الصالحين في الجوار المباشر للمساجد، أين يدفن الزهّاد الناسكون و العلماء بالقرب من المصليّات التي كانوا يترددون عليها خلال حياتهم، و هذا حال سيدي محمد ابن مرزوق الذي دفن بأمر من يغمراسن بالقرب من الزاوية الجنوبية الغربية للمسجد الكبير، في الجانب الآخر من المبنى للغرفة الضريحية الصغيرة التي تحوي ضريح سيدي أبي الحسن الغماري الولي الصالح... و من بين هؤلاء تجدر الإشارة أيضا إلى سيدي عبد الله بن البلد الذي حسبما تقول النصوص دفن بالقرب من المسجد الصالح بالعبّاد.[2]

1- William et Georges Marçais : Les Monuments arabes ..., p. 332-333
2- William et Georges Marçais : Ibid, p.332-333

ـ حالة أخرى متواجدة أيضا و تتمثل في بناء المسجد بعد دفن الصالح بالقرب من ضريحه يبنى المسجد. فضريح الصالح قد أصبح قبلة للحجّاج و الزائرين و لعل اللعنة التي حملها الرسول (ص) ضد من يتخذون كمصليّات أضرحة الأولياء و الرجال المبجلين لم تمنع على مرّ العصور هذه النزعة الطبيعية من الورع الإنساني فضريحه بالمدينة متواجد داخل المسجد. أمّا في المغرب فالأمثلة عن هذه البدعة كثيرة.

/ فمثلا بتلمسان بمسجد سيدي أبي مدين فناء صغير يفصل قبّة الولي الصالح عن المسجد، مسجد أبي الحسن الراشدي يقع في جوار الغرفة التي يرقد فيها الولي الصالح مسجد سيدي الحلوي يعلوه و يسيطر عليه ضريح الولي سيدي الحلوي، و مثال (لالة غريبة) و (سيدي اليدّون) اللذين دفنا تحت قبات المصليّات التي تحمل اسمهما/[1]

تجدر الإشارة إلى نقطة هامة تخصّ الأضرحة و هي تتمثل في كون اختلاف أنواع الأضرحة و كذا الاختلاف في درجة أهميتها، فالبعض منها نتاج تعود عفوي للأوفياء، بينما الأخرى أعمال رسمية أكثر و هي من تأسيس ملوك و سلاطين. البعض منها ليس بها سوى جدران من الحجر الجاف المبيض بالجير بأيدي النساء التي تزرن الولي كلّ جمعة و تسمى الحويطة.(***Hawita***) .

أخرى مكشوفة (بدون سقف) و هي عبارة عن مكان مسور (نطاق) دائري أو مستطيل مزين بشرافات في الأركان الأربعة بتقنية بسيطة تعرف بالأحواش.

و أهمها الأضرحة التي تتخذ شكل القبّة و تحمل نفس الإسم، إنّ هذا الشكل متواجد أيضا بالمشرق، بالقاهرة و يعرف بالتربة(*) تعلوها قباب مستدقة الرأس(***Pointue***) ، بتلمسان القباب كروية أو متعددة الأضلاع (مضلّعة القاعدة)، الشكل البيضاوي (***Ovoïde***) أيضا ينتمي

1- Wiliam et Georges Marçais : Les monuments ...., p 332-333

* – التربة : كلمة تركية تدل عن المقابر التي يدفن فيها السلاطين العثمانيون و أبناءهم، و هذه التربة تعتبر جزءا من المساجد الكبيرة التي يشيدها السلاطين. (ينظر كتاب **أوقطاي آصلان آبا : فنون الترك و عمائرها : ترجمة أحمد موسى عيسى، مركز الأبحاث للتاريخ و الفنون و الثقافة الإسلامية، الطبعة العربية الأولى مطبعة رانكال، بإسطنبول 1987، ص 57.**)

أكثر إلى المشرق. القبة تكون مطليّة بالجّص، و في بعض الأحيان مكسوّة بسقف من القرميد كالقبّة التي تسبق المحراب.

هذا الشكل التقليدي لم يختلف كثيرا عبر العصور بتلمسان كما أن التحليّة الداخلية لقباب الأضرحة من أغناها قبة ضريح سيدي أبي مدين التي رممت من طرف عدد من الملوك المتعاقبة. إلاّ أن تبني قواعد معيّنة من جهة و الترميم المتواصل من جهة أخرى جعلا عددا كبيرا من هذه المعالم يفقد قيمته و يبدو ضعيفا من الناحية المعمارية[1]

و من هنا يتبيّن لنا أنّ الأضرحة لعبت و لا تزال تلعب دورا هاما في التركيبة النفسية و الإجتماعية لمجتمعنا، فالضريح ليس فقط بمعلمه، بل بما يمثله من رمز مقدّس. كما أن ظاهرة زيارة الأولياء الصالحين ليست وليدة الصدفة و ليست أيضا نبتة غريبة عن التربة الثقافية و الإجتماعية لهذا المجتمع.[2]

1- William et Georges Marçais: les monuments .... p. 335-336

2- سعيدي محمد : نفس المرجع السابق، ص 5.

الفصل الأول

تاريخ مدينة تلمسان

أولا : الموقع الجغرافي لتلمسان

ثانيا : العهد الإدريسي

ثالثا : العهد المرابطي

رابعا : العهد الموحدي

خامسا : العهد الزياني

سادسا : العهد المريني

سابعا : العهد التركي

أولا : الموقع الجغرافي لتلمسان

يجدر بنا قبل أن نسترسل في ذكر تاريخ تلمسان العريق و أمجادها العتيدة أن نعرف بالمدينة و موقعها الجغرافي.

تقع مدينة تلمسان في الإقليم الغربي من أرض الجزائر الذي اصطفته الطبيعة بالجبال، و تقتعد بسفح جبل يحفظها من الجنوب عروسا فوق منصته أو ملكا على رأسه تاجه [1]

و تمتاز تلمسان بموقعها الجغرافي الإستراتيجي مما جعل منها درة في تاج المغرب، و قبلة للزائرين و القاصدين. تشرف تلمسان شمالا على البحر الأبيض المتوسط و جنوبا على هضبة تيرني، شرقا تحدها مدينة سيدي بلعباس و غربا مدينة مغنية. نشاهد بها الآثار العظيمة للمنصورة، من الشرق، يخفي جبل العباد قرية العباد أين يرقد الولي الصالح.

و يصفها يحي ابن خلدون على أنها : "شبيهة بالعروس على فراشها ليلة زفافها."[2]

و لم يسمي الرومان ذلك البلد "بوماريا" أي البستان عبثا فقد كانت تنعم بتلك المياه المنهمرة و بتلك الخضرة الكثيفة و بذلك الهواء النقي، و لقد أصاب الخطيب بن مرزوق في قوله عن تلمسان : "يكفيك منها ماؤها و هواؤها."

و يقول المقري في تلمسان :

بلد تحف به الرياض ❖❖❖ وجه جميل و الرياض عذاره

و كأنما واديه معصم غادة ❖❖❖ و من الجسور المحكمة سواره[3]

1- محمد بن عمرو الطمار : تلمسان عبر العصور دورها في سياسة و حضارة الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب 3، شارع زيروت يوسف الجزائر 1985- ص 7

2- William et Georges Marçais : Les monuments Arabes ... ,p7.

3- محمد بن عمرو الطمار : المرجع نفسه، ص 7-8.

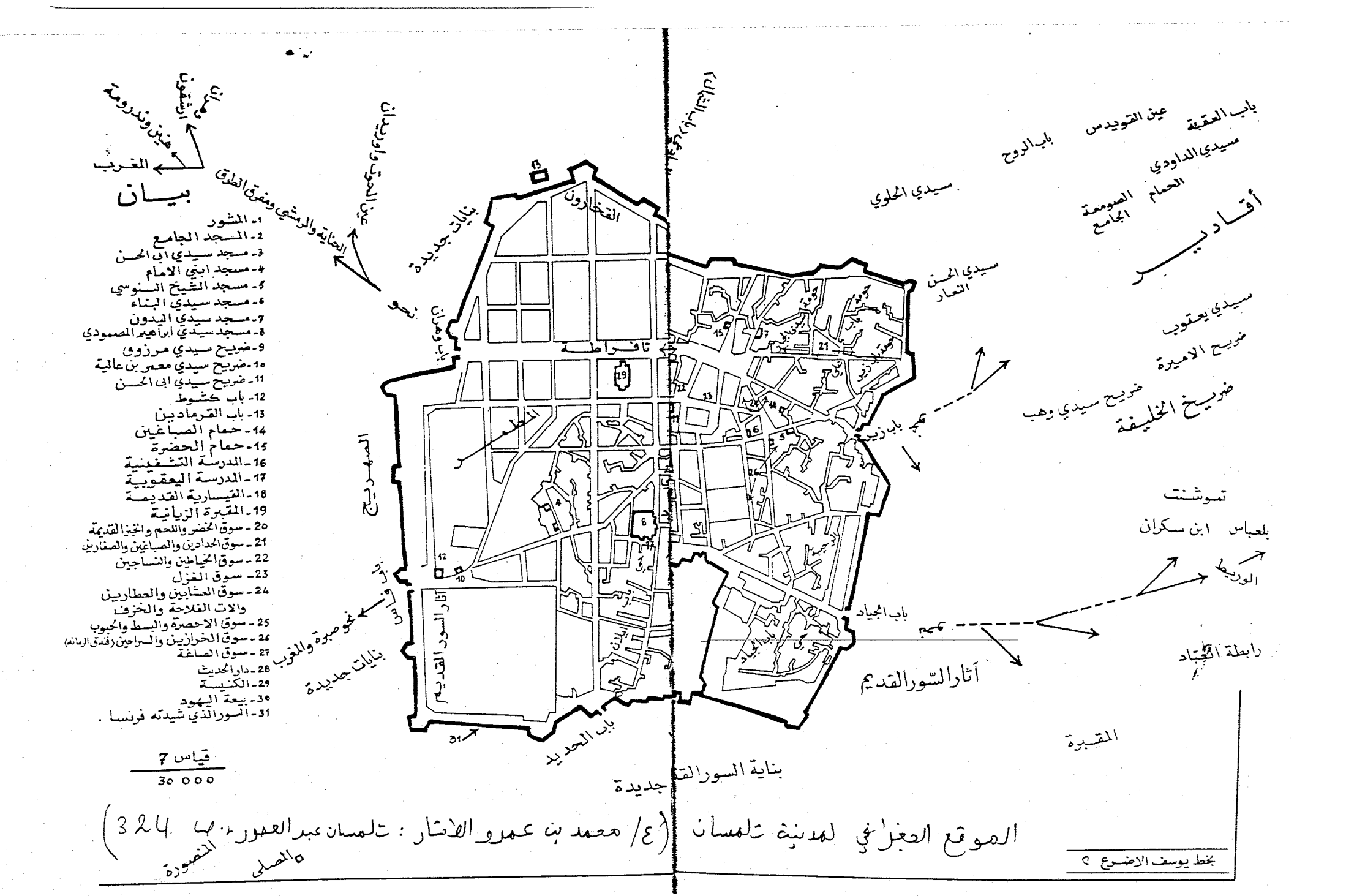

الموقع الجغرافي لمدينة تلمسان (ع/ محمد بن عمرو الاشتار : تلمسان عبد العمور ص 324)

و حديثنا الآن سوف يكون حول تسمية المدينة و ما للشعوب التي عمرتها من أثر على هذه التسمية.

سميت تلمسان في الأول بومارية و قبل بومارية، حاول المؤرخون البحث عن إسم للمدينة في العصور القديمة فلم يجدوا سوى بومارية "إن هذا الإسم لا يعني أن المدينة تأسست في العهد الروماني، فلا شك أنها أقدم من ذلك و لما استتب الأمر للبربر بعد تدخل نفوذ الأجانب من الرومان و الوندال و البيزنطيين أطلقوا عليها بلغتهم إسم "أقادير" ما يجمع العبارتين "جدار قديم و مدينة محصنة.[1]

إذن فأقادير كلمة بربرية عرفت بها تلمسان، قبل أن تعرف إسمها الذي احتفظت به إلى يومنا الحالي، ألا و هو تلمسان.

"تلمسن" : كلمة مركبة من تلم، و معناه تجمع، و سن و معناه إثنان أي الصحراء و التل، فيما ذكره الشيخ أبو عبد الله الآبلي رحمه الله... مدينة عريقة في التمدن لدنة الهواء، عذبة الماء، كريمة المنبت، اقتعدت بسفح جبل... عروسا فوق منصة، و الشماريخ مشرفة عليها إشراف التاج على الجبين [2]

"ثم سميت المدينة (تلمسان) و هذا الإسم في لغة زناتة، مركب من (تلم) و معناه تجمع و من (سان) و معناه إثنان أي الصحراء و التل و يرد في تفسير المقري لكلمة مدينة تلمسان أنه يطلق عليها إسم تلمشان و هو مركب من "تلم" و معناه لها و "شأن" أي لها شأن و على كل حال فإن كلمة تلمسان (بربرية) الأصل . و هو إسم يوافق المسمى كما وافقها إسم (بوماريـة) في عهد الرومان فإن كلمتا تلمسان و (بومارية) متقاربتان من حيث المعنى احتفظت لنا تلمسان

1- محمد بن عمرو الطمار : تلمسان ....، ص 9.

2- أبو زكرياء يحي ابن خلدون : نفس المصدر السابق، ص 85-86.

القديمة (بومارية) بأطلال قليلة جدا، تعود إلى عهد الرومان، بقايا من سور كان يحيط بها و أحجار ملقاة هنا و هناك استعمل بعضها في تدشين الجزء الأسفل من الصومعة التي أمر ببنائها "يغمراسن بن زيان" و قد كانت تلمسان (بومارية) الممر الوحيد و قتذاك بين المغربيين الأوسط و الأقصى"[1]

و هكذا نلاحظ أن المدينة قد حملت كل أسماء العز و الشموخ منذ قرون خلت و يشير أيضا يحي ابن خلدون إلى أن تلمسان تتكون من مدينتين ضمهما الآن سور واحد، أحدهما أولية و تعرف **بأجادير** و بها آثار عادية و كنائس حتى الآن معمورة بالنصارا ... هي قاعدة المغرب، و دار مملكة زناتة و محل العلماء و المحدثين و الصلحاء... و الأخرى تعرف **بتاجرارت** بناها ملك لمتونة يوسف بن تاشفين سنة 462 هـ بمكان محلته و لذلك سميت باسم تاجرارت، فإنه إسم المحلة بلسان زناتة [2]

و المهم أن تلمسان كلمة بربرية معناها تلم (تجمع) سان (اثنان) (تاجرارت و آقادير).

عرفت تلمسان أيضا دخول الأفواج المسلمة فحكمها الأمويون قبل عام 132 هـ (750م) ثم العباسيون من بعدهم و خرجت بذلك تلمسان بتاريخها من الظلمة، و قد كان الخوارج كعقيدة منشقة، كان قائدها بالمغرب أبو قرة اليفرني و الذي كان سيدا بربريا من قبيلة زناتة .. و الذي جعل من آقادير قاعدة أساسية [3]

1- محمد بن عمرو الطمار : تلمسان ... : ص 9-10-11

2- أبو زكرياء يحي ابن خلدون : نفس المصدر السابق ، ص 90-91

3- حجاج أول محمد : "تلمسان مدينة الفن و التاريخ"، محاضرة ملقاة خلال الملتقى الدولي للأدب (Litérature camparé) جامعة 2 باريس - السربون (Paris V) 22-26 ماي 1984،ص 6

ثانيا : تلمسان في العهد الإدريسي

خلال القرن التاسع الميلادي كانت تلمسان تحت حكم الأدارسة بفاس " وقد احتل إدريس أقادير و أصبحت لبعض الوقت تابعة لفاس" (1)

و قد دخل ادريس بن عبد الله الحسيني إلى تلمسان دون مقاومة فقد سلمها له محمد بن خزر المغراوي و بايعه. و بعد أن استتب لإدريس الأمر بتلمسان واصل فتحه في المغرب (2)

و من الضروري أن نشير إلى أن البربر حينما ثاروا كانت ثورتهم ثورة ذات أبعاد سياسية و إجتماعية لا غير فإنهم لم يفكروا البتة في نبذ الإسلام و الرجوع إلى الوثنية أو المسيحية أو اليهودية، و قد قضى "ادريس الأول" على حركة الخوارج في إقليم آقادير و بعده "إدريس الثاني" ثم انتشرت بعد ذلك الحركة الشيعية فقاومتها زناتة بمساعدة الدولة المروانية بالأندلس، حيث كان المذهب السني سائدا (3)

المهم أن آقادير و برغم ما عرفته من تطور، إلا أنها لم تضاهي في تطورها الفكري و الثقافي « تيهرت" التي كان يعمها الأمن و كانت تحوز على مستوى ثقافي عال في حين و بالموازاة لم تعط أقادير للثقافة حظها الوفير، و لكن هذا لا يعني انعدام العلماء بها فلنا (أبو جعفر أحمد بن منصور الداودي) الذي شرح صحيح البخاري.

1- AMAR DHINA : Cités musulmanes d'orient et d'occident, Entreprise Nationale du livre - ALGER, N° 4 Edition : 1351/83 Alger 1986, p 83.

2- محمد بن رمضان شاوش : باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بن زيان، ديوان المطبوعات الجامعية بن عكنون الجزائر 03-1985 ص 56.

3- محمد بن عمرو الطمار : تلمسان ...، ص 37-38.

ثالثا : تلمسان في العهد المرابطي.

تمكن المرابطون من بسط نفوذهم في المغرب العربي و الأندلس فيما بين 1056-1147م، و قد استولوا على تلمسان في سنة **1070** [1]

و تعود تسمية هؤلاء إلى كونهم كانوا قوما مصلحين، يمارسون تعاليم الدين الصحيح في رباط و هكذا أخذوا هذه التسمية و أصبحوا المرابطون و يسمون أيضا الملثمون(*) دخل هؤلاء إلى المغرب كمصلحين و فعلا قاموا بالإصلاح و قاوموا الخوارج و الشيعة، و لكن هذه الحركة الدينية الإصلاحية أصبحت مع توالي الأيام حركة سياسة [2]

و يشير المؤرخون بوضوح إلى أن **يوسف بن تاشفين** كان المؤسس الحقيقي للدولة المرابطية، و كان قائدا محنكا قاد الجيوش المرابطية في المغرب و حينما استولى على أقادير عام 1070م إختط بجانبها مدينة (تاقرارت) بمكان معسكره و هو إسم محلة بلسان البربر وهي التي صارت اليوم مع "أقادير" مدينة واحدة ألا و هي تلمسان سنة 472 هـ (1070م)[3]

و قد ساهم هذا التوحد بين تاقرارت و أقادير في إعطاء تلمسان صبغة الأهمية إذ "اعتبرت تلمسان عاصمة للمغرب الأوسط و حاضرة حامية لقبائل زناتة"[4]

و لم يكن إختيار موقع تاقرارت من طرف المرابطين صدفة فقد شيدت بالجانب الغربي من "أقادير" و ذلك من أجل موقعها الجغرافي الممتاز فقد كانت على ارتفاع 800 متر و كانت تسيطر على سهل الحناية الشاسع، و قد كان هذان السهلان على مر العصور ممرا للقوافل التجارية الآتية

1- حجاج أول محمد : نفس المرجع السابق، ص 7.

2- محمد بن عمرو الطمار : تلمسان ...، ص 41.

3- محمد بن عمرو الطمار : المرجع نفسه، ص 41-42.

4- حجاج أول محمد : المرجع نفسه، ص 8.

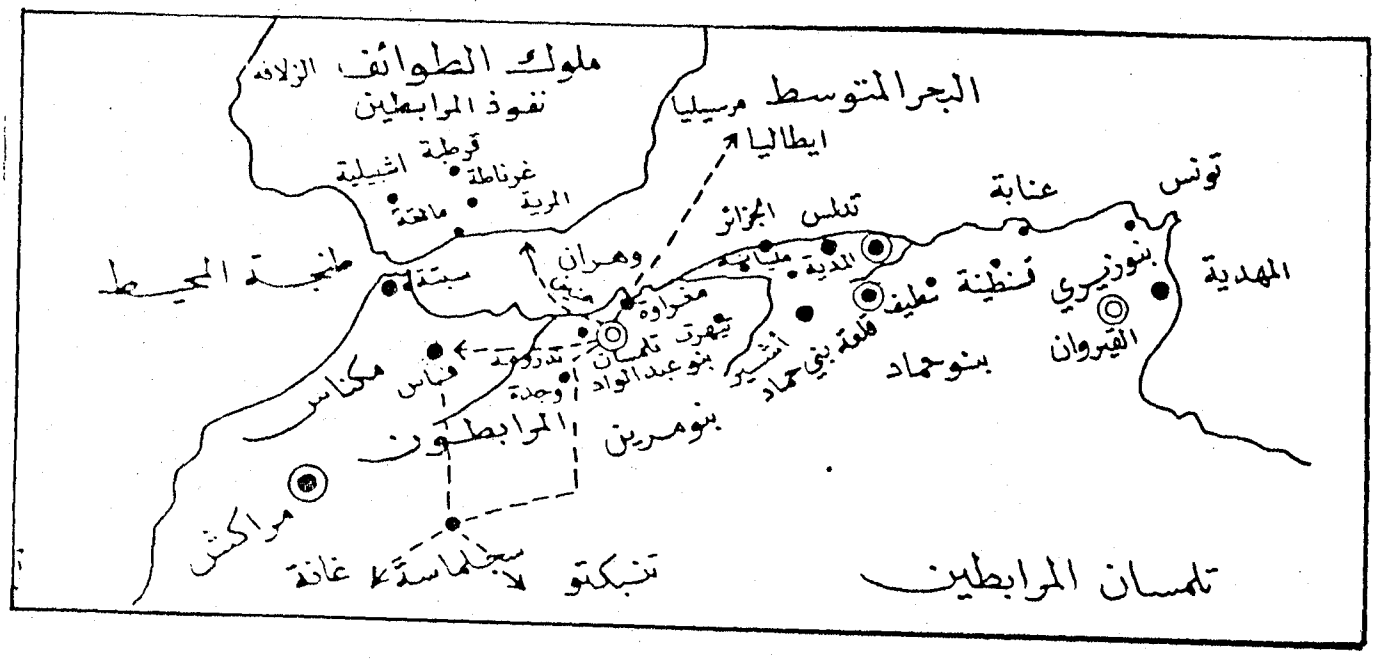

تلمسان المرابطية

(ع/ محمد بن عمرو الطمار: تلمسان عبر العصور، ص 144)

من الشرق و الغرب و هكذا دواليك. أما السبب الثاني في اختيار تاقرارت هو ربما المناخ المناسب و المياه المتدفقة [1]

و من مخلفات المرابطين بأقادير (القصر البالي) الذي سكنوه في الأول، ثم الموحدون من بعدهم و لم يأخذ هذا القصر هذه التسمية إلا في العهد الزياني و ذلك بالنسبة للقصر الجديد التي ابتناه "يغمراسن بن زيان" و أطلق عليه إسم المشور كما أن المرابطين قد أحاطوا تلمسان بسور عندما استقروا بها أما بتاقرارت فلقد شيد هؤلاء المسجد الجامع الذي يقع في قلب المدينة الجديدة.[2]

و قد بني هذا المسجد في سنة 530 هـ (1135 م) في خلافة علي بن يوسف في شرق القصر القديم.[3]

و لعل المعمار لم يعرف في عهد هؤلاء تطورا كبيرة ، لأنهم كانوا مصلحين، أسسوا حركتهم على أسس دينية بحتة و قاموا بالدفاع على المذهب السني الذي ذادوا عنه بكل ما يملكون من وسائل و قوة.

لقد سار علي بن يوسف بن تاشفين(*) على نهج والده "يوسف بن تاشفين" بعد وفاته فقد كان يقرب العلماء و الفقهاء و يستشيرهم في كل كبيرة و صغيرة و هكذا انتهز هؤلاء الفرصة وجعلوا من علم الكلام بدعة، و اقنعوا الأمير (علي) بإحراق كتب (الغزالي) التي كانت تشكل

1- AMAR DHINA : Opcit, p 83-84

2- محمد بن عمرو الطمار : تلمسان ...، ص 44

3- محمد بن رمضان شاوش : نفس المرجع السابق، ص 65.

*- علي بن يوسف بن تاشفين : هو ابن يوسف تاشفين مؤسس الدولة المرابطية، و قد قام بأمر الدولة بعد أبيه و لعل أهم ما ميز عهد علي بن يوسف هو النفوذ الذي بلغه الفقهاء، كما أنه أقام نظاما يقضي بتعيين فقهاء مستشارون للقاضي و عددهم أربعة. و في سنة 530 هـ 1135 م في خلافته تم تشييد الجامع الكبير بتلمسان في شرق القصر القديم كما يدل على ذلك الخط المنحوت على إفريز القبة، كما تم بناء جامع ندرومة الكبير، و جامع الجزائر الكبير. توفي سنة 537 هـ (ينظر إلى كتاب محمد بن عمر الطمار تلمسان عبر العصور، ص 46 49 كما ينظر إلى كتاب محمد بن رمضان شاوش : نفس المرجع السابق، ص 65).

خطرا عليهم و على سلطتهم، و قد بلغ مذهب (مالك) في هذه الحقبة من الزمن ما لم يبلغه حتى الكتاب و السنة الذان كاد الناس يغفلون عنهما.

و قد كانت بعض المعارضة لهذه الأفكار من طرف بعض الشخصيات التي تأثرت بآراء الغزالي، فمالت إلى النظر و الإجتهاد و من بين هؤلاء " أبو الفضل النحوي" أما فيما يخص ما قام به المرابطون بتلمسان "فقد كانوا يضربون الدينار بالذهب و الدراهم و القراريط و الدوانق بالفضة" (1)

و قد عرفت تلمسان خلال فترة المرابطين الهدوء و الرخاء، كما عرفت تفاعلا تجاريا مستمرا بين "تلمسان" و المغرب الأقصى و الأندلس و بلاد السودان الغربي و لكن هذا الهدوء و الرخاء لم يستمر طويلا، و لعل من أهم أسباب سقوط هذه الدولة و ذهاب سلطانها وقوع "علي بن تاشفين » فريسة لهيمنة الفقهاء الذين جعلوا منه آلة مسخرة لخدمة مصالحهم الشخصية، و كذا وصول معالم الحضارة من الأندلس التي كانت تعرف الحضارة فانساق الناس وراء الشهوات و انغمسوا فيها، و كأن المجتمع قد انتقل من النقيض إلى النقيض، فمن مبدأ الجهاد في سبيل الله و إعلاء السنة و معالم الدين إلى الإنغماس في مظاهر الحضارة و الإنحلال الإجتماعي و سوف نرى أن هذان العاملان قد مهدا إلى ظهور دولة أخرى، سوف تقضي على الدولة المرابطية.

و لا بد من الإشارة أيضا في النهاية إلى أن تلمسان قد عرفت خلال حكم المرابطين محنة كبرى عند غزو المنصور الحمادي(2) .

1- محمد بن عمرو الطمار : تلمسان ...، ص 48.

2- Amar Dhina : Opsit , p 85.

رابعا : تلمسان في العهد الموحدي

نظرا للضعف الذي كانت تعانيه الدولة المرابطية أواخر أيام علي بن تاشفين استولى الموحدون على الكثير من أراضيها و ضمن هذه الظروف الصعبة ظهر بمراكش رجل يسمى "محمد بن تومرت" (*) و قد كان متشبعا بتعاليم الأشعرية و أيضا بنظريات الغزالي الكلامية التي وصلت إلى المغرب و التي كانت فاشية في المشرق [1]

و بعد التقائه بعبد المؤمن بن علي(*)، عزم الإثنان على محاربة الفساد الذي كان متفشيا فخرجا إلى المغرب و قد سمع طلبة تلمسان (بابن تومرت) فأرسلوا إليه فغادر (ملالة) صحبة "عبد المؤمن" حتى وصلا إلى تلمسان فأقاما "بأقادير" و انكب ابن تومرت على التدريس و أقام رابطة العباد في سنة 515 هـ فاجتمع إليه الطلبة و القبائل[2]

---

* - محمد بن تومرت : يعد مؤسس دولة الموحدين بالمغرب الأقصى و بوصية من آل أمرهم إلى عبد المؤمن بن علي، محمد بن تمرت من "هرغة" بالأطلس خرج طالبا للعلم بالمأندلس و المشرق و قد تأثر بالنظريات المشرقية في علوم الكلام و الأصول و السنة و كذا بتعاليم الأشعرية و بنظريات الغزالي بعد عودته و إستقراره ببجاية حاول تغيير الواقع الفاسد و لكنه طرد منها، فاستقر بقرية مجاورة لها تدعى "ملالة" و بها تعرف على عبد المؤمن بن علي الذي طلب منه القدوم إلى تلمسان و عند قدومه و استقطابه للطلاب خاف الفقهاء من وقع علمه في العقول فوشوا به و أبعد فخرج إلى فاس و بعدها مراكش ثم بعد إبعاده منها عاد إلى قبيلته "هرغة" سنة 514 هـ بعدها في 515 هـ أقام رابطة العبادة و لكنه عندما اسحود على قلوب الناس بالعلم الصحيح، إدعى أنه المهدي، المعصوم و رفع نسبه إلى النبي صلى الله عليه و سلم و بعد ذلك كله إلتفت بحارب المرابطين، فحركته إذن قامت على أساس مزدوج ديني و سياسي مات سنة 524 هـ (ينظر لكتاب محمد بن عمر و الطمار : تلمسان ...، ص 51.-52-53-54).

1- محمد بن عمرو الطمار : تلمسان ...، ص 51- 52

* - هو عبد المؤمن بن علي بن مخلوف بن يعلى بن مروان بن نصر بن علي بن عامر، يرجع إلى قيس عيلان بن مظر، أصله من قبيلة "كومة" الواقعة بساحل ندرومة من ولاية تلمسان تلقى دروسه الأولى بها و إن كان ابن تومرت هو المؤسس الروحي لدولة الموحدين، فعبد بن علي هو المؤسس الفعلي لهذه الدولة، إذ أنه ملك تلمسان سنة 539 هـ - 1145 م، فقتل أهل أقادير و أشياخ تاجرارت و كأن عبد المؤمن قد انتقم من تلمسان و سكانها لنفسه و لصديقه ابن تمرت كيف لا و قد طرد منها. إلا أنه عدل عن تدميرها نظرا لأهمية موقعها لقد استأصل عبد المؤمن حكم المرابطين من جدوره في المغرب و كذا في الأندلس و توفي في جمادى الأخرى سنة 558 هـ (ينظر كتاب يحي ابن خلدون بغية الرواد...، ص 170- 171) و كتاب محمد عمرو الطمار : تلمسان ...، ص 57-59-60-61-63 و كذا كتاب محمد بن رمضان شاوش : نفس المرجع السابق، ص 68- 69.

2- عبد العزيز سالم : المغرب الكبير : العصر الإسلامي - دار القومية - القاهرة، ص 77.

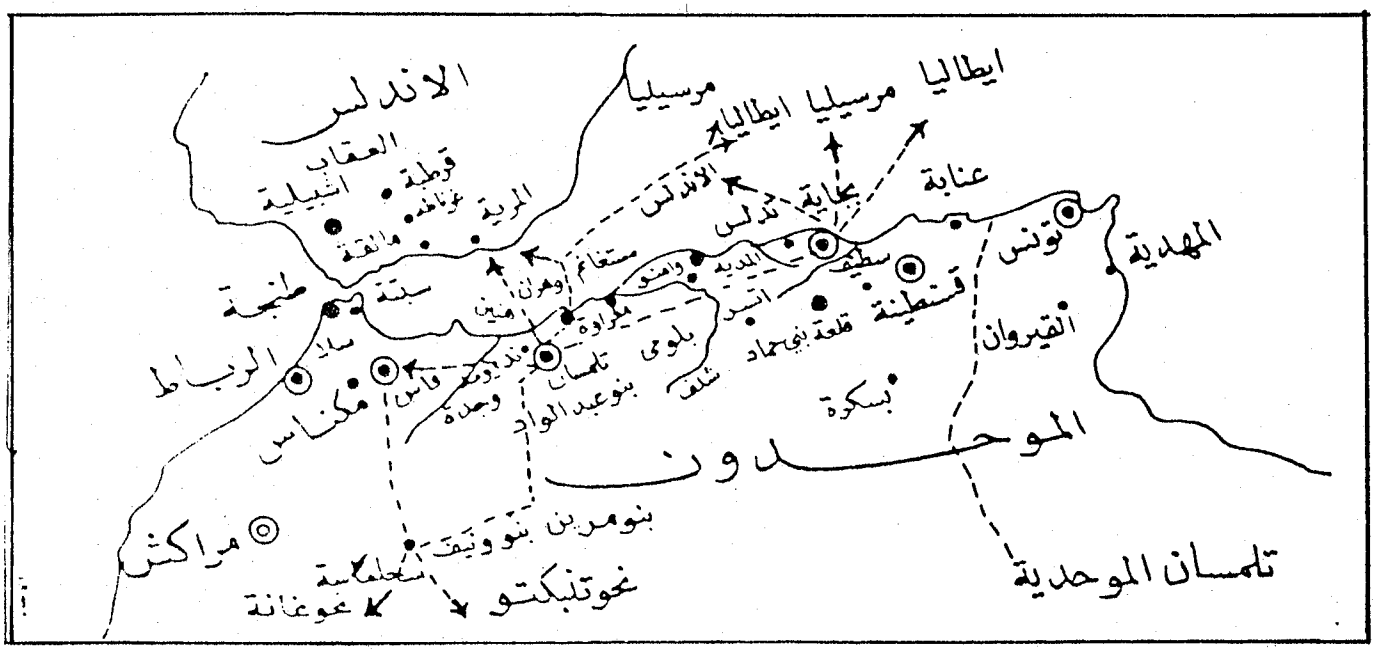

تلمسان الموحدية

(٤/ محمد بن عمرو الطمار: تلمسان عبر العصور، ص ٥٤٥)

و قد كان لوعظه و إرشاده أثرا كبيرا في قلوب أهل تلمسان لأنه كان المرشد الناهي عن المنكر، عاب على الفقهاء حبهم الأعمى للدينار، و لكنه شكل خطرا عليهم، فأبعد بطلب من هؤلاء فطرد إلى مراكش [1]

و مع أن هذا الواعظ كان على درجة كبيرة من العلم إلا أنه كان على درجة كبيرة من المكر و الدهاء فقد أوهم الناس أنه المهدي، و أخذ يحارب المرابطين آخذا بثأره منهم لطرده و نبذه، و هكذا نلاحظ أن حركة (ابن تومرت) كانت دينية ممزوجة برغبة سياسية في اقتلاع المرابطين "توفي ابن تومرت عام 524 هـ و خلفه عبد المؤمن ابن علي و ما هي إلا عشية أو ضحاها حتى استفحل أمر الموحدين على حساب المرابطين [2]

ضعفت الدولة المرابطية و لفظت أنفاسها الأخيرة بعد "المعركة الحاسمة التي قادها عبد المؤمن الموحدي ضد آخر المرابطين تاشفين ابن علي [3]

و بهذا طوى التاريخ صفحة المرابطين و فتح صفحة الموحدين الذين دخلوا تلمسان بقيادة "عبد المؤمن" مظفرين، و لكنهم لم يكونوا مسالمين فقد بثوا الرعب في قلوب سكان تلمسان و هكذا قتل كل من كان يميل إلى الملثمين المرابطين و أهلك أيضا العلماء المالكين الذين كانوا يطعنون في " ابن تومرت" و تسببوا في إخراجه من تلمسان [4]

و بهذا يكون الموحدون قد ثأروا لزعيمهم الروحي و المعنوي و استوطنوا تلمسان إذ ملك (عبد المؤمن ابن علي) تلمسان سنة 639 هـ /1145 م فقتل أهل أجادير و أشياخ تاجرارت ثم

1- محمد بن عمرو الطمار : : تلمسان ...، ص 53

2- محمد بن عمرو الطمار : المرجع نفسه ، ص 54-55

3- William et Georges Marçais : Les Monuments arabes de Tlemcen, p 15-16

4- محمد بن عمرو الطمار : المرجع نفسه ص 58-59.

قاضيهما الفقيه أبا عمروا عثمان بن صاحب الصلات (عملا فيه) بوصية إمامه المهدي محمد بن عبد الله [1]

و لكن هذا الدخول الدموي للموحدين لم يمنعهم من السعي على إزدهار تلمسان و عمرانها فقد شملت حدود ملكهم الأندلس و المغرب العربي كله من المحيط إلى حدود مصر و لكن الموحدين لم يخلفوا لنا مباني أثرية تذكر أو تنسب إليهم على عكس ما أشار إليه "يحي ابن خلدون" من أنهم بنوا المنازل و القصور بتلمسان و لعل أهم ما تبقى لنا من آثار الموحدين بقايا الأسوار التي بفضلها أمكن للمدينة أن تنجو من عبث "ابن غانية يحي"(*) و أحلافه المتمردين من زناتة "[2]

مع هذا لا نرى أثرا يرجع لتلك الفترة و يبرر ما قاله ابن خلدون كما لا تفوتنا الإشارة إلى أنه من الإنجازات المعمارية الموحدية القبة الأولى البسيطة لضريح سيدي أبي مدين بالعباد بأمر من السلطان الموحدي "محمد الناصر".

على غرار المرابطين، أعطى الموحدون الأولوية القصوى للإتجاه الديني فقد علت كلمة الصوفية عندهم بعد ما كان النفوذ الأكبر للسنيين عند المرابطين فبعد أن كان المتكلمون يقولون بوحدة الذات الإلاهية قال الصوفية بوجوده في كل شيء[3]

1- يحي ابن خلدون : نفس المصدر السابق، ص 170-171

* - ابن غانية يحي : إبن أحد ولاة المرابطين بالأندلس إسحاق بن غانية الذي فر حاقدا على الموحدين إلى جزر "الباليار". و قد كان والد يحي مبايعا في هذه الجزر . و يحي مايورقي هو الذي قاد حملة والده و أخيه على الموحدين بعد وفاة أخيه علي سنة 584 هـ - 1188م فلم يلبث أن بسط نفوذه على سائر إفريقيا و الزاب فلم يبق للموحدين إلا بجاية ثم إنهزم أمام الخليفة الناصر . و لعل يحي بن غانية المايرقي لم يتردد رفقة جموعه من المرابطين و العرب في تخريب أرشقول ثم اقترب من جنوبي تلمسان و استولوا على المحلة الموحدية، أما تيهرت فقد حطمها و لعل تلمسان لم تشفع فيها سوى أبوابها و أصوارها. و لم تعرف مسيرة ابن غانية يحي المشهور بالمايورقي الدموية النهاية إلا عندما دس عليه أتباعه فضعفت قوته و توفي على مقربة من مليانة و كان ذلك حوالي سنة 631 هـ و بوفاته طويت صفحة المرابطين من الوجود. (أنظر إلى كتاب محمد عمرو الطمار : تلمسان ...، ص 62-63-64-65-66-67.

2- ابن الأثير علي ابن أحمد بن أبي الكرم : الكامل في التاريخ - دار صادر - دار بيروت لبنان، الجزء 10، ص 580.

3- محمد بن عمرو الطمار : تاريخ الأدب الجزائري : الشركة الوطنية للنشر و التوزيع الجزائر 1980، ص 70.

و في هذا العهد ظهرت جماعة من الصوفية الكبار كأبي مدين شعيب و ابن عربي و غيرهم، و سوف يرد الحديث مطولا عن شخصية أبي مدين في فصل آخر من فصول هذا الإنجاز العلمي.

عاشت الدولة الموحدية مترامية الأطراف و لكن ضعف روح العصبية في صفوفها و تهافت الملوك على الأطماع و انغماسهم في أنواع الترف جعلها تضعف و تتدهور و قد أدى هذا الضعف إلى خروج قبائل زناتة عليها فاستعانت ببني عبد الواد الذين وقفوا بجانبها [1] و لكنها لم تصمد و ضعف شأنها فاستولى عليها يغمراسن ابن زيان سنة (633هـ - 1235) و بذلك نلاحظ أن "الدولة لها أعمار طبيعية كما الأشخاص"[2] و بهذا ينتهي الأجل بالدولة الموحدية معطيا الفرصة لميلاد الدولة الزيانية.

1- محمد بن عمرو الطمار : تلمسان عبر ...، ص 80.

2- ابن خلدون عبد الرحمان : المقدمة : طبعة عبد الرحمان محمد، ص 147.

خامسا : تلمسان في العهد الزياني

انتهى عهد الدولة الموحدية، لتفسح المجال لدولة سوف تعرف الكثير من المجد و التألق، ألا و هي الدولة الزيانية، التي ذاع صيتها و عظم شأنها و شأن تلمسان معها، و لعل الحديث عن الدولة الزيانية يدعونا للحديث عن أصل ملوكها الذين عرفوا ببني عبد الواد، كما سوف نعرف بأصلهم ثم ننتقل للحديث عن أشهر ملوكهم، و أحسن ما خلفوه لنا من آثار.

جاء حول البربر : "و لما كان انتماء بني عبد الواد إلى زناتة البربر وجب أن نعرف أولا بالبربر و بعض زناتة منهم... البربر أمة أعجمية عمرت الشام من لدن الطوفان، تعرف ملوكهم بالجواليت كما تعرف ملوك النصارى بالقياصرة و ملوك الفرس بالأكاسرة[1]

فالمهم إذن هنا أن بني عبد الواد ينحدرون من أصل بربري من قبيلة زناتة، و من غير المنصف أن ينسب البعض أصل يغمراسن بن زيان مؤسس الدولة الزيانية إلى قريش قبيلة الرسول صلى الله عليه و سلم و لعل ذلك يرجع حسب (*BARGES*) إلى أن هؤلاء العظماء قد وجدوا دائما مساندين لهم يريدون دائما رفع أنسابهم إلى أصول بعيدة و قد اراد هؤلاء العظماء من البربر الذين يعيشون تحت السلطة العربية أن يمتوا بصلة إلى العائلة النبوية إلا أن هذا النسب خاطئ لأننا نجد ضمن سلالة بني عبد الواد، عددا هائلامن الأسماء التي تنتمي إلى اللغة البربرية كزيدان، يندوسن، يزودزن... و من جهة أخرى إن لغة الأم ليغمراسن كانت لهجة من اللغة البربرية الزناتية و يظهر ذلك من خلال أحاديثه المختلفة التي ألقاها في مختلف المناسبات بتلمسان.[2]

1- أبو زكرياء يحي ابن خلدون : نفس المصدر السابق، ص 178.

2- M. L'abbé J L BARGES : Complément.....p3-4

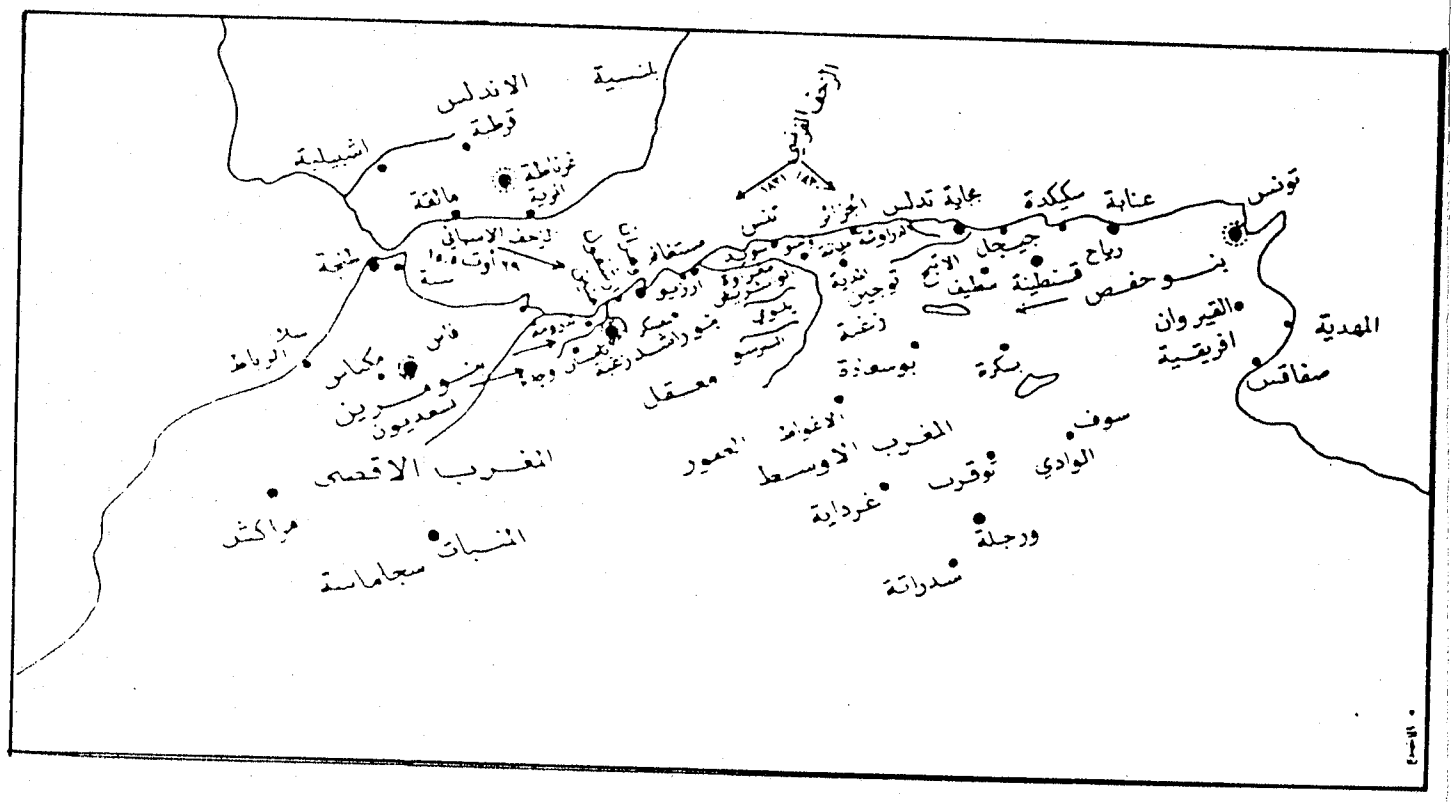

تلمسان الزيانية

(ع/ محمد بن عمرو الطمار: تلمسان عبر العصور، ص 266)

و المهم في مقولة (بارجبس ***BARGES***) أنه يؤكد على الأصل البربري لهذه القبيلة، و لعل المهم من هذا كله أن يغمراسن بن زيان هو المؤسس الفعلي لهذه الدولة العريقة، التي سوف تكون تلمسان عاصمة لها أين ستعرف أوج إزدهارها و أهول مآسيها[1]

إعتلى يغمراسن على عرش تلمسان في السابع من جمادى الثانية من سنة 637 هـ 1240 م و لكن بعض المؤرخين يرجعون ذلك إلى أربعة سنوات من قبل أي 633 هـ - 1236 م مثل "يحي ابن خلدون" و قد كان فارغ الثنية و عاطف الحنية و المستأثر دون الملوك بالخلال السنية[2]

و مع أننا نلمس بعض المبالغة في وصف ابن خلدون ليغمراسن، إلا أننا لا ننفي عن هذه الشخصية قدراتها العظيمة إذ أنها استطاعت أن تحكم تلمسان حوالي نصف القرن و لعل هذا أصدق دليل على حنكته السياسية و ضلوعه بأمور الحكم و الملك. فقد استطاع أن يحمي تلمسان من الأطماع الشرسة التي كان يبيتها لها المرينيون بنوا عمومته و الذين حاولوا في عدة مرات السيطرة على تلمسان.

و من المهم أن نشير إلى أن تلمسان قد عرفت عصرا من أزهى العصور و أكثرها إستقرارا فقد عظم شأنها و اتسعت أرجاؤها، و لعل هذا الإستقرار هو الذي مكن من ظهور العمران و تطوره كانت الأسرة المالكة و دواوين الدولة و القوات المسلحة تقيم بتاقرارت و كان "يغمراسن" يسكن بالقصر الذي شيده المرابطون بمحاذاة المسجد الجامع و قد سكنه ولاتهم و ولاة الموحدين من بعدهم، لكن "يغمراسن" سرعان ما ابتنى قصرا جديدا بالمكان الذي يسمى اليوم بالمشور .[3]

1- AMAR DHINA : Opsit, p 84
2- BARGES : Complément de l'histoire ..., p 5

3- محمد بن عمرو الطمار : تلمسان ...، ص 207.

و بما أن يغمراسن كان حريصا على حماية دولته من الأخطار و الأعداء الذين كانوا يحدقون بها فقد حرص على تحصينها إذ أمر بإبتناء الأسوار الشاهقة بباب كشوطة حينما اشتدت شوكة بنو مرين و تضاعفت قواتهم كما أنه ابتنى الصومعتين بالجامعين الأعظمين من تاجرارت و أجادير[1]

عرفت تلمسان خلال عهده تطورا في المجال الثقافي نظرا لعنايته بتقريب رجال العلم و الدين و من الذين عايشوا هذه الفترة التنسي و كثيرون آخرون.

أدركه الأجل المحتوم قافلا برهيو، من وادي الشلف، يوم الإثنين التاسع و العشرين ذي القعدة من سنة 681 هـ -1283 م فكان عمره رحمه الله ستا و سبعين سنة [2]

و حديثنا حول الدولة الزيانية سوف لن يتناول الحديث عن كل ملك على حدا إذ أننا سوف نكتفي بالإشارة إليهم، مع التركيز على الأكثر أهمية في تاريخ تلمسان.

بويع أبو سعيد عثمان "أوائل ذي الحجة من سنة 681هـ - 1283 م"[3] و كان جانحا إلى السلم إلا أن بني مرين كانوا حريصين أشد الحرص على إحتلال تلمسان مطعمهم الأساسي فقد أحاط عسكر أبو يوسف المريني بالمدينة في شعبان سنة 698 هـ و اختط مدينة سماها المنصورة و قام على ذلك سنين[4] و قد دفع اليأس و الخوف من المغامرة بأرواح سكان تلمسان، عثمان إلى تناول السم حتى الموت مستريحا من معرة العدو يوم السبت غرة ذي القعدة سنة 703 هـ - 1304 م فانعقدت البيعة "لأبي زيان" في هدوء و إطمئنان [5] و قد تولى السلطان أبو زيان زمام الخلافة في الثاني من ذي القعدة من عام 703 هـ - 1308م و قد عرفت تلمسان في عهده حالة يرثى لها[6].

1- أبوزكرياء يحي ابن خلدون : نفس المصدر السابق، ص 207

2- أبو زكرياء يحي ابن خلدون : المصدر نفسه، ص 207

3- BARGES : Complement de l'histoire ..., p 21.

4- محمد بن عمرو الطمار : تلمسان عبر ....، ص 93-100-101

5- محمد بن عمرو الطمار : المرجع نفسه ، ص 93-100-101.

6- BARGES : Ibid. p 33-40

و هذا الضعف و الفقر كان راجعا للحصار الرهيب الذي تعرضت له تلمسان في هذه الفترة من طرف أبي يعقوب يوسف المريني، الذي دام حصاره لتلمسان ثماني سنوات و ثلاثة أشهر، عانى من خلاله سكان تلمسان ويلات الجوع " و مات منهم عدد كبير يقدره المؤرخون بنحو العشرين و مائة ألف شخص و بينما كانت حال التلمسانيين يرثى لها، كان المنصورة تزيد كل يوم إتساعا و إزدهارا، و لم تنتهي محنة تلمسان إلا بوفاة "أبي يعقوب يوسف المريني"(*) يوم الأربعاء 7 ذي القعدة سنة 706 هـ (10 ماي سنة 1307 م)[1]

بعد وفاة أبي زيان في الثاني و العشرين من شهر شوال من عام 707 هـ/1308م و هو يبلغ من العمر 48 سنة، أي أن حكمه لم يدم سوى أربعة سنوات تولى أبو حمو موسى الأول الحكم بعده يوم الأحد الحادي و العشرين من شوال من عام 707 هـ – 1308 م[2]

و بما أن أبا حمو موسى الأول قد عاصر حصار المرينيين، فقد سارع إلى تحصين دولته و تأمينها من حصار جديد، فقد كان سياسيا محنكا، صارما يقظا [3] كما أنه كان يسعى في أن تكون تلمسان كعبة يقصدها العلماء مثل العواصم العربية، و بلاطه زاخرا بالعلماء و الأدباء على غرار بلاد فاس و تونس و من جملة العلماء الذي تباهى بهم البلاط الزياني "أبناء الإمام" أبي زيد عبد الرحمان و أبي موسى عيسى [4] كما أن أبا حمو موسى الأول لشدة تقديره للعلماء فقد اختط مدرسة، زاوية، و مسجدا حوالي 1310م – 710 هـ [5] و قد عرفت تلمسان في عهده فترة من

---

*- أبو يعقوب يوسف المريني : هو إبن يعقوب بن عبد الحق، هاجم تلمسان للوهلة الأولى سنة 693 هـ - 1290 - 1291 م و امتنعت ثم هاجمها للمرة الثانية سنة 698 هـ، فاختط مدينة سماها المنصورة و خلال عهده عرفت تلمسان الحصار الرهيب الذي دام ثمان سنوات و لم ينتهي حصاره إلا بوفاته سنة 706 هـ – 1307 م و قد هاجم أبو يعقوب يوسف تلمسان في عهد عثمان بن زيان (أنظر إلى كتاب محمد بن عمرو الطمار : تلمسان عبر ...، ص 98-99-100.)

1- محمد بن عمرو الطمار : تلمسان عبر.... ، ص 102.

2- BARGES : Complément ....., p 47 ... 50

3- ابن خلدون عبد الرحمان : كتاب العبر : دار الكتاب اللبناني بيروت 1966، الجزء 7، ص 7.

4- محمد بن عمرو الطمار :المرجع نفسه ، ص 121.

5- WILLIAM et GEORGES MARCAIS: les monuments arabes ..., p 20-21

الإستقرار شاع فيها الفقه و الأدب، بعد سنين من المعاناة و لكن قتل هذا السلطان من طرف إبنه كان فاجعة مؤلمة، أعطى إشارة الإنطلاق للتكالب على السلطة، فقد قتل أبو تاشفين والده و كان عمره ثلاثا و خمسين سنة و حكمه دام عشر سنين و نصف [1].

و هكذا تمت لأبي تاشفين البيعة بعد مقتل أبيه و ذلك في الثالث و العشرين من جمادى الأولى من عام **718هـ – 1318م** [2] و قد كان جانحا إلى اللذات مغتبطا بلهو الدنيا و لعبها، ولع ببناء الدور و تحبير القصور، و تشييد المصانع، و إغتراس المنتزهات فخلد آثارا لم تكن قبله لملك كدار الملك، و دار السرور و سواها [3] و رغم ولعه باللذات و اللهو، إلا أننا نلاحظ أن عهده كان عهدا جديدا عرف الكثير من الآثار المعمارية. فقد جلب الكثير من الأسرى النصارى للبناء، منهم المهندسون المعماريون و نلاحظ ذلك في قصر أبي فهري مثلا. [4]

و يجزم المؤرخون على أن أبا تاشفين كان يحرص على تقريب العلماء و الفقهاء حتى تضاهي عاصمته الحواضر المغاربية "تونس" و "فاس" و "غرناطة" و ذلك ليس فقط في الميدان الثقافي، بل حتى في الميدان العمراني و لهذا فقد شيد مدرسة يطلق عليها إسم المدرسة التاشفينية، فأحضر الصناع و أقام معهدا لم ير مثله من قبل إزاء المسجد الجامع و عين بها مدرسين مثل "أبي موسى المشدالي" و در عليهم و على من إنتال عليهم من الطلبة و ذلك لينتشر العلم و الأدب[5]

و نلاحظ أن هذا السلطان قد فاق والده في العمران و الإهتمام به مع أن هذه المدرسة قد اندثرت حوالي سنة 1876[6] .

1- أبو زكرياء يحي ابن خلدون : نفس المصدر السابق، ص 214-215 .

2- BARGES : Complément ..., p69.

3- أبو زكرياء يحي ابن خلدون : المصدر نفسه ، ص 215-216.

4- BARGES : Ibid, p 70

5- محمد عمروا الطمار : تلمسان....، ص 128-129.

6- William et Georges Marçais: les monuments, p 20-21.

و يعد عهد أبو تاشافين عهدا مهما في حياة الدولة الزيانية نظرا لإهتمام هذا السلطان بالحركة الإقتصادية و الثقافية، لعلمه اليقين ما لها من أثر و انعكاس إيجابي على الحياة السياسية و الإجتماعية، كما أنه زين المدينة بشتى المؤسسات فتوسعت و أصبح لها ثلاثة عشر بابا.[1]

و قد شهد عهد أبو تاشفين الحصار المريني في حوالي السنة الخامسة عشرة من حكم أبي تاشفين في السابع و العشرين من رمضان **737** الفاتح من ماي **1337** بعد حصار دام عامين سقطت بعده في أيدي المرينيين. [2]

و سوف يعود الحكم إلى بني عبد الواد، الذين سوف يبذلون قصارى جهودهم من أجل إسترجاع ملك أجدادهم، و الملاحظ هنا أن الفترة الزيانية قد عرفت خلال ربع قرن سحب بساط الحكم منها من طرف المرينين، ثم عاودت مجدها و حكم تلمسان إليها.

دخل الزيانيون إلى تلمسان و على رأسهم السلطان عثمان أبو سعيد عام 749 هـ آخر جمادى الآخرة (1348 م) و لعل من المهم الإشارة إلى أن حكم عثمان كان قبل حكم أبي عنان بن أبي الحسن المريني بتلمسان [3]

و لن يعود المجد الحقيقي إلى تلمسان إلا في عهد السلطان أبي حمو موسى الثاني، الذي أعاد المدينة لحقب الإزدهار الذي عرفته في عهود يغمراسن، أبو تاشفين الأول، و أبو حمو موسى الأول.[4]

لقد أعاد ابو حمو موسى الثاني بسط النفوذ لسلالة يغمراسن حوالي سنة (1359 م 760 هـ) فهو الذي أخذ حكم تلمسان من يد المرينيين بغير رجعة [5] .

1- محمد عمروا الطمار : تلمسان عبر .....، ص 131.

2- William et Georges Marçais : les monuments ...., P 22.

3- BARGES : Complèment de l'histoire ..., p 142-143.

4- حجاج أول محمد : نفس المرجع السابق، ص 9

5- William et Georges Marçais : Ibid. p 23

دخل أبو حمو موسى الثاني إلى تلمسان بعد معركة حامية الوطيس، تمكن خلالها الزيانيون من كسر شوكة بن مرين، فدخلها دخول المنتصر المسرور باستعادة ملك اجداده بعد سنين من التغريب و القهر.

و تمت له البيعة يوم الأربعاء الثامن من ربيع الأول من عام (760 هـ - 1359 م)، كان يبلغ من العمر حينها 37 عاما، و ما إن دخل تلمسان حتى شرع في تطهيرها من بني مرين [1]

لقد كان هذا السلطان سياسيا محنكا استطاع رغم مختلف التهديدات و الأخطار أن يعيد لتلمسان مجدها الزياني الأول بواسطة الهدنة و المسايرة، رغم خطر بن مرين الذي بقى يتهدده و لكنه هزمهم مستعينا بالقبائل التي بايعته.

و بما أن هذا السلطان قد ترعرع بالأندلس، فقد سعى جاهدا لجمع العلماء و الأدباء و قد كان نفسه مؤلفا لعدة أشعار و مقالات سياسية حول كيفية الحكم، و بفضل حنكته السياسية استطاع أن يبقى ثلاثين عام على عرشه [2]

و تبين هذه المدة مدى قوته إذ أننا نلاحظ في فترات حكم أخرى أنها كانت قصيرة و في بعض الأحيان لا تكاد تذكر و هذا لضعف الحكام و عدم ثباتهم أمام المحن، و لا بد من الإشارة إلى أن فترة أبي حمو موسى الثاني لم تكن خالية من المحن و الأخطار فقد أورد ***BARGES*** قائلا : "يتلخص حكم أبو حمو موسى الثاني في كلمتين : كان طويلا و مكللا بالنجاحات و لكنه بالكثير من المآسي أيضا."[3]

و سوف لن نطيل الحديث حول إعتلائه العرش، لننتقل إلى أهم الإنجازات التي قام بها، و إلى ما ميز فترته بتلمسان من نجاحات و إستقرار.

1- BARGES : Complement de l'histoire ..., p 145-146.
2- William et Georges Marçais : les monuments ...., p 24-25

3- BARGES : Ibid.... p 149

فبعد استتباب الهدوء و الإستقرار بتلمسان تفرغ "أبو حمو" للقيام بالأعمال العمرانية و الثقافية، و أول ما شرع في القيام به ترميم جزء من سور المشور الذي هدمه أبو العباس المريني عام 789 هـ [1] كما أسس المدرسة و المسجد و ضريح سيد إبراهيم، أما المدرسة فقد سميت بالمدرسة **اليعقوبية** إذ أنه بناها تمجيدا لروح والده (أبي يعقوب) فقد وضعت على ضريح هذا الأخير كما دفن بها عميه [2] و مع أن هذه المدرسة قد اختفت، فقد بقي لنا من هذه المعالم المسجد، و الضريح الذي كان يحوي آل زيان : والد أبو حمو موسى و عماه و كان يسمى في الأول روضة بن زيان، و عندما دفن فيه الولي الصالح سيدي إبراهيم المصمودي انتسب له الضريح و المسجد أما المدرسة فقد جعلت لتدريس العلم و الفقه بفضل نخبة من العلماء و الفقهاء المشهورين.

و بفضل هذا الملك الشجاع تقدمت تلمسان بخطى واثقة نحو الحضارة و الرقي، فقد اتسعت أرجاؤها و كثرت ثرواتها و أصبحت تطلّ على ماضيها العريق و حاضرها المشرف و مستقبلها المشرق.

و أصبح بذلك هذا الملك درة في تاج الدولة الزيانية فلقد اهتم بجلب العلماء و الأدباء من أجل الرقي بمستوى المدينة الثقافي و العلمي إذ يورد يحي ابن خلدون : "و لم يأت شهر رجب حتى وصل المثقفون بالمغرب إلى باب "أبي حمو" و كانو أربعمائة، فأعتز الملك و علت مطامعه و تهللت اسارير الدولة و علت في أوجه الكمال كالمشعل[3]

1- William et Georges Marçais : Les monuments.... , p 25 .

2- محمد عمرو الطمار : تلمسان عبر ....،ص 178.

3- BARGES : Complément .... p 234

و من أشهر العلماء و الصلحاء الذين أثروا المدينة و لمعت أسماؤهم في سماء تلمسان "الشريف التلمساني" و "سعيد العقباني" و "ابن مرزوق الخطيب" و "ابن مرزوق الحفيد" و غيرهم كثيرون [1]

و لكن شخصية أبي حمو موسى الثاني الحذرة و اليقظة لم تستطع أن تتكهن ما كان يختلج في صدر ولده أبو تاشفين الثاني، الذي كان صدره موغلا بالحقد على أبيه بتحريض من المرينيين و لم يلبث أن ثار على والده منما دعى أبو حمو موسى إلى مغادرة عاصمته و الإنتقال بعرشه إلى مدينة الجزائر و لكن حقد ولده عليه منعه و ألقى "أبو تاشفين" بوالده في سجن وهران و تواصل الصراع بين الولد و أبيه إلى أن كان اللقاء بينهما، و لسوء حظ السلطان أبي حمو موسى كبا به فرسه فسقط صريعا في شهر ذي الحجة سنة 731 هـ (21 أيلول 1383 م) و عمره يومئذ 61 عاما[2]

و تعتبر وفاة أبي حمو موسى الثاني خاتمة عهد الأمجاد في عهد الدولة الزيانية، إذ بلغت الوقاحة بالإبن حد التحامل على أبيه و الرغبة في التخلص منه و هي كما يصفها ***BARGES*** بالمأساة الحقيقية بعد أن استعان بالمرينيين ضد أبيه الذي يكون قد حكم واحدا و ثلاثين عاما. [3]

و يمكن الجزم بأن هذه الدولة بتأبينها "أبو حمو موسى الثاني" أبنت وجودها و استقرارها و قوتها فقد تربع أبو تاشفين الثاني على عرش والده و أصبح أداة في يد المرينيين، و دب الصراع بينه و بين أخيه "أبو زيان" و و صل الحد من التكالب على السلطة و الملك بالأخ يقتل أخاه، و أصبحت الدولة تشهد صراعات دموية رهيبة أدت بها إلى الضعف و التدهور و حتما للسقوط.

و لم تستطع أن نتحدث عن كل الملوك الزيانيين لأن العهد طويل، و الملوك عددهم لا يعد و لا يحصى و لكننا حاولنا من خلال حديثنا عن الدولة الزيانية أن نلم بأبرز من تركوا بصماتهم في

1- BARGES : Complément ...., p 234
2- BARGES : Ibid, p 233
3- BARGES : Ibid, p 234

تاريخ تلمسان. و لا بد من الإشارة إلى أن الحكم الزياني كان الحكم الأخير قبل سقوط وهران في يد الإسبان، ثم تدخل الأتراك في الجزائر.

"و انتهت بذلك فترة من أروع الفترات و أفجعها، أسسها يغمراسن و دامت حوالي **300** عاما و سقطت عام **961–1554م**"[1]

1- AMAR DHINA : Opsit, p 85.

سادسا : تلمسان في العهد المريني

قبل دخول أبو الحسن المريني إلى تلمسان، تعرضت هذه الأخيرة إلى حصار الثماني سنوات الرهيب من طرف أبي يعقوب المنصور الذي لم يستطع الدخول إليها في حين إستطاع أبو الحسن المريني و بعد حصاره لها لمدة سنتين أن يدخلها يوم الأربعاء 27 رمضان 737 هـ (29 أبريل 1337 م) فتوفي السلطان أبو تاشفين و السيف بيده حينما كان يدافع عن حريمه و قصره هو و أبنائه و وزيره موسى ابن علي الغزي [1]

و هكذا تسقط تلمسان في أيدي المرينين، الذين كانوا يحلمون باحتلالها و سوف تبقى العاصمة الزيانية تحت وطأة المرينيين لمدة لم تعرف فيها الحزن فقط، بل معالم و آثار رائعة بقيت شاهدة على وجودهم بها.

ورد حول نسب المرينين : " أنهم أعلام زناتة و رؤساؤها و كبار قبائلها و عضماؤها، و قد وقفت قديما على رفع نسبهم في زناتة فامتد ملكهم من بلاد الزاب إلى تاهرت و أحواز تلمسان، و بقايا من قبائلهم إلى الآن ببلاد الزاب و أوراس فانقادت إليهم قبائل أهل المغرب لما عرفوا من عدلهم و علموا من حسن سيرتهم، فتعلقوا بأذيالهم، و دخلوا تحت ظلالهم[2] و هم بانتسابهم إلى قبيلة زناتة يعدون أبناء العمومة لبني عبد الواد، إلا أن علاقة الحقد و الكره ظلت ملازمة الإثنين، فقد مضت الأيام و بنو عبد الواد و بنو مرين لا يطيق هذا الآخر [3]

1- محمد بن عمرو الطمار : تلمسان... ص 125.

2- محمد ابن مرزوق التلمساني : المسند الصحيح الحسن في مآثر و محاسن مولانا أبي الحسن، دراسة و تحقيق الدكتورة ماريا خيسوس بيغيرا، تقديم محمود بوعياد، إصدارات المكتبة الوطنية (SNED) النصوص و الدراسات التاريخية 5، الجزائر 1401، 1981، ص 108-110

3- أبو زكرياء يحي ابن خلدون : نفس المصدر السابق، ص 234.

يعد **أبو يوسف يعقوب**، صانع مجد الدولة المرينية، و هو الذي هاجم تلمسان عام **693 هـ 1290–1291** م و لكنها امتنعت عليه و عاد أدراجه و جيشه، خلف أبو يعقوب يوسف والده و من أبرز الحملات لهذا السلطان حصاره لتلمسان، ذلك الحصار المشهور، عندما اختط مدينة المنصورة، ثم خلفه أبو سعيد عثمان ثم بعده ابنه الأكبر ابو الحسن علي [1]

و أبو الحسن علي هو السلطان المريني الذي سوف تعرف معه تلمسان أجمل المعالم الأثرية، فهذا السلطان يمثل أعظم دولة حكمت المغرب الإسلامي في الفترة ما بين القرنين السابع و العاشر للهجرة أي (13 و 16 م) و من بوادر عظمتهم ما تحفل به البلدان التي خضعت لسلطانهم من معالم اثرية لا زالت توحي بعبقرية هؤلاء، الذين تفانوا إلى حد أقصى من أجل إبراز الجمال للفن الذين يمثلونه [2]

لقد كان أبو الحسن المريني يجمع من اعتدال الخلق، و جودة الإدراك، و حسن الفهم، و ذكاء العقل ما لم يجتمع لغيره مثله أما جودة الإدراك و حسن الفهم، و هي الصفات الشريفة المطلوبة في الأئمة و الحكام فقد بلغ منها الغاية.[3]

هذا حول خلال أبي الحسن، أما فيما يخص مشاريعه بتلمسان فقد كانت عظيمة، و أهمها الجامع الذي بناه حذاء ضريح سيدي أبي مدين كما أنه أنشأ رفقة الجامع، مدرسة و قصرا لراحته، كما أنه رمم ضريح سيدي أبي مدين.[4]

و قد سار ولده على منواله فقد شيد السلطان أبو عنان فارس مسجدا مخلدا للولي الصالح الحلوي الشوذي، على غرار والده، بعد سبع سنوات من إنشاء مسجد سيدي أبي مدين شعيب.

1- س محمد الغوتي، بسنوسي : الزخرفة في مساجد منطقة تلمسان، رسالة جامعية مقدمة للحصول على درجة الماجستير، جامعة تلمسان (في الثقافة الشعبية) 1410 هـ 1990م، ص 356.

2- A . DHINA : Opsit. p 87.

3- محمد ابن مرزوق التلمساني : نفس المصدر السابق، ص 125.

4- محمد ابن مرزوق التلمساني : المصدر نفسه، ص 403-404.

و لعل من المهم الإشارة إلى أن تلمسان قد سقطت في الوهلة الأولى في يد السلطان أبي الحسن المريني ثم سقطت في المرة الثانية على يد إبنه أبي عنان إلا أن حكم أبي عنان لم يطل فقد هرب إلى إفريقيا حيث قضى نحبه.[1]

1- BARGES : Complément de l'histoie, p 142-143.

سابعا : تلمسان في العهد التركي

في أوائل القرن العاشر الهجري (16م) كانت الدولة التركية العثمانية في أوج عزها بما حصلت عليه من انتصارات و بما استولت عليه من اقاليم و قد ظهر من قواد جنودها البحرية قائدان عظيمان هما : عروج و أخوه خير الدين باشا[1]

و قد ساهم هذان البطلان مساهمة فعالة في تطهير الجزائر بشتى مناطقها من الإحتلال الإسباني، و قد قدم وفد من أهل تلمسان على عروج طالبين المساعدة منه و هذا من أجل إعادة الإستقرار إلى تلمسان التي كانت تعيش وضعا مضطربا بسبب تكالب سلاطين بني زيان على السلطة، و كان يحكم تلمسان آنذاك السلطان (أبو حمو الثالث) بإعانة من الإسبان بعد أن رمى بالسلطان الشرعي (أبي زيان) في السجن، "فلم يتوانى "عروج" عن إغاثة المستغيث و قصد تلمسان عام 923-1517 م فرحب به أهلها، و فر السلطان أبو حمو الثالث إلى وهران[2] فنصب عروج أبو زيان الثالث المسعود على عرش تلمسان، و قفل راجعا إلى الجزائر، لكن الإسبان و أنصار السلطان المخلوع أضرموا نار الفتنة من جديد فحاول ابو زيان الثالث المسعود أن يستقل عن الجزائر في حين كان يطالبه أنصار السلطان أبو حمو الثالث بالتخلي عن السلطة، و انتهى الأمر بعروج إلى أنه أمر بقتل (أبي زيان الثالث) و أنصاره، و بتحريض من حاكم وهران خرج أبو حمو الثالث في جيش كبير إلى تلمسان و نصب حولها حصارا محكما و كأن مصير المدينة أن تعرف حصارات عديدة يعاني خلالها سكانها الأمرين، و بعد صراع بين أبو حمو الثالث و عروج قتل هذا الأخير مع جماعة من جنود، بوادي المويلح عام (924 هـ -1518م) ثم ثار أهل تلمسان بمساعدة الإسبان بقيادة السلطان أحمد الزياني

1- محمد بن رمضان شاوش : نفس المرجع السابق، ص 118.

2- عبد الرحمان الجلالي : تاريخ الجزائر العام، الجزء 2، 1375-1955، الجزائر، ص 79.

و حاول القضاء على الثائرين و لكن ثكالبهم على السلطة فتح الباب أمام الطامعين فسارع حسن آغا إلى إحتلال تلمسان عام (925هـ-1545م) بعد أن فر صاحبها إلى المغرب الأقصى فنصب حسن آغا على عرشها مولاي الحسن كعامل له ثم عادت تلمسان إلى بني زيان بفضل مساعدة الإسبان، و لم ينتهي حكم هؤلاء إلا بدخول الأتراك و إنتزاعهم الملك من بني زيان عام 962 هـ (1555م) و استمرت في أيديهم إلى أواسط المائة الثالثة عشر أي مدة ثلاثة قرون[1] .

لم يدخل الأتراك إلى تلمسان من تلقاء أنفسهم، بل منجدين لأهل تلمسان من تكالب سلاطين بني زيان على السلطة، و لكن حكم الأتراك لم يكن اسلم من حكم بني زيان و الإسبان فقد عانى شعب تلمسان الأمرين من تصرفات الجند التركي، الذين وضعوا أنفسهم موضعا مرتفعا عن السكان الأصليين لتلمسان، منما أدى بالكثير من الأسر التلمسانية إلى الهجرة مرغمين باكين، و ذلك لأن السياسة التركية كانت قائمة على إقصاء السكان الجزائريين من مناصب الحكم و الإدارة، كما لم يخلف الأتراك لنا معالم و شواهد عن تواجدهم بتلمسان، إذا إستثنينا "مسجد سيدي اليدون و ضريحين بقرية عين الحوت للرجلين الصالحين سيدي عبد الله بن منصور، وسيدي محمد بن علي، و كذا عمليات ترميم ضريح سيدي أبي مدين و سقف مدرسة العباد و مسجد سيدي إبراهيم المصمودي و مسجد سيدي لحسن بن مخلوف الراشدي [2] و لعل ضريح سيدي أبي مدين لا تزال به كتابة فوق مدخل قاعة الدفن نشير إلى الفتى التركي صرمشيق الذي ساهم في عملية الترميم.

و قد خلف لنا امتزاج الأتراك و تزوجهم من التلمسانيات جيلا يسمى بالكرغليين و مرت الأيام و الأتراك مع سكان تلمسان متناسين، أصلهم و إحساسهم بالرفعة و التفوق،

1- محمد بن رمضان شاوش :نفس المرجع السابق ,ص 118.

2- محمد بن ميمون الجزائري : التحفة المرضية في الدولة البكداشية، مطبعة الجزائر، 1981، ص 253.

و لكن شعب تلمسان، تاق إلى الحرية و لم يلبث أن ثار ضد الأتراك و طردهم من بلاده و أصبحت الجزائر حرة موحدة إلى أن جاء الإحتلال الفرنسي[1]

لقد تعاقبت على حكم تلمسان شعوب عديدة، طبعتها بطابعها الخاص، عرفت خلالها المدينة فترات مزدهرة راقية قيض الله لها ملوكا و أمراء واعين اعتنوا بعمرانها و تثقيفها فكثر سكانها [2] و بلغت أوج عظمتها و رقيها، و فترات عصيبة و أليمة، عانى خلالها السكان الجوع و الخوف.

و لعل أجمل ما بقي لتلمسان هذه المعالم المبعثرة هنا و هناك في أرجاء المدينة من أضرحة أولياء صالحين، و مساجد عريقة، و أسوار قديمة، و مبان بسيطة، كدليل قاطع على عظم المدينة و حسن تجلد سكانها و حفاظهم على مظاهر الحضارة رغم كل المآسي.

1- محمد عمرو الطمار : تلمسان عبر....، ص 241-242

2- ابن خلدون : المقدمة، ص 349.

الفصل الثاني

﴿ أضرحة تلمسان دراسة، وصف معماري ﴾

أولا : سيدي بومدين

ثانيا : سيدي الحلوي

ثالثا : سيدي إبراهيم

﴿ ضريح سيدي أبي مدين ﴾

أولا : حياته

يعتبر أبو مدين شعيب من أعيان مشائخ المغرب و شعيب ابن الحسين الانصاري الأندلسي المعروف باسم أبي مدين كما كان يسميه سكان الجزائر، كان من أصل عربي كما يبينه اسمه الأنصاري.[1] ولد بإشبيلية بالأندلس حوالي سنة **520هـ –1126م** في قرية تدعى قطيانة، و كان ذلك في أواخر عهد المرابطين و بدء عهد الموحدين.[2]

و قطيانة قرية تابعة لإشبيلية، و كان والده الذي توفي في عهد مبكر من حياة أبي مدين صاحب غنم و لم تكن الغنم من الكثرة بحيث تسمح باستئجار راع لها، و كان شعيب أصغر اخوته فكلفوه بأن يقوم على رعيها و رعايتها.

و ***BARGES*** يبين أنّ سيدي أبي مدين قد أنهى دراسته في مدارس قريته ثم في إشبيلية و لم يمر وقت طويل حتى غادر الأندلس التي كانت تعيش جوا من التوتر نظرا لتعرضها للحملات المسيحية المتعددة فعبر البحر نحو المغرب.[3]

و لقد كان المغرب في ذلك الوقت يزخر بمجموعة مرموقة من حكماء و فقهاء المذهب المالكي و تم استقرار أبي مدين بفاس التي كانتمركز الخلاقة و مصدر الإشعاع الفكري، "فأخذ العلم بفاس من أبي الحسن على ابن حرزهم[4] ، كما أنه كان كثير الاجتهاد في البحث عن الصفوة

---

1 - BARGES: vie de Célèbre Marabout Sidi- Abou-Médienne, autrement vie Bou-Mediènn, Paris Larousse Librairie, p1

2 - BARGES: Ibid, p.1

3 - BARGES: Ibid, p.1

4- أبو زكرياء يحيى ابن خلدون: نفس المصدر السابق، ص 125.

من العلماء و الفقهاء إذ لم يقتصر نهله من علم ابن حرزهم بل و كان من بين أساتذته الفقيه العلامة أبي الحسن بن غالب.[1]

و قد قرأ على يد شيخه ابن حرزهم معجم التقاليد للترميذي، امّا تحت متابعة الشيخ الحسن ابن غالب فقرأ المذهب المالكي. و قد كان الحسن ابن غالب من كبار رواة الحديث بحاضرة فاس في ذلك العهد.

و ذكر عن أبي مدين شعيب أنه قال : "كنت في أول أمري و قراءتي على الشيوخ إذا سمعت تفسير آية أو (معنى) حديث قنعت به و انصرفت لموضع خالي خارج فاس اتخذه مأوى للعمل فيه بما فتح الله به علي. [2] و كان أبو مدين رحمه الله من صغره يحبّ الذاكرين و المنسوبين إلى الله تعالى المنقطعين إليه، فما سمع بشيخ أو ولي يدّعي التصوّف إلاّ و ذهب لزيارته و الجلوس معه و الاقتباس من معارفه و أسراره، حتى لقي أجّل شيوخه (أبي يعزى(*) الذي فتح له آفاق حياة الزهد و التصوّف، و لم يكن يتعدى وقتها سنّ المراهقة [3]. و لقد كان لدروس هذا الشيخ بالغ الأثر في حياة أبي مدين "فقد سلك على شيخ المشائخ أبا يعزى (رضي الله عنه) إلى أو وصل و حقق و أدرك فشرف بإذنه [4]

و يمكن أن نذكر هنا قصة الشيخ أبي مدين مع الشيخ أبي يعزى حسب ما ورد في كتاب البستان "و بقيت كذلك مدة و اخبار سيدي أبي يعزى ترد عليّ و كراماته يتداولها الناس و تنقل إلي فملأ قلبي حبه فقصدته مع جماعة الفقراء فلما وصلنا إليه أقبل على الجماعة درني و إذا حضر

1- عبد الحميد حميدو التلمساني: السعادة الأبديّة لأبي مدين شعيب فخر الديار التلمسانية، طبع بالمطبعة الجديدة بطالعة فاس سنة 1354هـ 1935م، عدد 64، ص 39-40.

2- ابن مريم: نفس المصدر السابق، ص 109.

* - أبو يعزى : أبو يعزى يلنور بن سليمان الولي العارف وحيد دهره و فريد عصره في العلم و العمل من رجال الكمال و صدور الأولياء الأبدال أخذ عن أبي شعيب السارية و عنه أخذ أبو مدين شعيب، توفي سنة 572 هـ و عمره نحو 130 سنة، (ينظر كتاب محمد بن محمد مخلوف: نفس المصدر السابق، ص 163).

3- BARGES: la vie de Sidi Bonmedienne, p.2.

4- أبو زكرياء يحيى ابن خلدون: نفس المصدر السابق، ص 125-126.

الطعام منعني من الأكل معهم و بقيت كذلك ثلاثة ايام فأجهدني الجوع و تحيرت من خواطر ترد علي وقلت في نفسي إذا قام الشيخ أمرغ و جهي في المكان فقام و مرغت وجهي فقمت فإذا أنا لا أبصر شيئا و بقيت طول ليلتي باكيا فلما اصبح الصباح دعاني و قربني فقلت له ياسيدي قد عميت و لا أبصر شيئا فمسح بيده على عيني فعاد بصري ثم مسح على صدري فزالت عني تلك الخواطر و فقدت ألم الجوع و شاهدت في الوقت عجائب من بركاته ثم استأذنته بنيّة أداء فريضة الحج فأذن لي و قال ستلقى في طريقك الأسد فلا يرعك فان غلب عليك خوفه فقل له بحرمة آل النور الا انصرفت عني فكان الامر كما قال[1]

و في سياق آخر حول تربيته من طرف الشيخ أبي يعزى الذي كان له أسلوب قاس في التربية، نورد هذان البيتان اللذان قالهما أبو مدين بعد أن فقد بصره باكيا.

قليل لمثلي زفرة و نحيب ❖❖❖ و ليس له إلا الحبيب طبيب

و أمثل ما يلقى المحب خضوعه ❖❖❖ إذا كان من يدعوه ليس يجيب

"...ثمّ مسح بيده على صدري وقال للحاضرين: هذا يكون له شأن عظيم."[2] و لن يفوتنا التطرّق إلى أستاذه في العلوم الصوفيّة الشيخ الصالح أبي علي الدقاق، و هو من كبار مشايخ الصوفية، و كان إماما في ذلك و كان يقول: " أنا أول من أخذ منه الشيخ أبو مدين علم التصوف."[3]

و يروي ايضا عن الشيخ أبي مدين أنّه كان يفضل كتاب الرسالة القشيرية للشيخ القشيري و أيضا كتاب (إحياء علوم الدّين) لأبي حامد الغزالي.

---

1 ابن مريم: نفس المصدر السابق، ص 109-110.

2- سيد أحمد سقال: الواي الصالح سيدي أبي مدين، منشورات سقال 10، نهج ادريس، تلمسان، 1993، ص 13- 14.

3- سيد أحمد سقال: المرجع نفسه، ص 10-11.

و رحل أبومدين شعيب إلى المشرق بقصد أداء فريضة الحج و الإستزادة من العلم و الفقه، و لعلّ هذه الرّحلة كان لها بالغ الأثر في حياته بفضل الشيوخ الذين التقى بهم خلالها و خيرهم عبد القادر الجيلاني.

و يروي ابن مريم أنّ أبا مدين قد تعرّف في عرفة بالشيخ عبد القادر الجيلاني فقرأ عليه في الحرم الشريف كثيرا من الحديث، و ألبسه خرقة الصوفية (*) و أودعه كثيرا من أسراره و حلاّه بملابس أنواره فكان أبو مدين يفتخر بصحبته و يعده أفضل مشائخه.[1]

و بهذه الرحلة اتسعت أفاق أبي مدين الفكريّة و العقائديّة إذ مكنته من أن يقف على تعاليم الصوفية في المغرب و المشرق.[2] فكثر علمه و حطّ رحاله ببجاية بعد عودته و استقر بها نهائيا و قد وصفها بقوله "بجاية بلد ملائم للغاية للدراسة و البحث فيما هو مشروع و مباح.[3] و كانت بجاية تعرف في ذلك العهد أوج إزدهارها لكونها قلعة بني حماد[4] و بها ذاع صيته فقد استقر بزاوية و أصبح يعقد حلقات ذكر يلقي فيها دروسا و محاضرات حول العقيدة و حول احكام القضاء القرآني.

و هكذا أمضى أبو مدين فترة زمنية هامة ببجاية يدرّس بها، و يبهر الناس بكراماته، و لم يزل بها يزداد حاله رفعة على مرّ الليالي و ترد عليه الوفود و ذوو الحاجات من الآفاق و يخبر

---

* - خرقة الصوفية: هي ما يلبسه المريد من يد شيخه الذي يدخل في إرادته و يتوب على يد لأمور منها الزي بزي المراد ليتلبس باطنه بصفاته، كما تلبس ظاهره بلباسه و هو لباس التقوى ظاهرا و باطنا، قال تعالى: ﴿قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوآتكم و ريشا و لباس التقوى ذلك خير﴾ سورة الأعراف، الآية 36)، و منها وصول بركة الشيخ الذي لبسه من يده المباركة إليه و منها نيل ما يغلب على الشيخ في وقت الإلباس من الحال الذي يرى الشيخ ببصيرته النافذة المنورة بنور القدس أنه يحتاج إليه لرفع حجبه العائقة و تصفية استعداده فإنه إذا وقف على حال من ثبوت على يده علم بنور الحق ما يحتاج إليه فيستنزل من الله ذلك حتى يتصف قلبه به فسيرى من باطنه إلى باطن المريد و منها المواصلة بينه و بين الشيخ به فيبقى بينهما الاتصال القلبي و المحبة دائما و يذكره الأتباع على طول الأوقات في طريقته و سيرته و اخلاقه و أحواله حتى يبلغ مبلغ الرجال فإنه أب حقيقي كما قال عليه السلام: "الأباء ثلاثة: أب ولدك و أب علّمك و أب ربّاك"(هذا حديث لم يعثر عليه) (ينظر: كمال الدين عبد الرازق القاشاني: نفس المصدر السابق، ص 160).

1- ابن مريم: نفس المصدر السابق، ص 110.

2- محمّد عمرو الطمّار: تلمسان ....، ص 70.

3- Bargès: la vie de sidi Boumediene p.11

4- Bargès: Ibid, p.11.

بالغيوب إلى أن وشى به بعض علماء الظاهر عند يعقوب المنصور(*) بحجة أنه يشكل خطرا على دولته لأن له شبها بالإمام المهدي و أتباعه كثيرون في كل بلد فوقع في قلبه و أهمه شأنه فبعث إليه في القدوم عليه ليختبره و كتب لصاحب بجاية بوصية الاعتناء به و حمله خير محمل. فلما أخذ في السفر شق على أصحابه و تغيروا و تكلموا معه فأسكتهم و قال لهم ان منيتي قربت و بغير هذا المكان قدرت و لابد لي منه و قد كبرت و ضعفت لا أقدر على الحركة فبعث الله تعالى لي من يحملني إليه برفق و يسوقني إليه أحسن سوق و أنا لا أرى السلطان و هو لا يراني فطابت نفوسهم و ذهب بؤسهم و علموا أنه من كراماته.[1] إلاّ أنّ السّن المتقدمة لأبي مدين جعلت من مشاق الطريق عبئا ثقيلا عليه، فمرض على مشارف مدينة تلمسان في مكان لاحظ فيه تواجد عدة قبور متناثرة هنا و هناك، و حينما سئل قيل له إنه العباد فقال قولته المشهورة "ما أحلاه للرقاد".[2] و اشتد به المرض و عرف أصحابه أنّه لن يسلم فلما وصل وادي يسر نزلوا به هناك فكان آخر كلامه "الله حق" و توفي رحمه الله تعالى سنة 594هـ.[3]

و بما أنّ صيت أبي مدين كان ذائعا في كلّ الأقطار فقد هبّ سكان تلمسان إلى جنازته، و قد شيعت جنازته بالعبّاد. و يشير ***Barges*** أنّ عمر الحباك الذي مشى في جنازة الشيخ أبي مدين، قد سلك مسلك الزاهدين إلى أن أصبح من المشاهير الصالحين.[4]

و يعتبر ما أورده ***Brosselard*** عن زيارة الشيخ الأولى بتلمسان ملفتا للإنتباه فيذكر أن أبا مدين بقي بضعة أيام يلقي الدروس ثم غادرها إلى أن رقد فيها رقدته الأبدية.[5]

---

*- يعقوب المنصور: أحد الخلفاء الموحدين الذي عرفت خلال حكمه، الدولة الموحدية الإزدهار و العمار، فقد كان يشجع الأدباء و العلماء ينظر محمد عمرو الطمار: تلمسان عبر العصور، ص 76)

1- ابن مريم: نفس المصدر السابق، ص 113.

2 - Le site: Tlemcen, p.66

3- ابن مريم: المصدر نفسه، ص 114.

4- Bargés: la vie de sidi boumediene, p.61-62

5- CH. Brosselard : Opcit , p.5-6

و أثناء تصفحنا للمصادر و المراجع الأخرى لم نصادف ذكرا لهذه الرحلة. إذ و لا واحد من الكتاب الآخرين أشار إلى هذه الرحلة إلى تلمسان. و ما يهمنا هو أنّ هذا الولي الصالح قد أعطى للمدينة صبغة من الهيبة و الاحترام برقاده فيها.

أ- علمـــــه :

ينبغي علينا أن لا نذكر أبا مدين شعيب دون المرور بايجاز على علمه الذي شمل عدة عناصر كالتصوف و الفقه و التوحيد قبل الحديث عن كراماته.

1- تصـــوّفه :

ورد في البستان عن ابن صعد التلمساني في النجم الثاقب: "كان رحمه الله تعالى من أفراد الرجال و صدرا من صدور الأولياء و الابدال جمع الله له بين الشريعة و الحقيقة و أقامه ركن الوجود هاديا و داعيا للحق يقصد بالزيارة من جميع الأقطار.... و ذكر التادلي و غيره أنه تخرج على يده ألف شيخ من الأولياء أولي الكرامات و قال أبو الصبر كبير مشائخ وقته: "كان أبو مدين زاهدا فاضلا عارفا *بالله تعالى خاض بحار الأحوال و نال أسرار المعارف خصوصا مقام التوكل.[1]

و قد تخرج على يد أبي مدين علماء كثيرون منهم محي الدين بن عربي الحاتمي، و الشيخ أبو محمد صالح الينصارني الدوكالي و ابن عبد الخالق التنسي، و أبو يوسف الدهماني و الشيخ طاهر المزوغي و غيرهم كثيرون.

---

*- عارفا: العارف من/أشهده الله زاته و صفاته و أسماءه و أفعاله، فالمعرفة حال تحدث عن شهود (انظر كمال الدين القاشاني: نفس المصدر السابق، ص 106).

1- ابن مريم: نفس المصدر السابق، ص 108.

و كلّ من يذكر الولي الصالح أبي مدين يعرّفه بالقطب(*) و الغوث(*) نظرا لعلمه الواسع و زهده و ورعه اللامتناهيين.

2- فقهـــه :

كان في علم الفقه من أعلام علماء الطبقة الثانية عشرة (12) من علماء المالكية و من حفاظ الحديث، خصوصا الترميذي، و كان يقوم عليه، و كان ترد عليه الفتاوي في مذهب مالك فيجيب عنها في الوقت، منها فتواه لأبي إسحاق الطيار (*) دفين تلمسان.

و كان يروي المذهب المالكي و هو موطأ مالك عن ابن بشكوال عن ابن عتاب عن والده عن أبي محمد مكي بن أبي طالب عن أبي محمد بن أبي زيد عن ابن اللباد و الأبياني عن يحي بن عمر عن سحنون عن ابن القاسم عن مالك بن أنس كما اخذه عن الحافظين أبي الحسن بن حرزهم و أبي الحسن ابن غالب.

و يجب أن نشير في هذا الصدد إلى ما قدمه ***BARGES*** في كتابه حول سيدي أبي مدين حيث ذكر أن الشيخ كان يشرح القرآن فلا يتعدى السورة (67)(*) و مما يدل على علو مقام أبي

---

*- **القطب**: "هو الواحد الذي هو موضع (نظر الله تعالى من العالم في كل زمان و هو على قلب اسرافيل عليه السلام.أمّا Bargés فعرّف القطب كالآتي: "القطب بالنسبة للمتصوفة هو أعلى درجات الكرامات الالاهية التي يصبون إليها و لا يتعد Brosselard كثيرا في تصوره و تعريفه لهذا المصطلح فهو يقول: "القطب في لغة الصوفية يعني الشخص المفضل الذي يحمل هذا الإسم هو الرجل الصالح، الناسك، الذي يحتل قمّة السّلم البشري، فهو يحمل كلّ الفضائل، كل العلوم.... إنّ القطب هو الذي ينشر فكرة الحياة على الطبيعة العليا و السفلى فبيديه ميزان الانبثاق و الانبعاث العامين.(ينظر *CH Brosselard .. Opcit, p* 14)

*- الغوث : فهو القطب حينما يلتجأ إليه و لا يسمى في غير ذلك الوقت غوثا ينظر إلى كتاب القشاني : نفس المصدر السابق، ص 167 و يعرف *Brossclard* الغوث كالآتي : "الغوث ايضا يعني شخصا فريدا و فذا و هو يحتل درجة أعلى في سلم الصوفية ... إنه الملجأ الأعلى للمحتاجين، المنقض ... فقد أودعه الله هبه السعد أو الفال السعيد، إنه ينتشر في كل الطبيعة بمختلف موادها و جواهرها فيعطيها الحياة، كما ينعش الجسم كله ينظر إلى *CH Brosselard .. Opcit, p* 15).

*- سأل أبو إسحاق الطيار أبا مدين قائلا : صلينا الصبح أنا و رجل معي ببغداد، و قدمنا مكة فوجدنا هم في صلاة الصبح فأعدنا معهم، و جلسنا حتى صلينا الظهر، و أتينا القدس فوجناهم في الظهر، فقال لي صاحبي هذا يغيد معهم، فقلت : "لا" فقال لي و لم أعدنا الصبح بمكة ؟ فقلت له كذلك كان شيخي يفعل، و به أمرنا، فاختلفنا و أتينا للجواب، فقال أبو مدين : أما إعادة الصبح بمكة فلأنها بها عين اليقين، و ببغداد علم اليقين، و عين اليقين أولى من علم اليقين، و صلاتكم الظهر بمكة، و هي أم القرى، فلذلك لا تعاد في غيرها، قال فقنعنا به و انصرفنا" (أنظر ابن مريم : نفس المصدر السابق، ص 113).

مدين في التوحيد ما قاله الشيخ أبو محمد صالح الينصاريني : لقيت أبا العباس الخضر عليه السلام بالمغرب سنة ثمانين خمسمائة (580) فسألته عن شيخنا أبي مدين رضي الله عنه، فقال : هو إمام الصديقين في هذا الوقت و سره من الإرادة، ذاك أتاه الله مفتاحا من السر المصون بحجاب القدس، ما في هذه الساعة أجمع لأسرار المرسلين منه [1]

و سوف ننتقل الآن إلى الحديث عن بعض كراماته المدهشة، إذ أنها كثيرة و لا نستطيع أن نوردها جميعها في هذا السياق.

ب - كراماته :

إن الكرامة التي ذكرت عن أبي مدين شعيب كثيرة جدا و لا يسعنا الحديث عنها كلها في هذا السياق لذلك سنكتفي بالإشارة إلى بعضها و خاصة التي ذكرها عن نفسه و التي حدثت له في مجالسه.

يروي لنا ابن مريم في كتابه **البستان** هذه الكرامة الأولى فيقول : "كنت (الشيخ أبو مدين) في أول أمري و قراءتي على الشيوخ إذا سمعت تفسير آية أو (معنى) حديث قنعت به و انصرفت لموضع خال خارج فاس اتخذه مأوى للعمل بما فتح الله به على فإذا خلوت به تأتيني غزالة تأوي إلي و تؤنسني و كنت أمر في طريقي بكلاب القرى المتصلة بفاس فيدورون حولي و يبصبصون لي فبينما أنا ذات يوم بفاس و إذا برجل من معارفي بالأندلس سلم على فقلت "وجبت ضيافته" فبعت ثوبا بعشرة دراهم فطلبت الرجل لأدفعها له فلم أجده هنالك فخليتها معي و خرجت لخلوتي على عادتي فمررت بقريتي فتعرض لي الكلاب و منعوني الجواز حتى خرج من القرية من حال بيني و بينهم و لما وصلت لخلوتي جاءتني الغزالة على عادتها فلما شممتني نفرت عني

---

*- و هذه الفكرة حول عدم ذهاب الشيخ أبعد من سورة (67) فيقول الشيخ أبو مدين : "هذه السورة كانت موجهة لي " سدرة المنتهى و قد اعتبرتها كحد أقصى و نهائي فلا أستطيع أن أذهب أبعد من هذا حتى لا أتعرض للعقاب الإلاهي (ينظر Bargés la vie de Sidi ..... p 41-42).

1- نور الدين الشطنوفي : بهجة الاسرار و معدن الأنوار، مكتبة و مطبعة مصطفى البابي الحلبي و أولاده بمصر، ص 67.

و انكرت علي فقلت ما أتى علي إلا من أجل هذه الدراهم التي معي فرميتها عني فسكنت الغزالة و عادت لحالها معي و لما رجعت لفاس جعلت الدراهم معي فلقيت الأندلسي فدفعتها له ثم مررت بالقرية في خروجي للخلوة فدار بي كلابها و بصبصوا على عادتهم و جاءتني الغزالة على عادتها فشمتني من مفرقي إلى قدمي و أنست بي[1] .

و مما يروى عن الشيخ أنه قال : عن العارف عبد الرحيم المغربي قال سمعت سيدي أبا مدين يقول : "أوقفني ربي عز و جل بين يديه و قال لي : يا شعيب ماذا عن يمينك قلت يا رب عطاؤك قال عن شمالك قلت يا رب قضاؤك فقال يا شعيب قد ضاعفت لك هذا و غفرت لك هذا فطوبى لمن رآك أو رأى من رآك [2]

و مما يرويه أبو العباس المرسي قال : "جلت في ملكوت الله فرأيت سيدي أبا مدين متعلقا بساق العرش و هو يومئذ رجل أشقر أزرق العينين فقلت له ما علومك و ما مقامك فقال علومي أحد و سبعون علما و أما مقامي فرابع الخلفاء و رأس السبعة الأبدال و سئل عما خصه الله به فقال مقامي العبودية و علومي الألوهية و صفاتي مستمدة من الصفات الربانية ملأت علومه سري و جهري و أضاء بنوره بري و بحري فالمقرب من كان به عليما و لا يسموا إلا من أوتي قلبا سليما الذي يسلم مما سواه و لا يكون في الوعاء إلا ما جعل فيه مولاه فقلب العارف يسرح في الملكوت بلا شك و نرى الجبال تحسبها جامدة و هي تمر مر السحاب

و سئل في مجلسه عن الحب فقال أوله دوام الذكر و أوسطه الأنس بالمذكور و أعلاه أن ترى شيئا سواه[3]

1- ابن مريم : نفس المصدر السابق، ص 109.

2- بن مريم : المصدر نفسه، ص 110.

3- ابن مريم المصدر نفسه، ص 110-111.

و من الكرامات أيضا : أن رجلا جاءه ليعترض عليه فجلس في الحلقة فأخذ صاحب الدولة في القراءة فقال له أبو مدين أمهل قليلا ثم التفت للرجل و قال له لم جئت فقال لأقتبس من نورك فقال له ما الذي في كمك فقال له مصحف فقال له افتحه و اقرأ في أول سطر يخرج لك ففتحه و قرأ أول سطر فإذا فيه الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين فقال له أبو مدين أما يكفيك هذا ؟ فاعترف الرجل و تاب و صلح حاله [1]

يورد ***BARGES*** هذا الجدل الذي قام حول نقطة يقول عنها أنها تجد بعض الشبه مع الديانة المسيحية ألا و هو الإختلاف الذي قام حول الحديث "إذا مات المؤمن أعطي نصف الجنة."

و عندما جاؤوا لسؤاله بينما كان يلقي درسه، كاشفهم في الحال و أجابهم أن المراد من نصف جنته هو الكشف له عن مقعده ليتنعم به و تقر عينه، ثم النصف الآخر يوم القيامة [2]

و يتعذر علينا الإتيان بكل كرامات الشيخ أبي مدين، نظرا لتعددها و قد أوردنا ما ترائى لنا مهما أو أكثر أهمية.

1- ابن مريم : نفس المصدر السابق، ص 111

2- BARGES : la vie de cidi ...., p 27

جـ - إنتاجـه الفكري :

و من بين ما خلف سيدي أبي مدين من إنتاج فكري بعض الحكم التي نذكر منها :

1- إذا رأيت من يدعي مع الله حال و ليس على ظاهره شاهد فاحذره.

2- حسن الخلق معاشـرة كـل شـخص بمـا يؤنسـه و لا يوحشـه و مـع العلمـاء بحسـن الإسـتماع و الافتقار و مع أهل المعرفة بالسكون و الإنتظار و مع أهل المقامات بالتوحيد و الإنكسار.

3- من رزق حلاوة المناجاة زال عنه النوم

4- من اشتغل بطلب الدنيا ابتلي فيها بالذل

5- علامة الإخلاص أن يغيب عنك الخلق في مشاهدة الحق [1]

و من شعره المأثور عنه قوله :

مغيث أيـــوب و الكـــافي لذي النون ❖❖❖ ينيـــلني فـــرجا بـــالكـــاف و النـــون
كم كربة من كروب الدهـر فـرجها ❖❖❖ دوني و لم ينكشف وجهي لمـن دوني[2]

كما خلف قصائد شعرية إخترنا منها الأبيات التالية :

طـــال اشـــتيـــاقي و لا خـــل يـؤانســـني ❖❖❖ و لا الـزمـــــان بـمـا نـهـوى يـوافـيني
ذا الحبيب الذي فـي القـــلب مسكنـه ❖❖❖ علـيه ذقـت كـــؤوس الـدل و المحن
عـليـه أنـكـرنـي مـن كـان يعـرفـني ❖❖❖ حـتى بـقـيت بـلا أهـل و لا وطـن
قـــالوا جننت بـمـن تهوى فقلت لهـم ❖❖❖ مـــا لـذة العـيش إلا لـلمـجـــانـين[3]

يظهر منما أشرنا إليه أن أبا مدين كان عالما و محدثا و فقيها و صوفيـا و زيـادة علـى كـل هذا شاعرا و شعره جميل في اللفظ و التركيب و ثري في المعاني فهو شعر مستكمل النفاسة لفظا و معنى، و البعض منه يغنى به و ينشد في محافل الذكر [4]

1- ابن مريم : نفس المصدر السابق، ص114

2- أبو زكرياء يحي ابن خلدون : نفس المصدر السابق ص 126.

3- سيد أحمد سقال :نفس المرجع السابق ، ص 47.

4- سيد أحمد سقال : المرجع نفسه، ص 21 .

قبل التطرق لضريح سيدي أبي مدين لا بد من التطرق إلى مجمع العباد.

* المجمع المعماري للعبـاد :

يقع ضريح سيدي أبي مدين ضمن مجمع معماري بالعبـاد. و العبـاد هـو إسـم القريـة الـتي توجد على بعد ثلاث كيلومـترات شـرقي مدينـة تلمسـان أي بـالتحديد في الجنـوب الشـرقي مـن تلمسان و تنتصب في سفح جبل (البعل) الذي يشرف عليها بغابته ذات الأشجار الوارفـة الظـلال و هي تشرف أيضا على واد الصفصاف ... و إسم العباد مشـتق مـن العبـادة لأنـه جمـع عـابد، إذ كان في بادئ الأمر رباط يجتمع فيه النساك و الزهاد بقصد الإنقطاع لعبادة ا لله [1]

آخرون يرجعون تسمية العباد نسبة إلى الولي الصالح سيدي عباد و الذي يعتبره سكان العباد القدامى رجلا صالحا حطّ رحاله بتلمسان قبل (سيدي أبي مدين) و أعطى تسمية للقرية، و مع أن هناك قبة تنتصب بالعباد ترمز له و تحمل إسمه، إلا أننـا لا نسـتطيع الفصـل في حقيقـة وجـود هـذا الولي من عدمه[2]

يمدح الشيخ محمد ابن يوسف الكتيسي الأندلسي العباد قائلا :

و لتـغد لـلـعبـاد مـنـها غـدوة ❖❖❖ تصبح هموم النفس عنك بمعزل
و ضريح تاج العـارفـين شعيـبها ❖❖❖ زره هـنـاك فـحـبـذا ذاك الـوالي
فـمـزاره لـلـديـن و الدنـيـا معا ❖❖❖ تمحي ذنوبك و كروبك تـنـجـلى
و بكهفها الضحاك قف منتـزها ❖❖❖ تسرح جفونك في الجمـال الأجل
و تمشي في جثاثها و ريـاضيـهـا ❖❖❖ و اجنح إلى ذاك الجـنـاح المـخضر [3]

و قال سيدي الحاج الطيب أبو عبد ا لله محمد بن أبي جمعـة التـلالي في قصيـدة مـدح فيهـا تلمسان :

1- محمد بن رمضان شاوش : نفس المصدر السابق، ص 278 .

2- William et George Marçais : Les monuments..., p 225.

3- Barges : Vie du ..., p XXXVII XXVIII..

و عبادها ما القلب ناس ذمامه ❖❖❖ به روضة للخير قد جعلت حلا

بها شيخنا المشهور في الأرض ذكره ❖❖❖ أبو مدين أهلا به دائما أهلا[1]

إنقسم العباد في القديم إلى قسمين **العباد السفلي** و الذي يمتد من عين وانزوتة إلى سيدي أبي إسحاق الطيار، و قد كانت به حمامات و أسواق و منتزهات اندثرت و لم يبقى منها أي أثر اليوم و العباد **العلوي أو الفوقي** هو الذي يحوي مسجد سيدي أبي مدين بكل مرافقه [2]

أنشأ ضريح سيدي أبي مدين بأمر من السلطان محمد الناصر [*] [3]و هذا السلطان هو الذي أمر ببناء ضريح يليق بذاكرة الشيخ أبي مدين، و لعل **محمد الثاصر**، كان أول من شيد الضريح فاتحا بذلك الباب أمام من أتى بعده، في الإبداع و التزيين. فقد عمل السلطان الزياني **يغمراسن ابن زيان** على تزيين هذا الضريح، كما أمر بدفن السلطان الموحدي **السعيد** بمقبرة سيدي أبي مدين كتكريم لروح السلطان المنهزم أمامه، و لعائلته.[4]

و لعل أروع المعالم المخلفة لنا هي تلك التي قام بها السلطان **أبو الحسن المريني** إذ يصفها إبن مرزوق على أنها مما لم يعهد منه في سالف الأزمان و لا سبق شكله في قواعد البلدان. [5]

إن ما أنشأه أبو الحسن المريني يفوق كل اعتبار، فعلاوة عن إهتمامه بترميم مبنى الضريح و تجديده، فإنه سارع إلى إنشاء مجمع حقيقي يشتمل على المسجد و المدرسة و القصر. [6]

1- عبد الحميد حميدو : نفس المرجع السابق، ص 22

2- محمد بن رمضان شاوش : نفس المرجع السابق، ص 279 .

* محمد الناصر : هو إبن السلطان المنصور الموحدي و محمد الناصر هو أول من شيد ضريح أبي مدين شعيب أواخر القرن السادس للهجرة (ينظر إلى كتاب محمد بن رمضان شاوش : نفس المرجع السابق، ص 288).

3- سيد أحمد سقال : نفس المرجع السابق، ص 23-24 .

4- Ch Brosselard : opsit, Numéro 4, p 89.

5- محمد ابن مرزوق التلمساني : نفس المصدر السابق، ص 125 .

6- سيدي محمد الغوتي بسنوسي : نفس المرجع السابق، ص 353-354 .

أ- الجـــامع :

باب الجامع الضخم رائع الجمال يحتوي على قنطرة عظيمة البنيان على شكل حـذوة الفـرس و يحمل هذا الباب حاشية فوق الإطار المستطيل الشكل بهـا كتابـة تشـير بخطـوط أندلسـية نصهـا "الحمد لله وحده أمر بتشييد هذا الجامع المبارك مولانا السلطان عبد الله علي بن عبـد الحـق أيـده الله و نصره عام تسعة و ثلاثين و سبعمائة نفعهم الله به ... يصعـد إلى الجـامع بمـدرج مفـروش بالرخام تعلوه قبة بديعة المنظر ... تحمل في سقفها كتابة نصها : "هذا ما أمر به مولانا أبو الحسـن عبد الله علي" أما زخرفتها الجصية فهي آية في الجمال.

أما الباب الذي ينفتح على صحن الجامع فيصفه ابن مرزوق بأنه : "و أما الباب الجوفي الذي ينفتح على المدرج الذي ينزل فيه إلى قبر الشيخ رضي الله عنه ... و هو باب من النحاس يشـتمل على مصراعين كل مصراع منهمـا مصفـح بالنحـاس المخـرم المنقـوش بـالخواتم المسـتوفاة المشـتركة العمل و تخريمه على أشكال من نحاس ملونه فهو من غريب ما يتحدث به.[1]

بعد المرور من هذا الباب نجد الصحن المربـع الشـكل مفروشـا بالفسيفسـاء المختلفـة الألـوان بوسطه حوض من الرخام و مصاطب للجلوس ... و تحيط بهذا الصحن أروقة من الجهات الثلاث أما جهة القبلة فتحتلها قاعة الصلاة التي تحتوي على أربعة بلاطات و خمسة أروقة محمولـة عقودهـا على ستة عشرة سارية ... أما السقف و الجدران فهي مزخرفة بنقوش بديعة [2] كما نجد به مئذنة رائعة الجمال (أنظر الشكل رقم 1).

1- محمد ابن مرزوق التلمساني : نفس المصدر السابق، ص 34.

2- محمد بن رمضان شاوش : نفس المرجع السابق، ص 290-235-296.

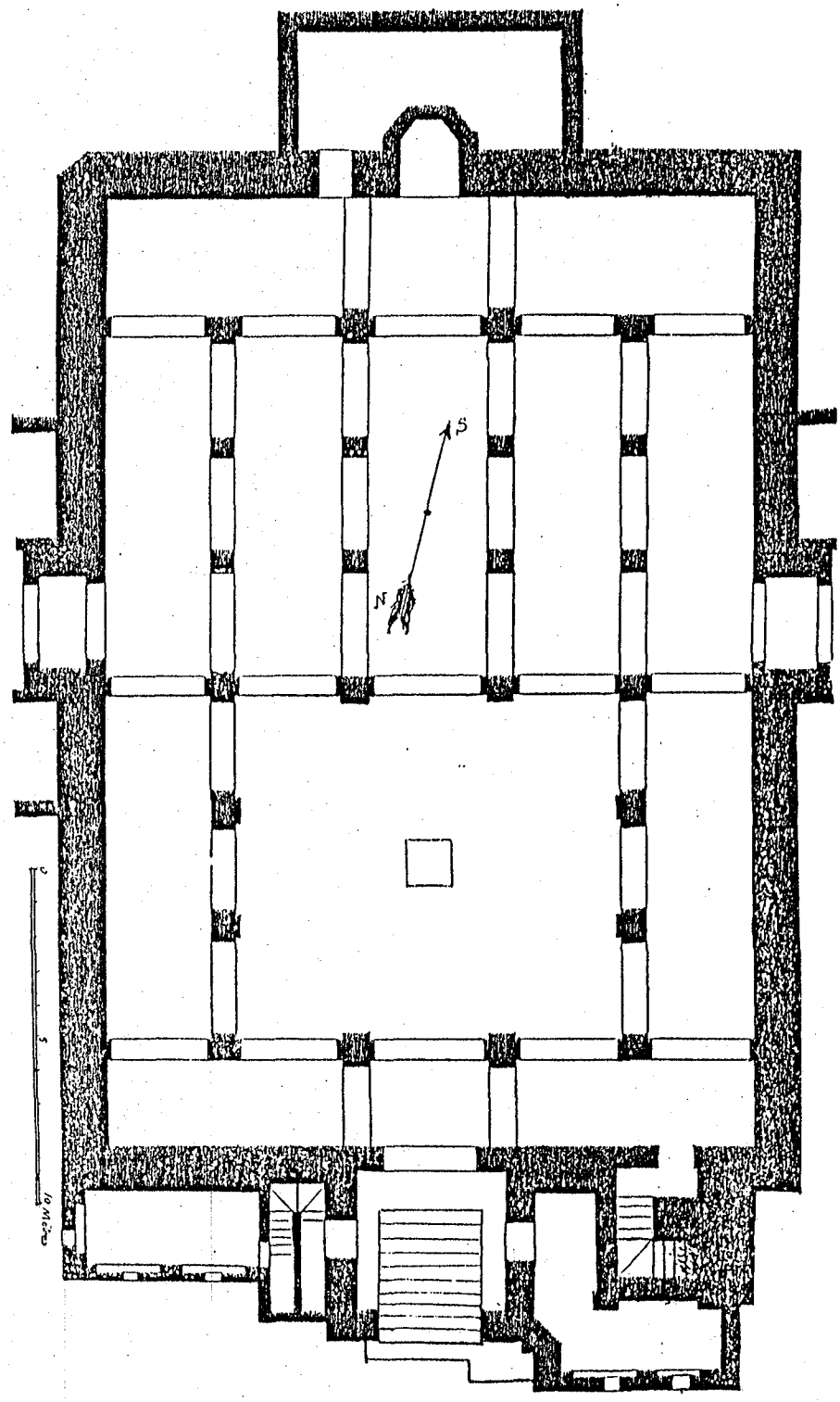

(الشكـــل رقم 01) : مخـــطط مســـجد سيـــدي أبي مـــــدين

(William et Georges Marçais : Les monuments ..., P 244)

ب ـ دار السلطان :

يجد الزائر لمسجد سيدي أبي مدين إذا دخل من الباب على يساره بابا عريضا يؤدي إلى دار السلطان و هي عبارة عن قصر شيده السلطان المريني من أجل الإستراحة فيه من هموم الحكم و السياسة. و يرجع تأسيس هذه الدار إلى نفس العهد الذي أسس فيه المسجد و المدرسة. و هي تعد من المنشآت المعمارية المرينية الرائعة و مع أنها اليوم لا تخلف لنا سوى أطلال توحي بذوق معماري رفيع، إلا أننا لا زلنا نجد جدرانا مخربة تحتفظ بزخارف جصية و أروقة ذات قناطر مقوسة. [1]

كان القصر يحتوي على أكثر من **12** غرفة تبلغ بعضها **12** مترا طولا و لا تتعدى **3** أمتار عرضا بها تحلية رائعة و جذابة [2].

جـ ـ المدرسة :

حينما تخرج من مسجد سيدي أبي مدين تجد بابا جوفيا يوصلك إلى المدرسة، أسست المدرسة ثماني سنوات بعد مسجد سيدي أبي مدين، من طرف السلطان أبي الحسن المريني، و لعل المدرسة أو الزاوية قد كانت من المنشآت الجديدة التي أدخلها أبو الحسن المريني إلى تلمسان و هي مكان تعبد للمنقطعين إلى الله، فهي للصلاة، لتلاوة القرآن و كذا لإلقاء الدروس كما أنها مأوى عابري السبيل و الطلبة [3].

للمدرسة باب واحد معقود بعقد حذوي، بداخلها صحن مستطيل في وسطه حوضان : أحدهما كبير يحيط به شباك من حديد حديث العهد و آخر صغير في وسطه نافورة ماء. على الجانبين الأيمن و الأيسر من الصحن نجد رواقين محمول سقفهما على عشر سوار : خمس من كل

---

1 – محمد بن رمضان شاوش : نفس المرجع السابق، ص 285 .

2- William et Georges Marçais : Les monuments ..., p 266-269.

3- William et Georges Marçais : Ibid , p 274.

جهة، ما نلاحظ ساريتين إزاء الباب الذي دخلنا منه و ساريتين أما م القاعة المقابلة التي تلقى بها الدروس و تقام بها الصلوات، أما في جدار كل واحد من الرواقين الأيمن و الأيسر نجد البيوت التي تعد للطلبة و هي بعدد 6، ... في الواجهة الجنوبية من الصحن توجد القاعة المهيأة للدراسة و للصلاة معا و هي مربعة الشكل تعلوها قبة من الخشب، يغطيها من الخارج قرميد أخضر و هي مفتوحة بـ 6 نوافذ لإدخال الضوء.

بَنَانِي كَيْ يُقِيمَ لَدَيَّ دِينَا ❖❖❖ الإِسْلاَمَ أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَا

أَبُو الحَسَنِ الذِي فِيهِ المَزَايَا ❖❖❖ تَفُوقُ النُّظُمَ بِالدَّمِ الثَّمِينَا(1)

قبل الوصول إلى الضريح نجد باب دار المقدم أو وكيل الضريح، و لعلنا لنا نمر إلى الضريح قبل التطرق إلى نقطة هامة، نود الإشارة إليها، لأنها في نظرنا قد لعبت دورا هاما خاصة و أنها أصبحت ظاهرة وثيقة الصلة بالضريح ألا و هي تواجد الحارس أو المقدم بجانب الضريح.

و يشير ***BARGES*** في كتابه حول سيدي أبي مدين إلى هذه النقطة فيبين لنا أن التبجيل المرتبط بذاكرة سيدي أبي مدين، جعل دائما من مراقبة ضريحه إمتيازا و هذا الشرف بقي و لوقت طويل شبه متوارث عن المرازقة (بني مرزوق) ...أحد هؤلاء الحراس المشهورين كان المسند أبو عبد الله محمد ابن مرزوق الذي لعب دورا سياسيا هاما خلال الحكم المريني (135-1336 = 751-736)[2].

و نحن لا نريد أن ندخل في متاهات دور المقدم، لأن هذا ليس من مجال تخصصنا إلا أننا أردنا، أن نبين للقارئ الكريم الخلفية التاريخية لحارس الضريح أو ما يعرف في عصرنا بالمقدم، فدوره أخذ نصيب من المال مقابل زيارة الضريح. و المهم في حديثنا هو أن التبجيل الذي حضي به سيدي أبي مدين لم يقلل من قيمة ضريحه [3] .

1- محمد بن رمضان شاوش : نفس المرجع السابق، 304-305-307.

2- BARGES : Ibid, P XXX - XXXI.

3- Le Site : Tlemcen, p 70-71

ثـانيـا : ضريـــحه

يحتل ضريح سيدي أبي مدين، مكانة كبيرة في عمارة مدينة تلمسان و يعتبر من أهم معالمها الأثرية الهامة و له مكانة عظيمة في قلوب سكانها الذين يعتزون به، و قد ارتبط تاريخ هذا الضريح إرتباطا وثيقا بتاريخ تلمسان إذ ظل ضريح هذا العابد الناسك مقبرة مفضلة و مأثورة عند الأجيال التي تعاقبت عبر الأزمان على تلمسان.[1]

و نورد في هذا السياق بعض الآراء حول الضريح الذي كان صيته ضائعا في تلمسان و خارجها :

يجزم ***Brosselard*** دون أدنى شك أن ضريح سيدي أبي مدين هو الأروع من نوعه الموجود في الجزائر، فمع أن ضريح سيدي عبد الرحمان الثعالبي مشهور و جدير بالزيارة، إلا أنه ينتمي إلى فن فقير و مرحلة ضعف، فكل مقارنة بين الضريحين تكاد تكون غير ممكنة و نفس الشيئ يقال دون تعسف على المعالم المختلفة لمدينة قسنطينة و التي تخلد أولياءها.

و يبقى ضريح سيدي أبي مدين دون منافس منذ سبعمائة عام إنه مقصد الحجاج، فهو يحمل إلى العباد جمع من الزوار من كافة البلدان المسلمة، مؤرخون، و رحالة و مسافرون، كل من كتب حول إفريقيا الشمالية يذكرونه في كتبهم : فإبن بطوطة العائد من رحلة بالمشرق عام **750** هـ مرّ بتلمسان و كانت زيارته الأولى إلى ضريح سيدي أبي مدين[2] (رضي الله عنه و نفعنا به). كما وصفه أبو محمد العبدري الذي توقف بتلمسان قادما من المغرب، و قاصد مكة في كتابه (الرحلة المغربية : أجلّ و أكثر الأضرحة تبجيلا الموجودة، ضريح العابد أبي مدين، وحيد عصره). [3]

1- Wiliam et George Marçais : les monuments..., p 230
2- Brosselard : Opsit. 84.
3- Ch. Brosselard : Ibid (N.4), p 84-85

كما يصفه سيد أحمد سقال قائلا : " ... و قبر الشيخ أبي مدين بالعباد معهود، مشهور و حوض للزائرين، رأيت من قبور الأولياء كثيرا، فما رأيت أنور من قبره، و لا أشرق و لا أظهر من سره و ليس الخبر كالعيان. [1]

و نقل عن المقري : " و قد زرته متين من المرات، و دعوت الله تعالى عنده بما أرجو قبوله[2]

لقد كان من عادة الحجاج العائدين من البقاع المقدسة أن يزوروا هذا الضريح قبل العودة إلى أهلهم و ذويهم.

أ- الوصف المعماري و الزخرفي للضريح :

يتكون ضريح سيدي أبي مدين من جزئين جليين : القبة التي تعد حرما للمعبد أين يوجد ضريح الولي. و من فناء أو ساحة أمامية (أنظر الشكل رقم 2) [3]

ندخل إلى الضريح بواسطة باب صغير معقود بعقد حذوي يبلغ طوله 1,88 م و عرضه 86 سم يحيط به إطار من البلاطات الخزفية المتعددة الأشكال و الألوان أين تحتل الزخرفة النباتية حيزا أكبر من الزخرفة الهندسية و هي تتمثل في شبكات من المراوح النخيلية و الزهرات الصغيرة المتعددة الألوان و يغلب على البلاطات الخزفية اللونين الأصفر، الأخضر الفاتح، و الأخضر الداكن و الأزرق و نلاحظ إختلاف أنواع البلاطات و ذلك راجع للترميمات العديدة و العشوائية في الكثير من الأحيان (أنظر الشكل رقم 3).

يكتنف المدخل عمودان خشبيان بدنهما دو قنوات تعلوهما تيجان كرنثية[4] و يحمل هذان العمودان عقد حذوي. ترتكز الشرعة التي تعلو المدخل على أوتاد خشبية، أما سقفها من الداخل فمقسم إلى ثلاث مربعات : المربعان الموجودان على اليمين و على اليسار مماثلان يحملان زخرفة

1- سيد أحمد سقال : نفس المرجع السابق، ص 23-24.

2- أحمد بن محمد المقري التلمساني ـ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ـ دار صادر بيروت المجلد السابع، ص 142.

3- BARGES : la vie de ..., P XXX-XXXI.

4- William et Georges Marçais : les monuments ..., P 239.

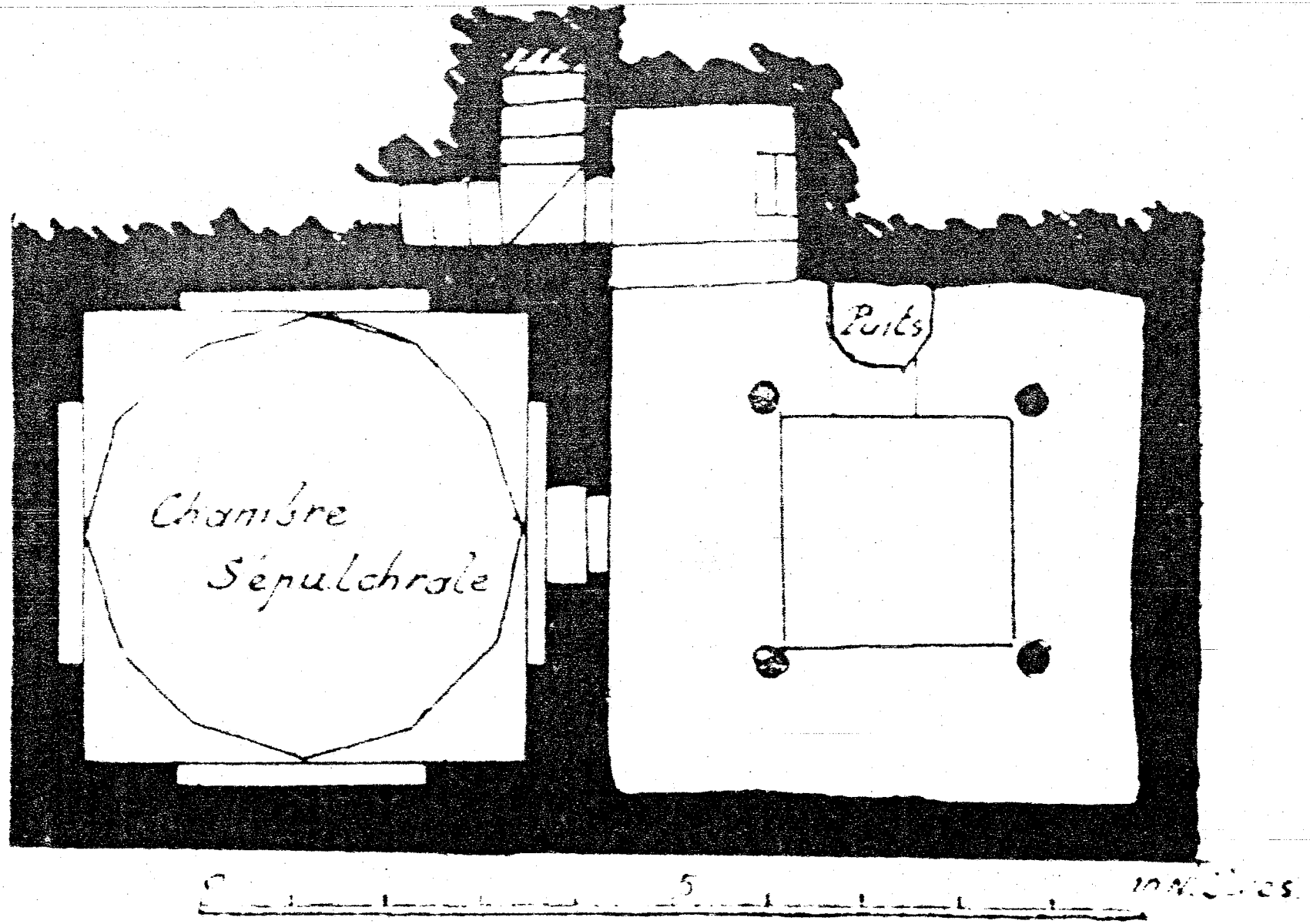

شكل رقم (02) : مخطط ضريح سيدي أبي مدين

WILLIAM ET George MARCAIS : Les monuments arabes de Tlemcen P 231

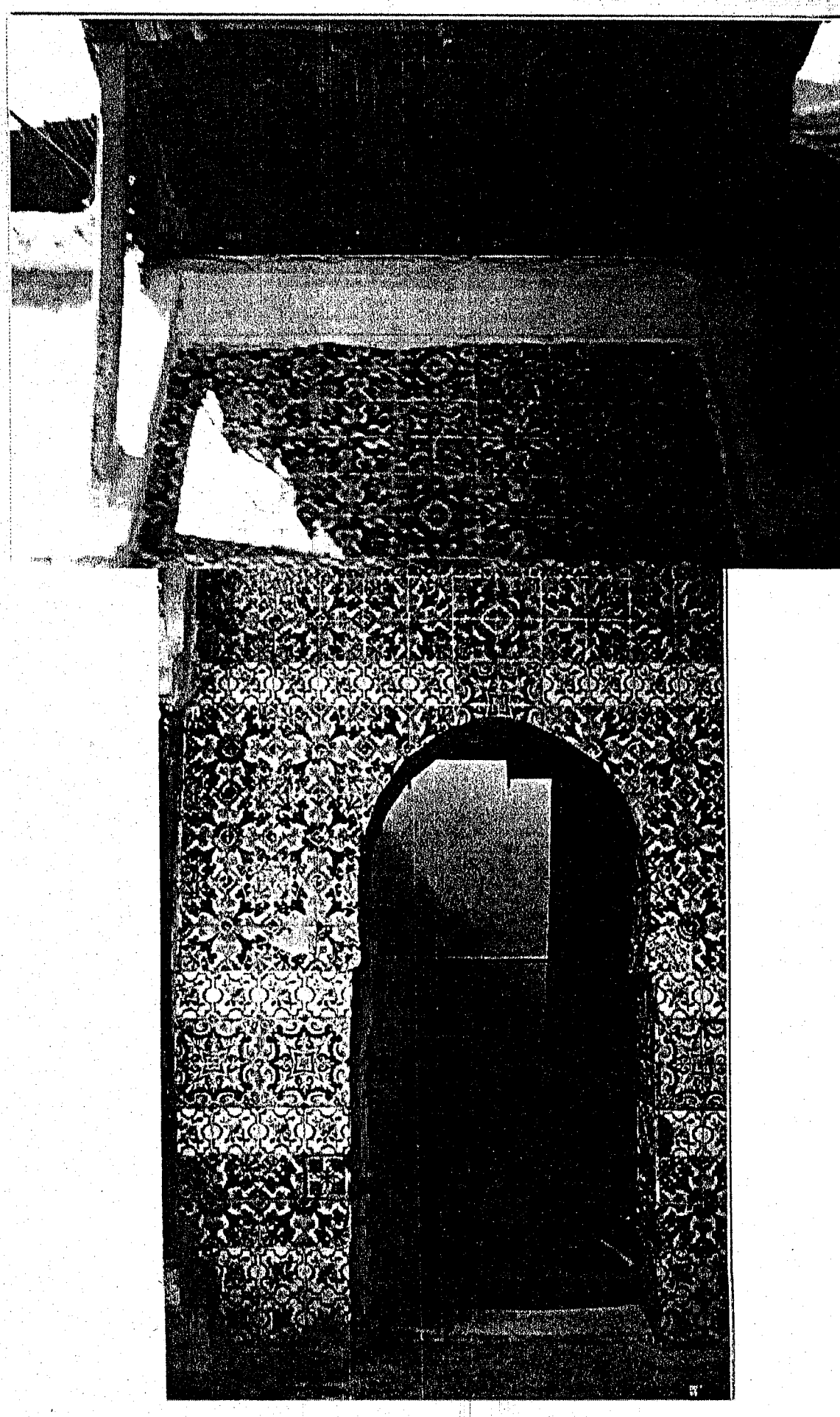

(لـــوحـــة رقـــم 03) : مـــدخل ضريـــح سيـــدي أبـــي مـــــدين

هندسية في كل زاوية من زوايا إطار المربع و يظهران بأرضية زرقاء داكنة تنتشر فيها زخارف نباتية متشابكة يتنوع لونها بين الأخضر الفاتح و الأزرق الداكن و هذه الزخارف أغلبها عبارة عن مراوح نخيلية و سيقان رقيقة متفرعة منها. تحتل مركز كل مربع نجمة ذات ثمانية رؤوس و هي ناجمة عن تقاطع مربعين تحتل مركزها زهرة ذات مركز دائري تظهر باللون الأبيض يتجلى جمال هذه النجمية في الألوان التي تزينها إذ أنها مرسومة على أرضية خضراء شفافة يحيط برؤوسها ثمانية الأزرق الداكن ثم الوردي أما الزهرة التي تحتل مركزها فيحيط بجوانبها اللون البرتقالي و يظهر وسطها بلون بنفسجي منغنيزي (أنظر الشكل رقم 3).

يتوسط هذان المربعان مربع أصغر حجما و تزينه سلسلة من النجميات الصغيرة ذات ثمانية رؤوس ذات لون برتقالي يميل إلى الأحمر تحيط بها من الجانبين زخارف نباتية تتنوع ألوانها من الأخضر و الوردي و هي مرسومة على قاعدة برتقالية. (أنظر الشكل رقم 3).

أسفل الشرعة مباشرة نلاحظ وجود زخرفة عبارة عن بائكة ذات عقود مفصصة ترتكز على أعمدة صغيرة. يعلو الشرعة من الخارج سقف هرمي الشكل مكسو بالقرميد الأخضر.

ننزل إلى الضريح بواسطة درج يتكون من 9 درجات (في حين أشار ***Marçais*** إلى وجود 8 درجات) ، لنجد صحنا ذو مخطط قريب من المربع يبلغ طوله 5,40 م و عرضه 5,20 م و هو يعد بمثابة قاعة إنتظار أين يرتاح الزوار قبل الدخول إلى الضريح و حسب ما تحكيه الجدّات فقد شهد هذا الصحن العديد من مجالس الذكر و الحديث للنسوة خاصة (أنظر الشكل رقم 5)، يحيط بالصحن من الجهات الأربعة رواق يرتكز على أعمدة من المرمر، تعلوها أو تتوجها تيجان من المرمر [1] (أنظر الشكل رقم 6).

1- Ch Brosselard : R.A, Numéro 4, p 83-84

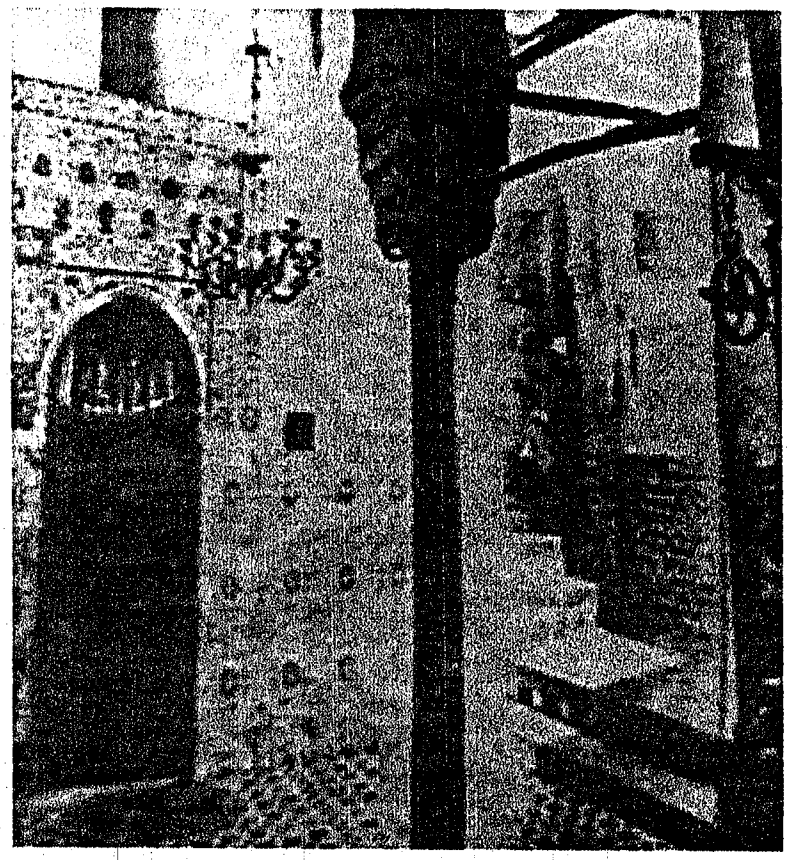

(لـــوحـــة رقـــم 05) : منظـــر لصحـــن و مدخل ضريـــح سيـدي أبي مديـــن في المـــاضي

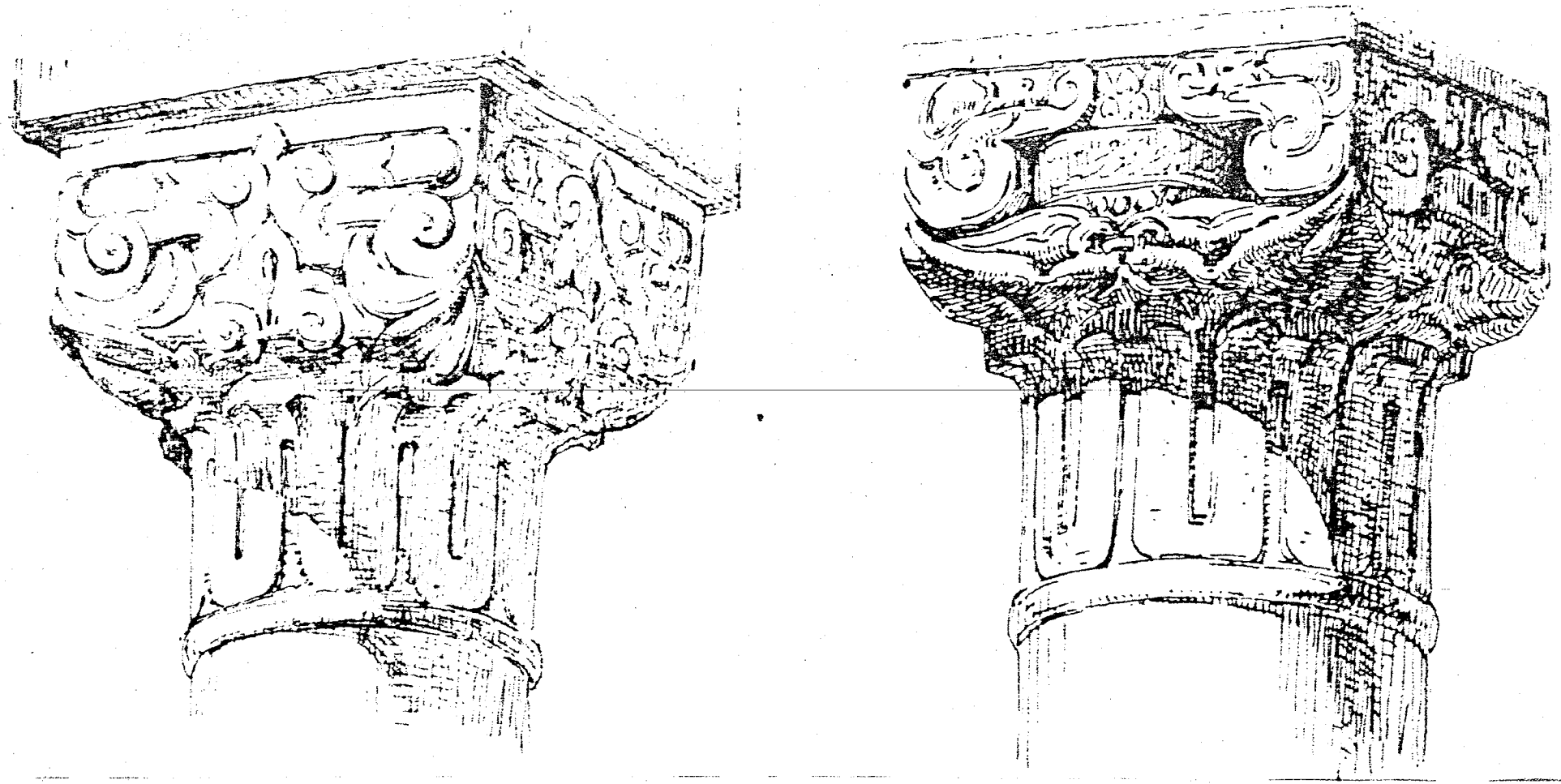

(الشكـــــل رقم 06): نـــماذج لتيجان من المرمـــر في صحن ضريح سيـدي أبي مديـن

(William et Georges Marçais : Les monuments ..., P 235-238)

تعلو هذه الأعمدة عقود نصف دائرية. هذه الأعمدة و تيجانها يظهر على حسب الشريط الكتابي المنقوش على إحدى تيجانها أنها استقدمت من قصر النصر الذي بناه **أبو الحسن** بالمنصورة. هذه التيجان مزينة حسب ثلاث نماذج مختلفة، فيهما جميعا نجد قطعة علوية مربعة محلاّت ببروز ضعيف و مكسوة في قاعدتها بمراوح نخيلية مقسّمة، تربطها إلى أزواج (اثنان، اثنان) رابطة متوسطة و قطعة أسطوانية أين تدور لفائف في القمة، إثنان من بينهما تحملان شريطين كتابيين و منحنيات هذه الأشرطة متمدّدة و لا تستمر على مختلف الواجهات من أجل تشكيل دائرة واحدة، ثلاثة من هذه التيجان تحمل لفائف حلزونية [1] "تاج الزاوية الجنوبية ـ الشرقية تصغير للتيجان الكبيرة لمسجد المنصورة" .

و نشير إلى أن التاجان الموجودان بصحن ضريح صحن سيدي أبي مدين يعودان إلى فترة زمنية بعيدة لكون عقود الرواق تؤكد ببصماتها إلى قدم البناية.[2] و تجب الإشارة إلى وجود قبة خشبية تعلو الصحن الذي هو في أصله مكشوف و لسنا ندري إن كانت هذه القبة موجودة من قبل لأننا لم نجد في المصادر و المراجع ما يشير إلى وجودها.

في الجهة الجنوبية الغربية للصحن يوجد البئر "و البئر حرزة من المرمر" [3] ساء حالها بسبب إحتكاك السلسلة. و لن نغادر الصحن حتى نشير إلى وجود شاهد قبور من الرخام عليها زخارف هندسية عبارة عن معينات و هذ الشواهد تخبأ الأرضية للوهلة الأولى. [4]

تحمل جدران الصحن في الأسفل تكسية من البلاطات الخزفية و هي متكونة من مربعات يبلغ طول ضلعها 0,13م البعض منها مزينة باللونين الأزرق على الأبيض المائي أو الوردي و تحمل هذه البلاطات أشكالا عبارة عن دائرة مركزية تحتل مركزها ثمان زهيرات مقفلة و تحيط

1- William et Georges Marçais : Les monuments ..., P 234-235-236.
2- Ch Brosselard : Opcit, N4, P 83-84
3- Rachid Bourouiba : l'Art Religieux Musulman en Algérie, Société Nationale d'Edition et de Diffusion 2 ème Edition, Alger 1983, P 279.
4- BARGES : La vie de Cidi ..., p XXX-XXXI.

بها أشكال هندسية مختلفة كما نجد شريطا دائريا أو دائرة تنطلق منها تفريعات نباتية و هي عبارة عن وريقة منبسطة تتناوب مع زهريتين مقفلتين (أنظر الشكل رقم 7)، في حين نجد بلاطة أخرى تحمل زخارف هندسية صفراء و خضراء بالتناوب، تنطلق من المركز زخارف نباتية ذات اللون الأبيض مرسومة على قاعدة لونها بنفسجي منغنيزي (أنظر الشكل رقم 7) كما نجد بلاطات خزفية أخرى متعددة الألوان كتلك التي تظهر باللون الأزرق و الأصفر فاللون الأزرق التركوازي يتدرج من الفاتح إلى الداكن و يتميز اللون الأصفر بريق و لمعان نادر. و يتكون التصميم العام للبلاطة من عنصر مركزي عبارة عن مربع متداخل غير منتظم تشع منه أوراق خماسية الفصوص و أوراق على هيئة أوراق الأكانتس مرسومة بأسلوب محور و حفظت هذه العناصر باللون الأبيض على أرضية كوبالتية رقيقة [1] كما نلاحظ أن الألوان المستعملة في البلاطات الخزفية تعد من مميزات البلاطات الخزفية المصنوعة بإيطاليا [2] و أخيرا نجد بلاطات خزفية تحمل شكل الزهرة المتفتحة التي تحمل أربعة زهيرات صغيرة (أنظر الشكل رقم 7).

أما البلاط الأرضي للصحن فيتكون من عناصر متباينة معظمها حديثة العهد. بعض الأنواع بسيطة و عادية، ففي الزاوية الشمالية الشرقية نجد مربعات صغيرة يتراوح طول أضلاعها بين 6 إلى 10 سم ذات البروز الخفيف في حالة رديئة بسبب الإحتكاك المتواصل مغطات بطلاء من البريق المعدني الأخضر الشفاف، أو أخضر داكن (أنظر الشكل رقم 8)، يبدوا لنا أنه من الصعب تحديد أصلها الدقيق، و يدل أسلوب الزخرفة النباتية المستخدم على انتمائها إلى الأسلوب التركي ... و نجد مثيلاتها في بعض أجزاء صحن جامع سيدي بومدين و مسجد أبي الحسن (المتحف) [3]

1- عبد العزيز محمود لعرج : الزليج في العمارة الإسلامية بالجزائر في العصر التركي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الطبعة الأولى الجزائر – 1990، ص 153.

2- William et Georges Marçais : les Monuments ..., p 234.

3- William et Georges Marçais : Ibid, p 236

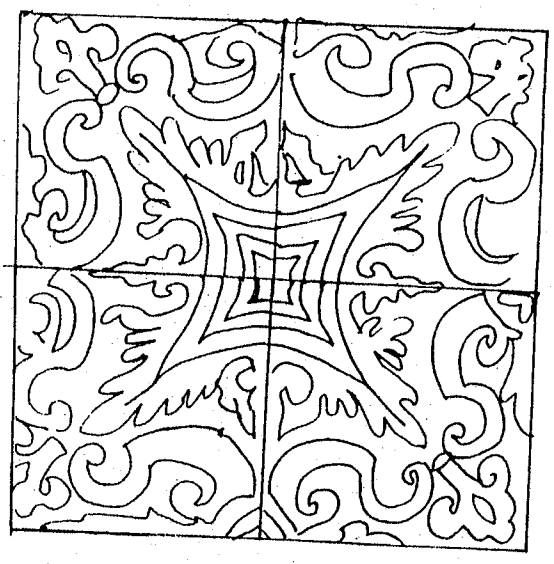

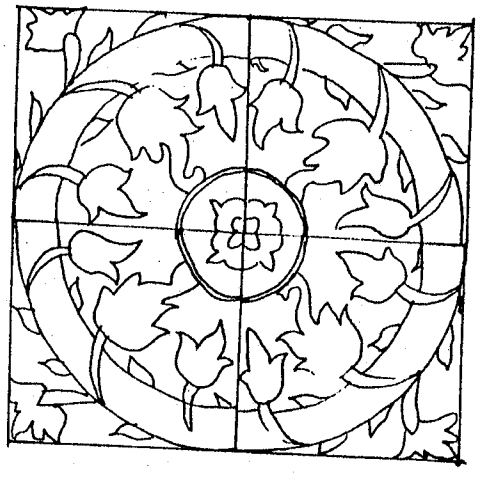

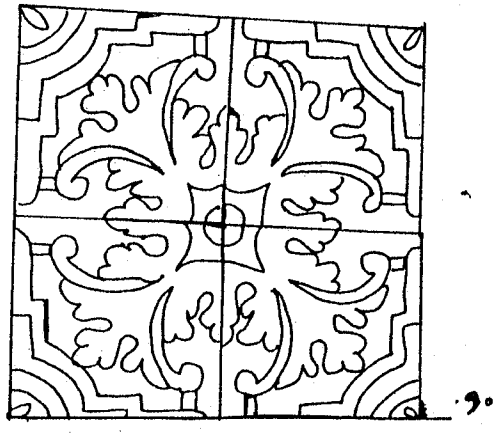

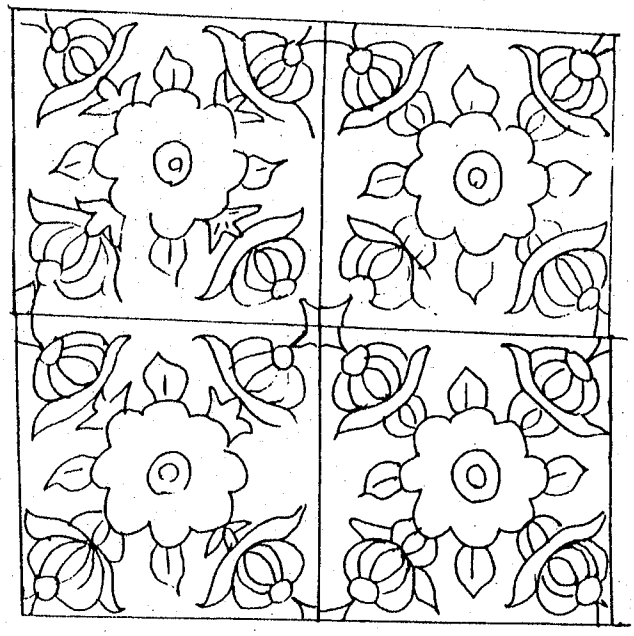

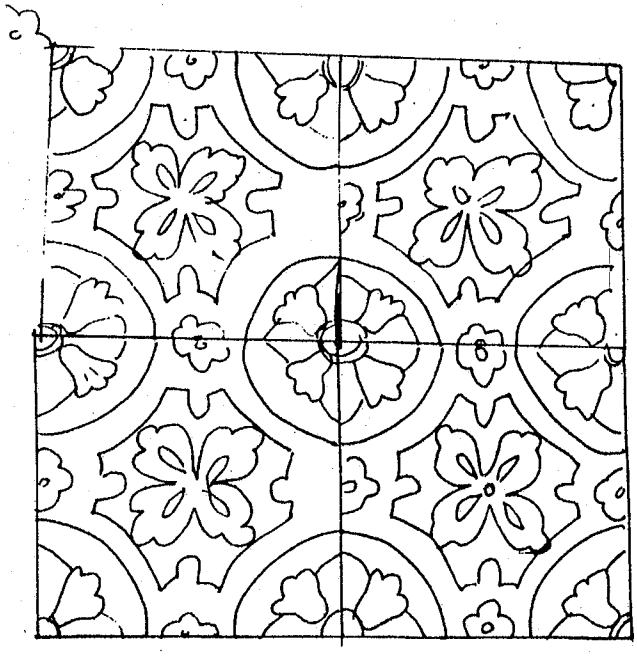

(الشكـــــل رقم 07): نـــماذج من البـلاطات الخزفيـــة لصحن ضريـح سيـدي أبي مـــدين

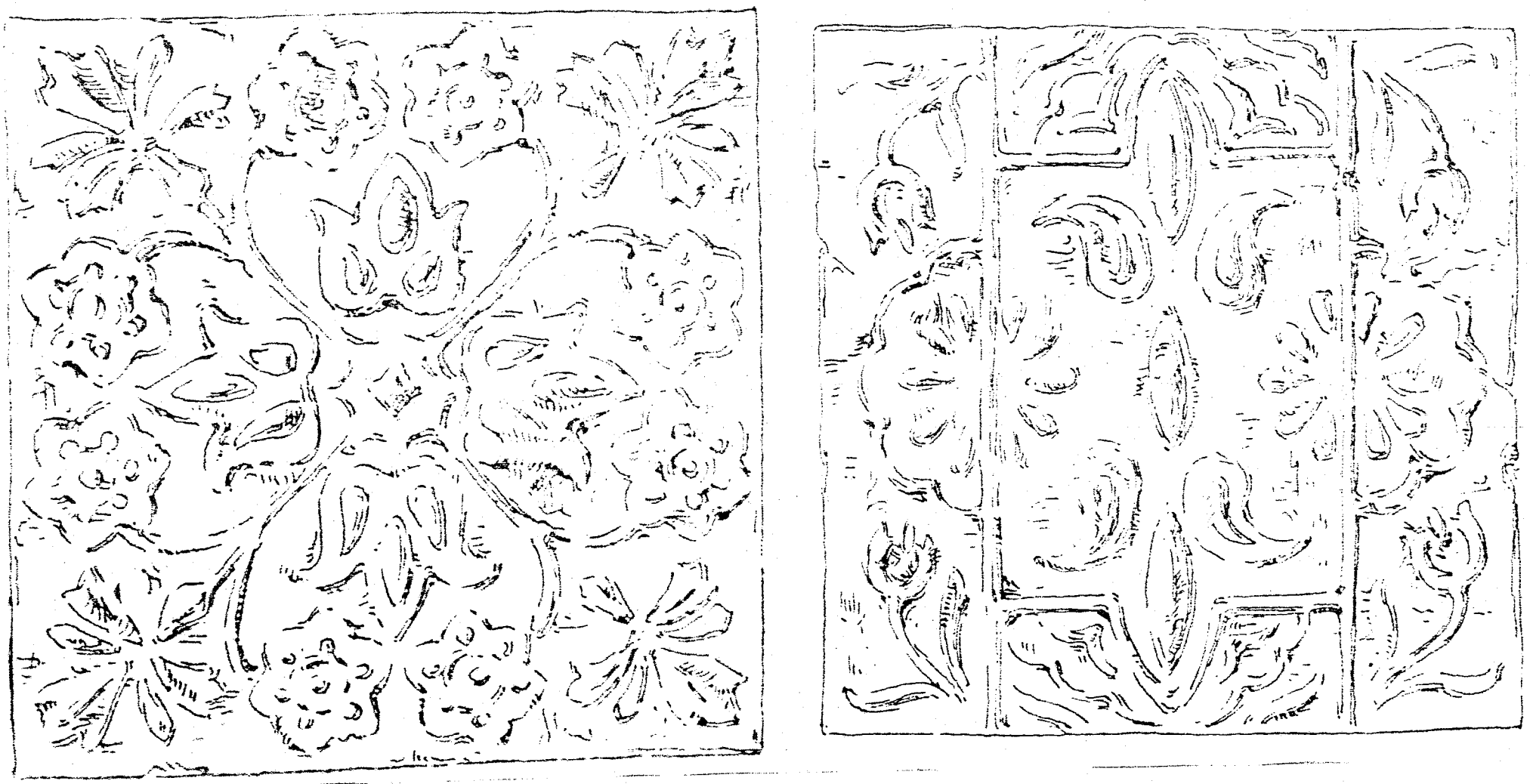

(الشكـــــل رقم 08) : نـماذج من الزخـارف الموجودة فوق البلاطات الخزفيـة بضريـح سيـدي أبي مديـن

(William et Georges Marçais : Les monuments ..., P 237)

و هكذا نلاحظ أن الضريح يعد وعاء صبت فيه عدة تيارات و اتجاهات فنية من زيانية، مرينية إلى تركية.

و غير بعيد عن الدعامة الشمالية الغربية شضية من بلاطة مربعة كبيرة محلاّت و مبرنقة بأسلوب غير واضح ساءت حالتها، أما فيما يخص الزخرفة الهندسية ذات الأشرطة البيضاء فتبدوا محددة لمضلعات ملونة بشتى الألوان و مزينة بزخارف (بعض المربعات ملونة بالأبيض و الأسود تشبه مربع الشطرنج).

بعض الشبكات تركت بدون تحلية زخرفية و الهدف من ذلك عدم إختلاط الزخارف. و لعل النقص الظاهر في التنفيذ الذي يأتي خاصة من عدم تساوي الإنصارية في الزخارف المستعملة، يظهر لنا هذه القطعة غاية في الأهمية و هذه القطعة ليست هي المثال الوحيد الذي يمكن أن نلاحظ فيه هذا التوجه نحو تعويض الفسيفساء الخزفية للعصور المزدهرة بالمربع المتعدد الألوان ذو الإستعمال البيسط.[1]

تجب الإشارة إلى أن ضريح سيدي أبي مدين بتعرضه لحريق قد تأثر بالغ الأثر، و أعيد ترميمه بالزخارف و الألوان مزودان ببلاطات من الفسيفساء الخزفية تحت أوامر محمد باي وهران سنة 1793. و هذا التاريخ يناضر عام ثمانية و مايتين و ألف[2] كما يظهر في الكتابة الأثرية التي سوف ترد في نهاية الوصف المعماري الترميمات قد قام بها مهندس تركي **الهاشمي بن صرمشيق** لا تشرف كثيرا هذه الحقبة حيث نلمس عدم قوة الفن المعاصر، و هو يقلد و لو من بعيد الفن القديم، فوق باب قاعة الدفن المرمم االذي يبلغ طوله 2,16 م و عرضه 1,50م نقرأ قراءة كتابة جصية محاطة بالأرابسك ذات قواعد ملونة، و يظهر من خلال الكتابة إسم الشاب التركي **صرمشيق** و هو فنان تركي ولد بتلمسان و عاش بالجزائر العاصمة، و نلاحظ أن إسم صرمشيق

1- William et Georges Marçais les monuments ....,p 236.
2- Ch Brosselard : Opsit, p 86-87.

موجود بمسجد عين البيضاء بمعسكر و لعله لأحد أفراد أسرة **الهاشمي ابن صرمشيق** إن لم يكن والده.

و الكتابة الموجودة بمسجد عين البيضاء هي كالآتي : إنتهى بحمد الله على يد المعلم "أحمد بن محمد بن حج أحسين بن صارمشق التلمساني رحمه الله.[1] و يعني إسم صرمشيق باللغة التركية إسم **نبتة متسلقة** تسمى بالعربة فاشرة أو الكرمة البيضاء، أما إسمها بالفارسية فهزرجشان، و يوجد معنى هذه النبتة في الكتب الطبية و قد شرح لنا إسمه من طرف جزائري مختص في المجال الطبي في القرن الماضي يدعى "عبد الرازق". [2]

و حسب ما علمنا لا تزال هناك عناصر من هذه العائلة الفنانة موجودة بتلمسان إلى يومنا هذا تشتغل بالصناعة التقليدية. [3]

أما فيما يخص طريقة الصّنع فهي عبارة عن تلطيخ بمادة عجينية غير منتظمة و سيئة الصنع، مستوحاة كثيرا من الزخرفة العربية، و هي عبارة عن صفوف من المعينات مماثلة للّتي نراها في المدرسة، و لكنها مزينة حسب الذوق التركي، و بعناصر نباتية. [4]

و قد شبه **صرمشيق** ما قام به من أعمال فنية بالدرر رغم أنها ليست بهذا المستوى من الرقي و الإتقان، كما أن ***Brosselard*** لم يفته أن يشير إلى جرأة هذا الشاب في كونه أشار إلى إسمه ليبقى شاهدا عليه للأجيال القادمة، مع أن كبار الفنانين في الحمراء لم يسجلوا أسمائهم على أعمالهم الفنية [5] كما يبين ***Brosselard*** أن كتابة محمد باي هي الوثيقة الوحيدة في علم الكتابات الأثرية التي ترتبط بتاريخ ضريح سيدي أبي مدين [6].

1- Dr Leclerc : Inscriptions arbes de Mascara (R.A, N° 4, P 42-46).

2- Ch Brosselard, opsit (N4), p 43-46

3- محمد بن رمضان شاوش : نفس المرجع السابق، ص 287.

4- William et Georges Marçais : Les monuments ..., p 234.

5- Ch. Brosselard : Opsit (Numéro 4), p 88.

و لعل ما لاحظه ***Brosselard*** عن كون الهاشمي ابن صرمشيق قد أشار إلى إسمه في كتابة ضريح سيدي أبي مدين نلاحظه أيضا في مسجد عين البيضاء بمعسكر حيث أشار إلى إسمه "أحمد بن محمد بن حج أحسين بن صارمشيق التلمساني" و كأن هذه العائلة الفنانة لا يفوتها الإشارة إلى إسمها ليبقى شاهدا عليها.

أمّا فيما يخص غرفة الضريح أو القبة فهي تتبع المخططات أو التصميمات المتبعة في المشرق و المغرب و هي عبارة عن غرفة ذات مخطط مربع الشكل تقريبا يبلغ طولها 6,50 م و عرضها 6,30 م ، و ندخل إليها من الصحن، و تعلو هذه الغرفة قبة[1]

و المهم أن غرفة الضريح، تبرز لنا نماذج معمارية رائعة من حيث التناسق في الأشكال و الإبداع في النحوت، زيادة على كونها الغرفة المقدسة أين يرقد جثمان الشيخ الولي سيدي أبي مدين. حنيات معقودة بعقد مخموس تحتل الجدران الداخلية الأربعة لقاعة الدفن، و هذه الحنيات مفتوحة في أجزائها العلوية بشمسيات تنتهي بقوس مزدوجة و مزينة بشبكة هندسية من الجص. في حين تحتل شبكة من الزخارف الجصية الهندسية جدران الحنايا (يحيط بالحنايا الجدارية لضريح سيدي أبي مدين شريط كتابي سوف يرد نصه في آخر الوصف المعماري للضريح).

و في مستوى أعلى توجد نوافذ أصغر حجما معقودة بعقد نصف دائري تدخل الضوء عن طريق زجاجيات ملونة تخفف الضوء و تجعل إنعكاسه خفيفا على العين.[2]

و لعل هذه ميزة فعلية في الأضرحة، خفوت الضوء و انتشار الظلام، سيمة نلاحظها على جميع الأضرحة و هذا ربما من أجل إضفاء طابع الهيبة و القدسية على المكان.

يحيط بجدران غرفة الدفن المربعة شريط قرآني مكتوب بالخط المغربي سوف يرد نصه في نهاية هذا الوصف المعماري كما تعلو هذه الكتابة أربعة أنصاف قباب متقاطعة يتخلف عن

1- BARGES : La vie de Cidi ..., PXXXI-XXXII
2- Ch. Brosselard : (Opcit N 4), P 84-85

تعارض ضلوعها جوافات مثلثة تمكن من الإنتقال من المربع إلى المضلع و تحتل جدران غرفة الدفن تحلية جدارية جصية و هي عبارة عن معينات مزخرفة تحتلها زخرفة كتابية و هندسية بالتناوب أما الزخفة الكتابية فهي عبارة عن كلمتي : " **لـه المـلك** " و تظهر هذان الكلمتان أيضا في معينات موازية معكوسة.

القبة التي تغطي هذه الغرفة قبة نصف كروية يبلغ قطرها 4,30م و ترتكز على 12 لوحة مزينة بأربع و عشرين عقدا نصف دائري، منها تنطلق سلسلة التشبيكات الهندسية تنتهي بنجمة ذات أربعا و عشرين رأسا.[1] و النجمة ذات الأربع و العشرين رأسا الذي يحتل المركز أو الوسط، هي ميزة من مميزات الزخرفة في الحقبة المرينية، التفريعات النباتية التي تكون زخرفة القبة تحدد أربعا و عشرين أنصاف مغازل (تتسع ثم تضيق) محلات بزخرفة نباتية ترتكز على أربعا و عشرين عقدا حذويّا مزين بغصينات و مراوح نخيلية [2] (أنظر الشكل رقم 9).

و قد استعملت في زخرفة هذه القبة ألوان و أساليب متعددة فهي مزينة بمضلعات مطلية (مدهونة) بألوان مختلفة : المضلعات الكبيرة مزينة بنماذج ذات اللون الوردي و الأبيض و الأحمر و الأصفر و البرتقالي و الأزرق و الأخضر، زخارف زجاجية البعض منها، زرقاء و خضراء فاتحة اللون و حمراء يظهر أنها ملونة في كتلها أما الآخرى فلونها أقل ضياء، برتقالي و أحمر داكن، استعملا في النوافذ. [3]

أما من الخارج فتتميز القبة بسقف دو أربعة أرداف هرمي الشكل مغطى بقرميد أخضر.

تقوم ألواح خشبية على إرتفاع مترين بتقسيم قاعة الدفن عرضيا إلى قسمين، تنطلق هذه الألواح من جهة النصف الجنوبي إلى الشمالي، مقسمة المبنى إلى مقصورتين متساويتين تقريبا. هذه الألواح المحلات بنقوش ذات الطابع الجنائزي، تكبر و تصغر في الوسط على سكل قوس قوطية، في

1- William et Georges Marçais : les monuments .... , p 232-234
2- Rachid Bourouiba : l'Art Religieux ..., p 279
3- William et Georges Marçais : Ibid , p 234.

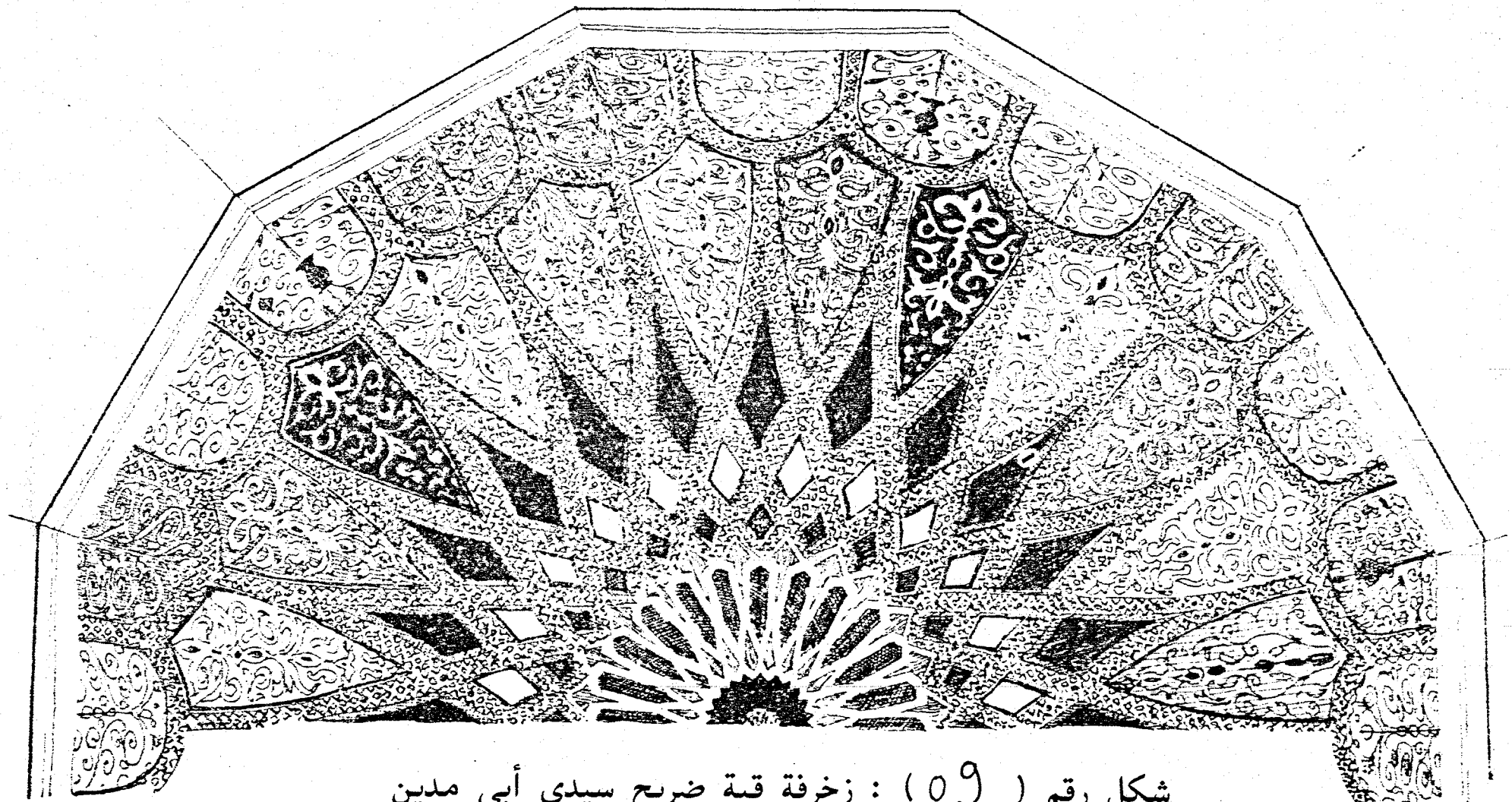

شكل رقم (٥٩) : زخرفة قبة ضريح سيدي أبي مدين

WILLIAM ET George MARCAIS : Les monuments arabes de Tlemcen P 233

أسفل الإفريز سواء في الجوانب العلوية أو السفلية يتمركز قضيب معلق عليه حوالي عشرين من بيض النعام على شكل تحلية و كذلك باقات من قرنفل الهند.[1]

أما وراء الغرفة فترتفع بعظمة تسعة أعلام من الحرير ذات اللون الأخضر و الأحمر، إلى جانبها تحلية عبارة عن زخرفة ذهبية تمثل عمامة. على جزء اللوح الذي يرتفع على شكل قوس قوطية، نرى ورقة كبيرة مربعة مسطر عليها بالعربية بمداد متعدد الألوان الكتابة التالية :

لا إلاه إلا ا لله، محمد رسول ا لله،

عبد ربه العربي بن النصر

أعانه ا لله

و بجانب هذه الكتابة نرى واحدة أخرى أقل حجما و مكتوبة بالمداد الأسود :

بسم ا لله الرحمان الرحيم لا إلاه إلا ا لله محمد رسول ا لله.[2]

و أمام هذه النقوش الخشبية يوجد قدح زجاجي معلق بواسطة سلك حديدي يستعمل كالفانوس أو الثريا. تكسو البلاطات الخزفية أسفل جدارن المقصورة الأولى حتى إرتفاع المترين، تتكون من مربعات يبلغ طول ضلعها 0,13 م البعض منها مزينة باللونين الأزرق على الأبيض المائي إلى الوردي، أما الأخرى فمزينة بألوان متعددة أين يتمازج الأزرق و البنفسجي المنغنيزي و الأخضر النحاسي و الأصفر، و هي من مميزات البلاطات الخزفية المصنوعة بإيطاليا [3] و قد إختفت هذه البلاطات تماما من جدران الضريح. أما أرضية هذه الغرفة فمبلطة بمربعات من البلاطات الخزفية و مغطات بزرابي غنية.

ندخل إلى المقصورة الثانية بواسطة باب خشبي ذو عقد نصف دائري يتوسط اللوح الخشبي (و تعتبر هذه المقصورة هي الجزء المقدس من المبنى) حيث يرقد منذ سبعمائة عام سيدي أبي مدين

1- Bargés : la vie de ..., P XXXI, P XXXII.
2- Bargés : la vie de Cidi ..., p XXXII
3- William et Georges Marçais : Les monuments ..., p 234

في ضريح يأتي المسلمون لزيارته من كل أنحاء العالم [1] لنجد التابوت الخشبي بعظمة وهيبة لا متناهيتين و هو مكسوّ "بسجّاد دمشقي" أحمر رائعا يتدلّى حتى الأرض (أنظر الشكل رقم **10**) " ضريح سيدي أبي مدين بعد تعرضه للحرق في السنوات الأخيرة ".

و قد كان من عادة الحجاج العائدين و الأغنياء و الفقراء إثراء الضريح بأقمشة حريرية و سجاجيد رائعة كدليل على حبهم للولي و إمتنانهم له.

أزهار يابسة و ذابلة مرشوشة و مبعثرة فوق كل جوانب الضريح أما في أعلى النعش فقد علّق فانوس من الحديد الأبيض (***Fer blanc***) تحلية بسيطة تميز صنعه و هذا يتناقض مع غنى السجاد و الأعلام الرائعة من الحرير ذات الألوان الإسلامية التي تنتصب بجانب الضريح [2] .

في أقصى المدفن تستند على الجدار مرآة متوسطة الحجم، رفقة شمعتان ذات اللون الأبيض تتدليان من المسمار المعلقتان عليه و يضاء هذا الجانب من المبنى بمنور يوجد في وسط الحائط الشرقي. [3]

و يجب الإشارة إلى وجود محراب صغير يقابل الثابوت و هذا حسب ما روي لنا و لكننا لم نشاهده بأعيننا و بجوار ضريح أبي مدين و تابوته، ينتصب تابوت سيدي عبد السلام التونسي(*) رحمه الله، و هو يزار بعد أبي مدين رضي الله عنه.

و بالقرب من هذين القبرين في الروضة دفن السعيد الموحدي بأمر من يغمراسن و قد سبق الحديث عن هذا في سياق حديثنا عن الضريح، و لا بد من الإشارة إلى وجود قبور كثيرة،

1- Bargés : La vie de Cidi ... , P XXXII, XXXIII.
2- Bargés : Ibid, p XXXII-XXXIII
3- Bargés : Ibid , P XXXIII.

* - عبد السلام التونسي : عالم زاهد لا تأخذه في الحق لومة لائم يلتبس الصوف و يأكل الشعير من حرث يده، إلى أن مات رحمه الله قبل سنة تسع و ثمانين و خمسا مئة 589هـ- 1143م (عبد الحميد حميدو : نفس المرجع السابق، ص 36).

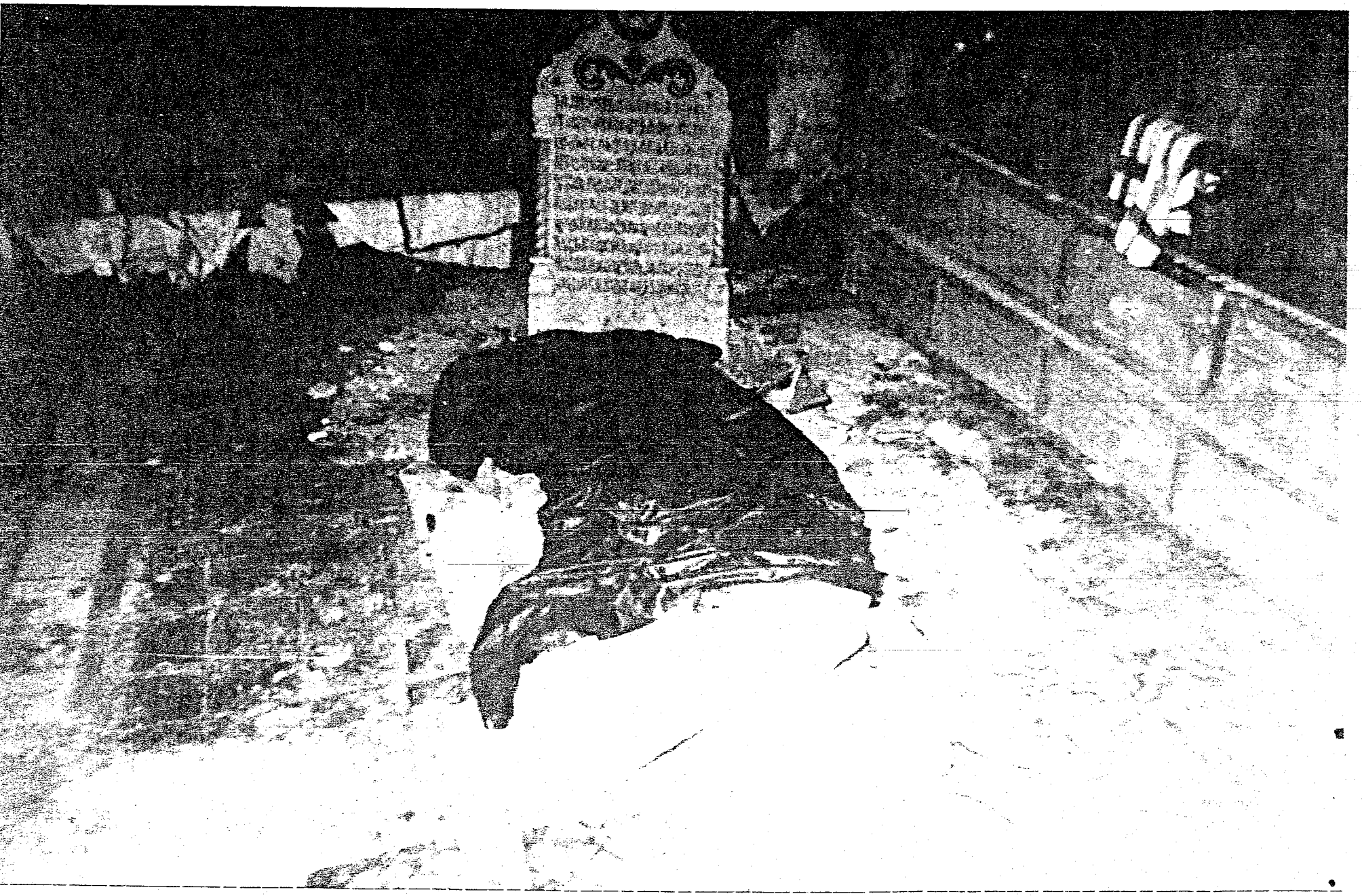

(لـــوحـــة رقـــم 10) : ضريـــح سيـــدي أبـــي مـــدين بعـد تعرضـــه للحريـــق سنـــة 1994.

شخصيات استحقت أن تدفن بجانب ضريح الأندلسي أبي مدين ملوك و علماء، دراويش موجودون جنبا لجنب.[1]

و لعلنا لن نغادر الضريح، دون أن نقدم هذه الكتابة الأخيرة، التي كان يبدوا لنا تجاوزها نظرا لتميزها بالحداثة الكبيرة، و لكن أردنا تبيينها لإعطاء فكرة عن الأسلوب الجوهري الحالي عند العرب، توجد هذه الكتابة في المدفن على بعد خطوات إلى الأمام من تابوت الولي أبي مدين، حجر متواضع، ذو الشكل البيضوي و الذي كتب عليها بفواصل غير متساوية، و دون إحترام كبير للخط المستقيم، حروف مغربية غائرة في شاهد القبر (و سوف يرد نص هذه الكتابة ضمن الزخرفة الكتابية)

و تجدر الإشارة إلى أن عددا من الوجهاء و الشخصيات في الدولة فضلت الدفن بجوار أضرحة أولياء الصالحين "نذكر من بين هذه الأضرحة التي استقبلت عددا من الشخصيات، ضريح سيدي أبي مدين و سيدي عباد بالعباد العلوي[2]

في النهاية نود أن نشير إلى أن ضريح سيدي أبي مدين تعرض لحريق تعسفي في شهر نوفمبر من سنة 1994، قضى على جل معالمه و قد أوردنا صورا حية عن مخلفات هذا الحريق و مدى أثره البالغ على جل العناصر المعمارية إذ أن هذه الألواح الخشبية لم يبقى لها أي أثر كما نود أن نشير إلى أن الضريح يعرف في الأشهر الأخيرة عملية ترميم و إصلاح سوف تعيد إليه و لو القليلة من معالمه الجميلة و الأصيلة و هي مبادرة حسنة و إلتفاتة طيبة من السلطات المعنية أتمنى أن تعم كل الأضرحة.

1- Barges : Vie du ....., p XXX-XXXI

2- سيدي محمد النقادي : التصميم العمراني لمدينة تلمسان و دلالته الإجتماعية، رسالة لنيل درجة الماجستير معهد الثقافة الشعبية، جامعة تلمسان، سنة 1991، ص 173

ب ـ الزخرفة الكتابية:

• يوجد في الجهة الجنوبية الشرقية للصحن باب يؤدي إلى قاعة الدفن، و يحمل باب قاعة دفن ضريح سيدي أبي مدين الكتابات الأثرية التالية :

1) في السطر العمودي الخارجي الأيمن : **الحمد لله أمر بتنميق هذه.**

2) في السطر الأفقي الأعلى : **الروضة المباركة المشتملة على ضريح.**

3) السطر العمودي الخارجي الأيسر : **الشيخ سيدي أبي مدين أدركنا ا لله برضاه.**

4) السطر العمودي الداخلي الأيمن : **الأمير عبد ا لله.**

5) السطر الأفقي الأسفل : **السيد محمد باي أيده ا لله و نصر و جعل**

6) السطر العمودي الداخلي الأيسر : **الجنة منزله عام ثمانية و مئتين و ألف**

7) الإطار المربع الأعلى يمينا : **أنظر إلى الدار الأنيق**

8) الإطار المربع الأعلى يسارا : **تراه في جيد شريف**

9) الإطار المربع الأسفل يمينا : **نظمة فتى عشيق.**

10) الإطار المربع الأسفل يسارا : **الهاشمي ابن صرمشيق.**

و يرجع تاريخ هذه الكتابة إلى سنة 1793/1208 و تحمل إسم "محمد باي وهران" (*) (1793/1208-1779-1193)[1]

---

*- محمد باي وهران : محمد باي ابن عثمان باي رحمه ا لله، أنشأ عدة مبان في عهده و يدل على ذلك الكتابة الموجود في مسجد عين البيضاء بمعسكر : أما بعد أمر بتشييد هذا الجامع المبارك خليفة السلطان السيد "محمد باي بن عثمان".

و في كتابة أخرى نجد : هذا البيان المحبسات السلطان ابن سلطان السيد « محمد باي ابن سيد عثمان" رحمه ا لله على المجمع الأعظم الكائن في حومة سيدي علي بن محمد الذي أنشأه و شيده مع مدرسة الحايطة و دار الوضوء الغربية منه مع الجبانة المحايدة له أيضا. كما أمر "محمد باي" عملية الترميم التي قام بها صرمشيق في تلمسان. (ينظر *Dr : Leclère, Inscription Arabes de Masc̣ara : RA, N° 04, P 42-46*).

1- رشيد بورويبة : الكتابات الأثرية في المساجد الجزائرية، ترجمة "ابراهيم شبوح"، التاريخ و الحضارة 2، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع الجزائر SNED 1973-1399، ص 90-91-92.

• و نورد هنا أيضا نص الإطار الكتابي للحنية الجنوبية بضريح سيدي أبي مدين .

* **الجـدار الجنوبي الجامة اليمنى** : إستطعنا أن نستقرأ كتابة بالخط الكوفي هذا نصها :

﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾

* **الجـدار الجنوبي الجامة الأفقية العليا** :

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدْ اللَّهُ الصَّمَدْ لَمْ يَلِدْ وَ لَمْ يُولَدْ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدْ﴾

* **الجـدار الجنوبي الجامة اليسرى** :

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدْ اللَّهُ الصَّمَدْ لَمْ يَلِدْ وَ لَمْ يُولَدْ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدْ[1] ﴾

كما استطعنا أن نقرأ نص الحنية المقابلة للمدخل و هو نفسه النص القرآني موجـود بالحنية السابقة أي صورة الإخلاص و أغلب الظن أن الحنية الثالثة تحمل نفس النص القرآني و قـد استحال علينا قراءتها نظرا لعملية الترميم.

• هذا نص الـشريط القرآني المحيط بالجدران الأربعة لقاعة الدفن :

* **الجـدار الجنوبي** : ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ. إِنَّ الذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ لاَ يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَ هُمْ﴾

* **الجـدار الشرقي** : ﴿فِي مَا إِشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ لاَ يَحْزُنُهُمْ الفَزَعُ الأَكْبَرُ وَ تَتَلَقَّاهُمُ المَلاَئِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾

* **الجـدار الشمالي** : ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِجِّلِ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْـدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ وَ لَقَدْ﴾

1- سورة الإخلاص: المصحف الشريف، دار الكتب العلمية بيروت.

* **الجدار الغربي** : ﴿ كَتَبْنَا فِي الزَّابُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاَغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ[1] ﴾

هذا نص الكتابة المتواجدة في قاعة الدفن بضريح سيدي أبي مدين على بعد خطوات إلى الأمام من تابوت الولي الصالح :

بسم ا لله الرحمان الرحيم و صلى ا لله على سيدنا محمد و آله و صحبه

و سلم تسليما الحمد له رب العالمين و العقبة للمتقين قل يا

عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة ا لله إن ا لله

يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم يا نفسي لا تقنطي من زلة عظيمة إن الكبار في الغفران كالهم أما بعد

فهذا قبر الفقيه البركة الشريف المنيف المرحوم بكرم ا لله

تعالى السيد محمد بن عبد ا لله بن علي بن عبد ا لله بن الولي الصالح

البركة السيد الجيلاني بن يحي الحسني قد مات قتيلا قرب

فجر يوم الجمعة قي ثاني عشر محرم الحرام فاتح ثلاثة و سبعين

و مايتين و ألف.

و يفهم من الكتابة أن هذا القبر لصاحبه آغا محمد بن عبد ا لله الذي قتل بطريق تلمسان في ليلة 11 إلى 12 سبتمبر 1856. و هذا الرّجل من عائلة كان أجدادها من الأولياء فمن أجداده الولي سيدي يحي المعروف بمنطقة أولاد نهار.[2]

1- الآيات 100-106- من سورة الأنبياء.

2- Ch Brosselard : Opsit N° 4, 91-92.

﴿ ضريح سيدي الحلوي ﴾

أولا : حياته

لا تزال مدينة تلمسان تفخر باحتظان جثمان رجل لعب في الماضي دورا لا يستهان به، في تعليم شعب تلمسان البسيط و ترقية أفكاره و أخلاقه بوسائله البسيطة رغم عظمة الرّجل و سعة علمه. إنّه من أولئك الرّجال الذين يقول فيهم الرّسول صلى ا لله عليه و سلم حينما سئل عن أولياء ا لله تعالى فقال: ﴿**هم الذين يذكر ا لله تعالى برؤيتهم**﴾.

إنّ الشخصية التي سوف ترد في سياق حديثنا هي شخصية الشيخ أبو عبد ا لله الشوذي الحلوي. فمن تكون هذه الشخصية ؟ و كيف قادتها الأقدار إلى تلمسان؟ و لم استحقت التكريم بانتصاب مسجد يحمل إسم الشيخ الحلوي إلى يومنا الحالي ؟.

عرف بإسم أمام العارفين و تاج الأولياء المحققين و سيد الصالحين، نزيل تلمسان و هو من أكابر العلماء العبّاد العارفين با لله.[1]

و لعلّ لقب "الحلوي" قد اتصل به فيما بعد حينما قدم إلى تلمسان، فإسمه الحقيقي أبو عبد ا لله الشوذي. و قد كان أندلسيا قحّا من أشبيلية، و مع أننا لا نعلم الكثير عن طفولته وشبابه و لا حتى عن بداياته الأولى في هذا العالم، إلاّ أننا يمكن أن نلاحظ أنّه درس و أنه كان أستاذا في العلوم القرآنية[2].

1- ابن مريم : نفس المصدر السابق، ص 68.

2- Ch Brosscard : Opcit, p 161.

و يجمع المؤرخون على أن الوليّ "الشوذي" كان قاضيا باشبيلية أين نشأ و لعلّ هذه المهنة تدل على درايته المتينة في علم التشريع[1].

و السؤال الذي يطرح بشدة حول هذه الشخصيّة المتميزة يتعلق بأسباب تركه مهنة القضاء و الخروج من إشبيلية؟

لقد ترك الحلوي كلّ متاع الدّنيا الزائل من مال و ثروة و جاه، و خرج من إشبيلية تاركا المال و الجاه و الأهل و الأصدقاء و مهنة القضاء و الكتب التي لطالما أحبّها باترا بذلك كلّ ما كان يربطه بالعالم.[2]

لبس الصوف بعد الحرير و افترش الأرض كسرير عوض السرير المريح الناعم، و خرج مسافرا إلى المغرب و إلى تلمسان في أوائل القرن الثالث عشر [3] باع كل ما يملك من أملاك و تصدق بأموالها على الفقراء و المعوزين، كما خلع عنه عباءة القضاء و ملابس الحرير، معوضا إياها بملابس رثة، آخذا العصا، و قطع البحر، دون الندّم و لو للحظة على هذا المكان الرّائع من الأندلس الذي سوف يغادره بدون رجعة. و جاء إلى تلمسان حوالي سنة **665هـ** أي **1266** م في عهد حكم يغمراسن بن زيان [4] و يصل التائه، الزاهد، الصوفي إلى تلمسان ذات صباح في ثيابه الغريبة البالية و قد حسبه الناس مجنونا و يستقر بها.

و عن مجيئه إلى تلمسان و استقراره فيها يقول ابن المرآة (*) "... تطوفت يوما بتلمسان فرأيت هذا الشيخ بالسوق و بيده طبق من عود فيه الحلواء للصبيان الصغار فتفرست فيه مخائل القوم فاتبعته.. يدور و يشطح و ربما أنشد مقطعات متفقات الألفاظ في معنى المحبّة فلم أشك أنه

1- تلمسان- سلسلة الفن و الثقافة، ص 47.

2- تلمسان، سلسلة الفن و الثقافة ، ص 47.

3- Ch Brossecard : opsit, p 162-163.

4- Brosselard : Ibid,p 163.

* - هو الإمام أبو إسحاق إبراهيم بن يوسف بن محمد بن دهان الأوسي (ينظر إبن مريم :نفس المصدر السابق، ص 68.

من الصالحين ثم أخذ شيئا من ثمن حلوائه فاشترى به كسرة خبز سميد فتصدق بها على يتيم ذي أطمار بعد علمه بحاجته" [1].

لقد انتهج الحلوي لشدّة ذكائه و فطنته أسهل الوسائل و أقربها للشعب من أجل إيصال رسالته و نشر أفكاره إذ ظهر بمظهر المهرّج المرح فتسارع الأطفال إليه منبهرين بحلوياته و بحركاته و من شدة حبهم له أصبحو يلقبونه ببابا الحلوى. و لكن هذا الأخير و عندما كان يرى الناس مجتمعة حوله يتسنح الفرصة فيغير اللّغة و يضع طبق حلوائه جانبا و يبدأ في حديث حول أصول الدين و الأخلاق، و مصير الإنسان و حول كلّ النقاط العميقة البعيدة المعنى في العلم، لقد كان يقدّم حديثه بطريقة معبّرة و ممتعة يسحر بها سامعوه و يدهشهم[2].

لقد كان أبو عبد الله الشوذي متمكنا في العلوم التشريعية و حينما كان يسترسل في حديثه عن العقيدة و حول أصولها و أسرارها، يبهر سامعيه إذ كيف لهذا الرجل البسيط في نظرهم، المتسول التائه أن يلمّ بكلّ هذه المعارف الواسعة و العميقة، لقد كان من عباده الله الذين اختارهم و من علمهم بعلمه في الأرض.

و لم يمض وقت طويل حتى جزم الناس على أنّه ولي من الأولياء الصالحين و لم يبقى الحديث سوى حول كراماته المعجزة[3].

أ - كراماته :

يورد ابن مريم حول كرامات الشّيخ حادثة غريبة على لسان الإمام أبو إسحاق إبراهيم بن يوسف بن محمد بن دهان الأوسي المعروف بابن مرة: "... و كان ذلك برمضان فلما جاء الفطر ابتعت سميدا و عسلا و قلت لعمي إصنعي لي مشهدة يفطرها عندي رجل من الصالحين، ففعلت

1- ابن مريم: نفس المصدر السابق، ص 68.

2- Brossecard : opsit, p 164-165

3- Brossecard : Ibid, p 164-165

فالتمسته في الناس بعد صلاة العيد فلم أجده فحوقلت و قلت في نفسي اللهم بحقه عليك اجمع بيني و بينه في هذه الساعة فإذا هو عن يميني فانظم إليّ و قال صنعت عمتك المشهدة فقلت نعم يا سيدي، فقال قم بنا إلى موضع نأكل هذه المشهدة الحاضرة و حينئذ نمشي إلى دار عمتك فقمت معه إلى خارج المصلى فأخرج من تحته صحيفة مغطاة بمنديل نظيف و كشطة فإذا هو فيه مشهدة لم يرى الراؤون مثلها و طيبتها امرأة في الدنيا. فأكلنا و توجهنا إلى دار عمتي فأخرجت مشهدتها فوجدناها لم تشبه الأولى في شيء فأكلنا منها قليلا.[1]

و هكذا تتلمذ هذا الراوي على يد الشيخ و عند قدومه على الحلوي في المسجد، طلب منه هذا الأخير قراءة كتاب الله العزيز فيقول أبو إسحاق: "... و قرأ بسم الله الرحمان الرحيم فتكلّم في فضلها عشرة أيام ثم قرأت عليه حديث رسول الله صلى الله عليه و سلّم ثم شيئا من الأدب[2]

و سوف نورد في سياق حديثنا حادثة وفاته التي تعدّ بحق احدى الكرامات الرائعة التي حباه الله بها من أجل إظهار برائته و نصرته على من ظلمه.

و لعلّنا سوف نواصل حديثنا عن علمه و عن مسيرة حياته بتلمسان، فقد ذاع صيته بها حتى أصبح الحلوي على ألسنة العامة و الخاصة فقد كانوا يقولون عنه "لقد أودع الله فيه أسرار العالم الظاهرة و الخفية[3]"

و بالطبع لم يخفى أمره على السلطان فسلّم إليه مهمّة تهذيب و تعليم أبنائه، كانت المهمة صعبة و حسّاسة و لكنّ الشيخ لم يتأخر في تنفيذ طلب السلطان و شرع في مهمته بكلّ تفان و إخلاص و قد نجح فيها نجاحا رائعا و قد بقي السلطان يترقب النتائج بكل شغف و اندهاش ولكنّ النجاح جرّ على صاحبه أعين الحسد و أوغل صدورا بالكره و المكائد.

1- ابن مريم: نفس المصدر السابق، ص 68-69

2- ابن مريم: المصدر نفسه، ص 69.

3- ch Brosselard : Opsit, p 168.

ففي أحد الأيّام بينما جلس السلطان "أبو زيان محمد بن عثمان حفيد يغمراسن" للعشاء رفقه ولديه، رفض هذين الأخيرين تناول العشاء و عندما سأل السلطان عن السبب أخبراه بأنهما يأكلان عند شيخهما الحلوي اكلا لذيذا يرضي شهيتهما و يمتع ذوقهما. و كانت هذه هي الفرصة السانحة للوزير في أن يوشي بالشيخ الحلوي لدى السلطان فأوهمه أن هذا الأخير ساحر، و موال للشيطان و أنّه وال مزور يخدع الناس بهذا المظهر بينما يخفي سوء لا نهاية له و هكذا قرر السلطان أن يكون الجزاء على قدر العمل و أمر بأخذه خارج أسوار المدينة لتقطع رأسه و ليرمى جسده دون دفن كفريسة للحيوانات المتوحشة[1] و هكذا فعلت الوشاية فعلتها و ثأر الوزير لكرامته من الشيخ الذي قتل و قطعت رأسه، و لم يرض سكان المدينة على هذا الحكم الظالم المتعسف و لكن أوامر السلطان لابدّ أن تنفذ دون تأخير. و في المساء الذي تلى هذه الحادثة الرهيبة، عند صلاة العشاء و عندما أتّم بواب المدينة تفقده للمدينة و بينما كان يصيح الباب! ، الباب ! حتى يدخل المتأخرون المتواجدون خارج المدينة، إذ به يسمع صوتا يمزق صمت المدينة يقول: "يا بواب أغلق بابك- روح ترقد يا بواب، لم يبق أحد سوى الحلوي المظلوم[2]"

أخذ الحارس بالدعر و الاندهاش و لكنّه فضل الصمت لولا أن الحادثة نفسها تكررت سبعة أيام على التوالي، بحيث لم يستطع هذا الأخير على الصمود أكثر، فقرّر قصد المشور و مقابلة السلطان شخصياً حتى يسرد الوقائع المذهلة، و بعد استماع السلطان للوقائع قرّر الذهاب بنفسه و التحقق من الأمر شخصيا فأمر البواب بانتضاره عند صلاة العشاء في المكان نفسه (باب علي): و اتجه شخصيا رفقة وزيره الأوّل من أجل التحقق من هذا الأمر الغريب و المدهش[3].

1- ch Brosselard : Opsit, p 169-170.
2- ch Brosselard : Ibid, p 170
3- Brosselard : Ibid , p 171

قطعة، و اتبعه. فكانا يأويان تبتلا إلى كهف خارج باب كشوطة، إلى أن مات الولي الحلوي و دفن خارج باب علي، و قبره الآن هنالك مزار [1].

و قد كان رضي الله عنه لا يأكل قط طعاما في النهار فلم ير إلاّ صائما قائما و من نظمه رضي الله عنه :

إذا نطق الوجود أصاخ قوم ❖❖❖ بآذان إلى نطق الوجود
و ذاك النطق ليس به انعجام ❖❖❖ و لكن دق عن فهم البليد
فكن فطنا تنادى من قريب ❖❖❖ لاتك من ينادى من بعيد [2]

جـ - زهده و تصوفه :

تنسب إليه الشوذية، و كان في أوّل أمره من فقهاء مرسية ثم التف حوله أمثال عزيز بن خطاب و حازم و أبي المطرّف و غيرهم.

و الشوذية طريقة صوفية تشبه طريقة ابن عربي إلاّ أنّها أكثر إيجابية، و قد تورّط أصحابها في السياسة و قالوا بأنّ العلوم الشرعية غير صحيحة في ذاتها، زعموا و لذلك وجدوا مقاومة شديدة، و حمل عليهم ابن الزبير الثقفي العاصمي الغرناطي و ابن خلدون و لسان الدين بن الخطيب و لابن الزبير الغرناطي أرجوزة في ذمّ الشوذية (*)كما ردّ عليهم (ابن الزبير) عند تفسيره للآية الأولى من سورة النمل عند قوله سبحانه "لا تخف إني لا يخاف لدي المرسلون إلاّ من ظلم [3]

و قد ذكره ابن خميس في قصيدته المشهورة التي مطلعها :

1- أبو زكرياء يحيى ابن خلدون:نفس المصدر السابق، ص 127-128.

2- ابن مريم: نفس المصدر السابق، ص 69-70.

*- انظر كتاب: مدخل تاريخي إلى دراسة الشوذية لمحمد بن شريفة طبع عام 1965.

3- الآية، (أنظر كتاب ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد و التعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل لابن الزبير العاصمي الغرناطي، ص 898).

عجبا لها أيذوق طعم وصالها .....

فقال :

و بدت على الشوذيّ منها نشوة ❖❖❖ ما لاح منها غير لمعة آلها [1]

أمّا في سياق آخر فقد ورد: "و هو أول من كون سلالة الحكماء الأبرياء الفائضين بالروح الالهية و في اعتقاد هؤلاء الحكماء إنّ العلم و الحكمة لا يتحققان بدون ذرة من الحمق كما أن معرفة الله مقيدة بنوع من التخلي عن القوانين و الشكليات أيّا كان نوعها.

و قد قيل عنهم: "أنهم يحسنون الموافقة و بصفة دقيقة بين العلم و التخيل و التقشف و العبادة. [2]"

و قد نسبت الشوذية لسيدي الحلوي حتى التصقت باسمه إلتصاقا وثيقا، و هكذا نلاحظ أنّ هذا البائع للحلواء لم يكن بتلك البساطة التي كان يبدوا بها. و لكنّ غايته في الوصول إلى قلوب الناس وتهذيبهم، برّرت الوسيلة و إن كانت بسيطة مبتدعة.

1- محمد بن شريفة :نفس المرجع السابق، ص 58.

2- تلمسان - سلسلة الفن و الثقافة، ص 47.

ثـانيا : ضريحـه

قبل التطرق إلى ضريح سيدي الحلوي لا بد من إعطاء لمحة عن مسجد سيدي الحلوي :

* **مسـجد سيـدي الحلوي** : يطـلّ ضريـح سـيدي الحلـوي علـى مسـجد رائـع يحمـل إسـم مسجد سيدي الحلوي الذي شيد من طرف السلطان أبـو عنـان فـارس(*) سنة 754 هـ (1353م) و هذا حسب الكتابة الأثرية الموجودة على العقد الذي يعلو مدخل الجامع و هـذا نصّهـا ﴿**الحمـد لله وحده أمر بتشييد هذا الجامع المبارك مولانا السلطان أبو عنان فـارس بـن مولانـا السـلطان ابي الحسن علي ابن مولانا السلطان أبي سعيد عثمان بن مولانا السلطان أبـي يوسـف يعقـوب بن عبد الحق أيده ا لله و نصره عام 754**﴾(1) و هي مكتوبة بخط أندلسي مغربي.

إن طراز هذا المسجد يشبه طراز مسجد "أبي مدين" إلا أنه أصغر منه قليلا في أبعـاده، كمـا يعتبر تحفة معمارية منقطعة النظير (أنظر الشكل رقم **11**) للمسجد ثلاثة مداخـل أحدهمـا شـرقي و الآخر غربي و الثالث و هو الرئيسي و يقع في الجهة الشمالية للجامع. و قبل الدخول يستوقفك منظر الشرعة المحمولة على ثلاثة عشر مسندا منقوشة بدقة و هي رائعة الجمـال تزيـن إطـار البـاب زخـارف فسيفسـائية، و فـوق البـاب نجـد الشـريط الكتـابي الـذي تحدثنـا عنـه سـابقا، و هو الذي يحمل الكتابة التذكارية للجامع.

أما مساند الشرعة فتعتمـد علـى إفريـز خشـبي يحمـل كتابـة كوفيـة نصهـا "**الغبطـة المتصلـة و البركة الكاملة و السعادة**".

---

*- أبو عنان فارس : ابن السلطان المريني (أبو الحسن المريني) تم لـه الأمـر بعـد انتصـاره علـى أبيـه و مقتـل هـذا الأخـير سنة 752 هـ (1351 م) و ما إن تم جلوسه على عرش أجداده حتى قام بغزو تلمسان عام 753 هـ (1352م) و أقـام بهـا مـدة و نظـرا لكونـه ولوعـا بـالفن و إقتـداء بوالده الذي شيد مسجد سيدي أبي مدين و ملاحقه فقد شـيد ابـو عنـان فـارس مسـجد سـيدي الحلـوي و ملاحقـه و إن لم يبقـى لنـا اليـوم سوى الجامع و بانتهاء حكم أبي عنان بوفاتـه سنة 759 هـ (1358 م) انتهـى حكـم المرينيـين بتلمسـان (محمـد بـن رمضـان شـاوش : نفـس المرجع السابق، ص 104).

1- رشيد بورويبة : الكتابات الأثرية ...، ص 97.

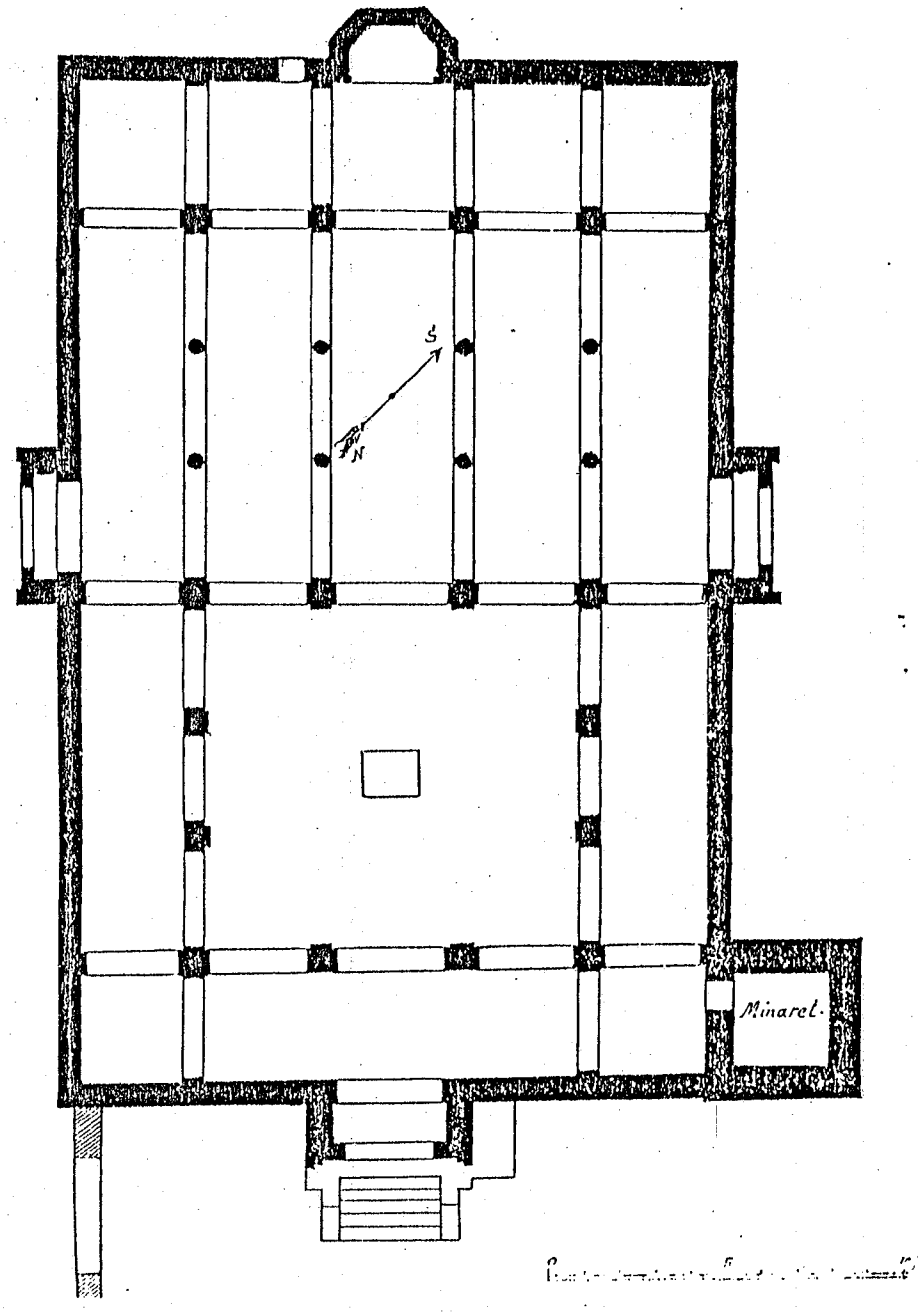

(الشكـــــل رقم 11) : مخـطط مسـجد سيـدي الحـــلوي

(William et Georges Marçais : Les monuments ..., P 289)

يؤدي المدخل الرئيسي بواسطة سلم يشتمل على ستة درجات إلى صحن مربع الشكل تقريبا طوله 10,10م و عرضه 10,60 م، يحتوي في وسطه على حوض مائي يستعمل للوضوء، يحيط بالصحن أروقة من الجانبين و المؤخرة، ترتفع المئذنة ذات الطراز المغربي الأندلسي في الواجهة الشمالية الغربية. قاعة الصلاة الواقعة في الجانب القبلي تحتوي على أربعة بلاطات و خمسة أساكيب و لعل ما يميز قاعة الصلاة هذه الأعمدة المرمرية و التيجان المزخرفة التي تزيدها بهاءا و جمالا، أما المحراب فيقع في الجدار المقابل للرواق الأوسط و لا بد من الإشارة إلى تواجد جمجمة الولي الحلوي رحمه الله داخل إطار زجاجي وضع بداخل جدار المحراب و قد تعذّر علينا أخذ صورة لهذه الجمجمة نظرا لخفوت الضوء و صعوبة موقعها، أما القبة التي عادة ما تتقدم المحراب فهي معوضة في هذا المسجد بسقف مربع هرمي الشكل يكسوه قرميد أخضر من الخارج. بالجامع ساعة شميسة نقشت على إحدى الأعمدة القريبة من الباب الشرقي. أما سقف الجامع و على عادة المرينيين فمغطّى بسقف هرمي الشكل يكسوه قرميد أخضر.

و قد أشارت بعض المصادر التاريخية إلى وجود زاوية و مدرسة ضمن مرافق المسجد إلا أننا لم نجد لهما أثرا يذكر [1]

لقد شيد السلطان أبو عنان فارس هذا المسجد سنة بعد إستلائه على تلمسان أي بما يقرب 14 سنة بعد تشييد مسجد سيدي أبي مدين الذي شيّده والده أبو الحسن المريني، و بعد هذا الجامع تحفة معمارية رائعة لا تزال تحتفظ بمجمل معالمها المعمارية و الأثرية، كما أن هذا الجامع لا يزال يقف شاهدا لمؤسسه على مدى تفوقه هو و أجداده بني مرين في الميدان المعماري فقد كان أبو عنان ولوعا بالبناء و التشييد على غرار أبيه و أجداده.[2]

1- محمد بن رمضان شاوش : نفس المرجع السابق، ص 309.

2- سيدي محمد الغوتي بسنوسي : نفس المرجع السابق، ص 357-358.

ثـــانيا : ضريـــــحه

يقع ضريح سيدي الحلوي شمال شرق تلمسان و هو يعلو مسجد سيدي الحلوي، يقع الضريح في الأعلى على بعد نحو 100 م عن المسجد الذي ينتصب في أسفل الهضبة يقع المدخل في الجهة الشمالية و هو عبارة عن باب يبلغ عرضه 85 سم مطلي باللون الأخضر الداكن يعلوه عقد نصف دائري.

و الضريح عبارة عن غرفة مستطيلة الشكل يبلغ طولها 3,70 م و عرضها 2,05م يعلوها قرميد على شكل هرمي بسيط لونه بني و بالغرفة ثلاثة كوات جدارية الأولى الموجودة بجدار القبلة يبلغ عرضها 55 سم و عمقها 35 سم أما الثانية بالجدار الجنوبي الغربي عرضها 45 سم و عمقها 32 سم أما كوة الجدارية الثالثة و الأخيرة فتقع في الجدار الشمالي الشرقي يبلغ عرضها 25 سم و عمقها 35 سم، (أنظر الشكل رقم **12**) . ندخل إلى الضريح لنجد تابوتا خشبي تآكل بفعل عوامل الطبيعة مغطا بلواء أخضر، يبين المكان الذي يرقد فيه جثمان الولي الحلوي، لا توجد في الضريح أية كتابة تدل على تاريخ الإنشاء و لكننا نعلم أنه أنشأ مباشرة بعد قتل الولي الحلوي و قد كان ذلك في عام 705 هـ /1305م.[1]

يوجد على يسار المدخل محراب مضلع و هو عبارة عن فتحة يبلغ عرضها 88 سم يعلوها عقد حذوي يكتنفها في الجانبين عمودان صغيران كما يبرز المحراب نحو الخارج بـ 45 سم (أنظر الشكل رقم **13**) يغطي الضريح سقف خشبي من الداخل و هو لا يكان يكون ملفتا للنظر و هذا السقف على غرار الضريح قد تصدع بفعل الرطوبة فتآكلت عناصره و نلاحظ غياب النوافذ و بالتالي غياب الإضاءة و التهوية، و هذا كان سببا في تأثره بعوامل كثيرة حتى أصبح في حالة يرثى لها. الجدران غاية في البساطة خالية من الزخارف.

1- Brosselard : Opcit, p 168.

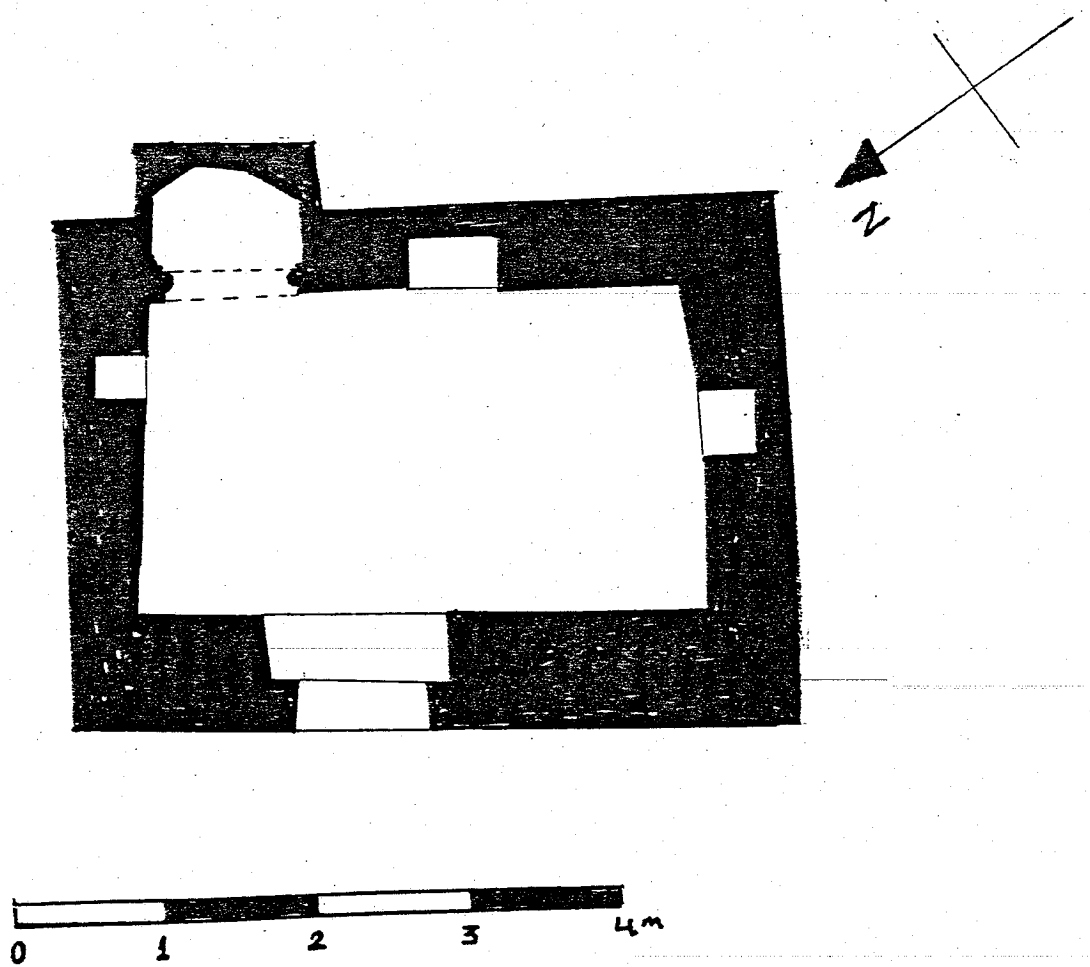

(الشكـــــل رقم 12) : مخـــطط ضريـــح سيـــدي الحلـــوي

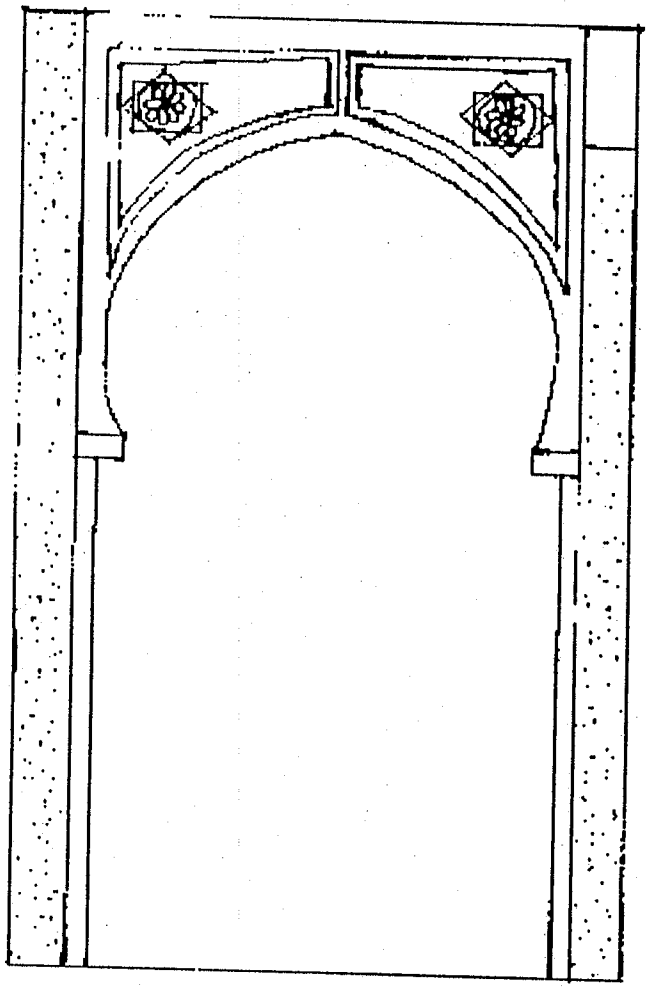

(الشكـــل رقم 13) : محـــراب ضريـــح سيـــدي الحـــلوي

و حينما نخرج من الضريح نجد منصة أرضية نطلّ من خلالها على المسجد الرائع الذي يجلب الإنتباه و الزوّار (أنظر الشكل رقم 14).

و من الواجب أن نشير إلى أن إهمال الضريح من طرف الهيئات المختصة جعله قبلة لعناصر السوء التي لم تحترم قدسية المكان و قد أدى ذلك إلى غلق الضريح و منع زيارته و هل هذا الحلّ الأمثل لمواجهة هذه الظاهرة؟

كما أن موقع الضريح ضمن كتلة هائلة من الأشجار و الأشواك يكاد يحجبه عن الأنظار، و حقيقة لا بد من الإنتباه إلى هذا الضريح الذي لو بقي على هته الحال فسوف يتعرض لتصدع أكبر، إذ أن حتى الممرّ المؤدي إليه يكاد لا يكون ظاهرا و هو طريق غير معبد، شائك تشوبه الأحجار و الأشواك.

فمتى نلتفت لهذا الضريح الذي يعد مثالا عن الأضرحة التي تبنى عند بوابات المدن من أجل الحفاظ عليها فهو (الحلوي) حارس باب الزاوية و حاميها.[1] (أنظر الشكل رقم 15).

* الزخرفة بضريح سيدي الحلوي :

أ- الزخرفة الكتابية :

يوجد في محراب ضريح سيدي الحلوي بقية شريط كتابي كان يحيط بجامة المحراب إلا أنه لم يبقى منه اليوم سوى كلمتين و هي يـم و كلمة الـله. (أنظر الشكل رقم 16).

ب - الزخرفة الهندسية :

تحتل شوكتي المحراب نجميتان و هي عبارة عن تقاطع مربعين ينجم عن تقاطعهما نجمة ذات ثمانية رؤوس مركزها زهرة ذات الثماني باتيلات (أنظر الشكل رقم 17).

1- William et Georges Marçais : les monuments .... , p 332-333.

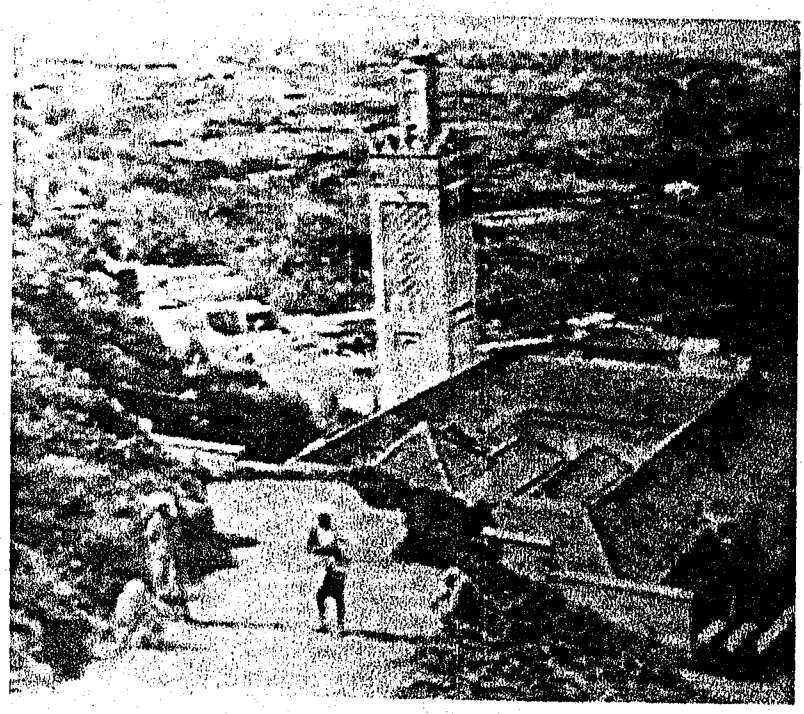

(لـــوحـــة رقـــم 14) : منظـر خارجـــي لمســجد سيـدي الحـلوي في المـــاضي.

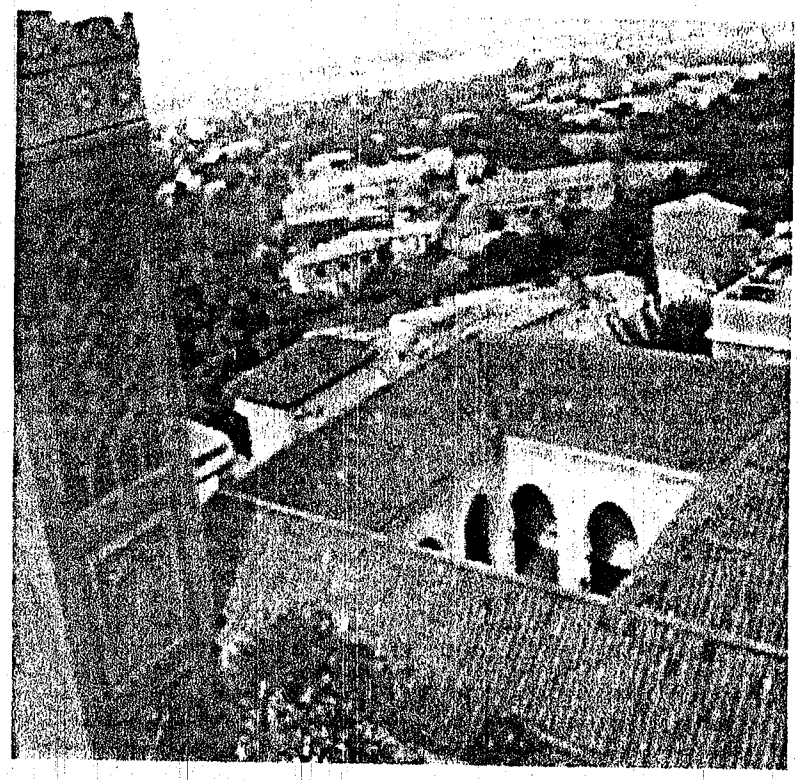

(لـــوحـــة رقـــم 14) : منظـر خارجـــي لمســجد سيـدي الحـلوي حاليـــا

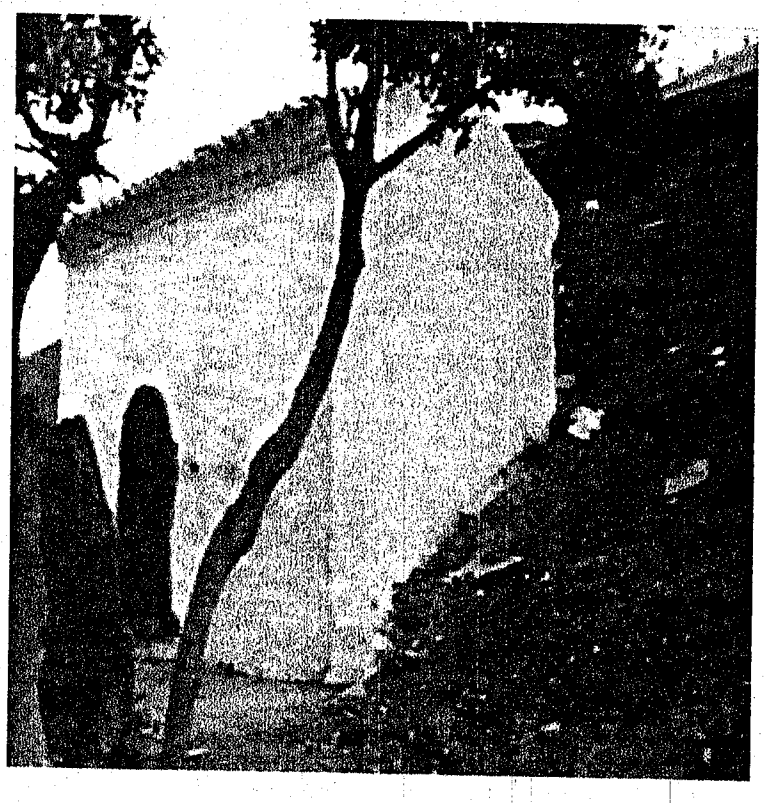

(لـــوحـــة رقـــم 15) : منـــظر خـــارجي جانبـــي لضـــريح سيدي الحـــلوي

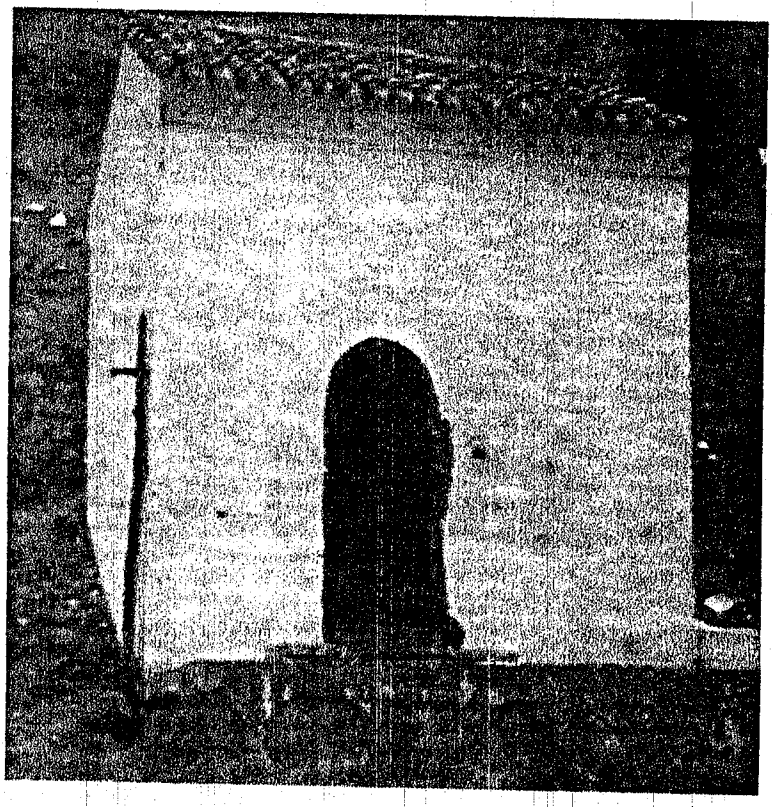

(لـــوحـــة رقـــم 15) : منـــظر خارجـــي أمـــامي لضـــريح سيدي الحـــلوي

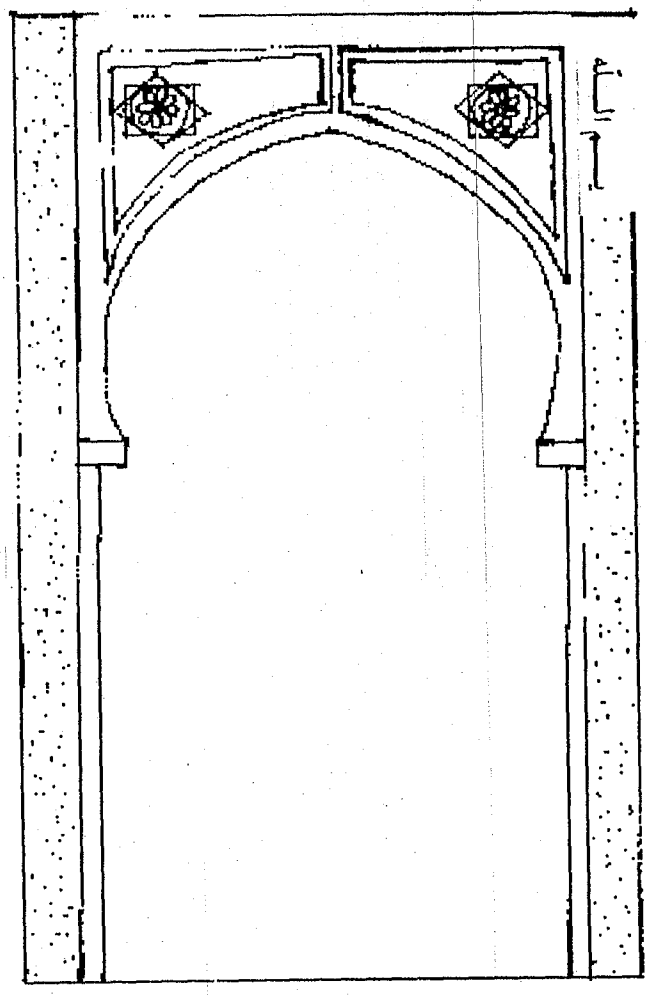

(الشكـــــل رقم 16) : عيـــنة عن الزخـــرفة الكتـابية بمحـراب ضريـح سيـدي الحلوي

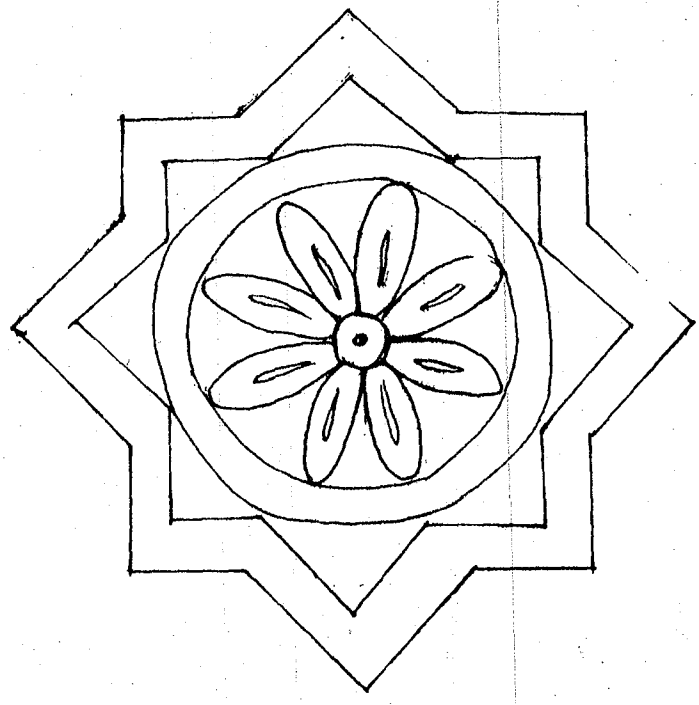

(الشكـــــل رقم 17) : نجـمة ذات الثمانية رؤوس مركزها زهرة ذات ثمانية بااتلات بمحراب ضريح سيدي الحلوي

﴿ ضريح سيدي إبراهيم المصمودي ﴾

أولا : حياته

الشيخ العالم الصالح الوليّ الزاهد أبو إسحاق أحد شيوخ الإمام ابن مرزوق الحفيد... قال ابن صعد التلمساني في النجم الثاقب كان هذا الولي أحد من أوتي الولاية صبّيا و حلّ من رئاسة العلم و الزهد مكانا عليّا.[1]

و قد نشأ هذا العارف [*] با لله محبّا للعلم، متعطشا للاستزادة منه. أصله من صنهاجة المغرب قرب مكناسة، ولد و ترعرع فيها، فلما كبر طلب العلم فأخذ بفاس عن جماعة من العلماء كالشيخ الإمام حامل راية الفقهاء في وقته "موسى العبدوسي [*]"و الشيخ الإمام الشهير "محمد الآبلي [*]"و قرأ كثيرا على الشيخ الإمام شريف العلماء أبي عبد الله الشريف التلمساني[*] ثم انتقل بعد وفاته لسكنى المدرسة التاشفينية فقرأ على الشيخ العلامة خاتمة قضاة العدل بتلمسان سيدي سعيد العقباني.[2]

1- ابن مريم : نفس المصدر السابق ، ص 64.

*- العارف: من أشهده الله ذاته و صفاته و أسماؤه و أفعاله، فالمعرفة حال تحدث عن شهود (ينظر للقاشاني : نفس المصدر السابق، ص 106)

*- موسى العبدوسي : أبو عمران موسى بن محمد بن معطي العبدوسي و به عرف الفاسي، عالمها و مفتيها الإمام الحافظ العلامة كان آية في معرفة المدونة أقرأها نحوا من أربعين سنة و له مجلس لم يكن لغيره يحضره الفقهاء و المدرسون و الصلاحاء، له تآليف منها تقييدان على المدونة و تقييد على الرسالة توفي سنة 776 هـ (ينظر إلى كتاب محمد بن محمد مخلوف : نفس المصدر السابق، ص 163).

*- الشيخ محمد الآبلي : الإمام العلامة المجمع على إمامته "محمد ابن إبراهيم بن محمد العبدري التلمساني " الشهير "بالآبلي"، قال ابن خلدون أن أصله من الأندلس و من أهل آبلة من بلاد الجوف ... و نشأ بتلمسان في كفالة جده القديم ... بعد حجه رجع إلى تلمسان فقرأ المنطق و الأصلين على "أبي موسى بن الإمام" و رحل في آخر السابعة إلى المشرق فدخل مصر و الشام و الحجاز و العراق ثم قفل إلى المغرب فأقام بتلمسان، و كان له عدة تلاميذ كالمقري و إبراهيم بن محمد المصمودي و غيرهم، توفي بفاس سنة 757 هـ، و أورد ابن مريم أن مولده كان سنة 681 هـ (ينظر إلى كتاب بن مريم : نفس المصدر السابق، ص 214-215-216).

*- محمد أبو عبد الله شريف التلمساني : هو الشيخ الفقيه الإمام الصدر العالم الحسيب الأصيل سيدنا الشريف إمام جامع الخراطين اختصر شرح التسهيل لأبي حيان، كان يدرس تلخيص المفتاح و بعض التسهيل لابن مالك، توفي عام 847 هـ و دفن بباب الجياد (ينظر إلى كتاب ابن مريم : نفس المصدر السابق، ص 222.)

2- ابن مريم : المصدر نفسه، ص 64-65.

لقد تفرغ الشيخ للفرائض الدينية معتزلا في بيته غير منقطع عن طلب العلم [1] و مازال سيدي إبراهيم مقبلا على العلم و العبادة و الاجتهاد في طريق المجاهدة آخذا بالغاية القصوى في الورع و الزهد و الإيثار مثابرا على البر متبعا طريق السلف، و كان أحب الناس لمذاكرة أهل العلم لا يسمع بكبير في العلم أو بمنفرد بفن إلاّ اجتمع به و ذاكره[2].

قال ابن صعد نقلا عن جده أبي الفضل عن صفات الشيخ المصمودي وثيابه أنه أبيض اللون طويل القامة لا يلبس سوى الكساء الجيد و لا يجعل على رأسه شيئا أكثر الأوقات و حدثني جماعة من الفضلاء أنه كان في ملازمته للجبل إذا وجد به نوار الربيع أمعن النظر في أنواعه و ألوانه و أحكام صنعته فيغلبه الوجد و الحال و يتواجد و يتبختر في كسائه و يقرأ حينئذ هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه... توفي عام **805** هـ و حضر جنازته السلطان الواثق ماشيا على قدميه ... و دفن بروضة آل زيان من ملوك تلمسان رحمه الله[3].

و قد عرف على الشيخ حبّه للخلوة (.) و الاعتزال، و هذا من أجل النّهل من العلم و قد كانت له كرامات كثيرة.

كراماته :

تحدث بعض أصحابه عن كرامته فقالوا كنا جالسين معه في بيته ليس معنا أحد و هو يقرأ القرآن و يشير بقضيب في يده إلى محل الوقف ضاربا على عادة أشياخ التجويد فقلت في نفس لم يفعل هذا أتراه يقرأ عليه أحد من الجن فما ثم الخاطر حتى قال لي: يا محمد كان بعض الشيوخ يجود عليه الجن القرآن... و ذكر لي غير واحد ممن يهدي له طعاما من لبن و غيره و ربما

1- BARGES: Complément de l'histoire..., p. 258-259.

2- ابن مريم: نفس المصدر السابق، ص 64-65 .

3- ابن مريم: المصدر نفسه، ص 65-66.

•- الخلوة: "محادثة السر مع الحق بحيث لا يرى غيره و هذا حقيقة الخلوة و معناها و أما صورتها فيه ما يتوسل به إلى هذا المعنى من التبتل إلى الله تعالى و الانقطاع عن الغير" (كمال الدين عبد الرازق القاشاني : نفس المصدر السابق، ص 161.)

رده عليهم فيتفقدون أنفسهم فيجدون موجب الرد إما من شبهة و إما من ضجر أهل البيت أو غيره... و حدثني غير واحد أنه كان خارج البلد في وقت لا يدرك باب البلد عادة إلاّ و قد أغلق ثم يمر به في البلد.[1]

و يورد ***Barges*** أن وفاته كان أواخر حكم السلطان "أبي زيّان"، و هكذا انتهت مسيرته المشرقة.

1- BARGES: complément de l'histoire ..., p. 258.

ثانيا : ضريحه :

شيد السلطان أبو حمو موسى الثاني حسب الكتابات الأثرية الموجودة على العمودين المؤطرين لمدخل جامع سيدي إبراهيم [1] زاوية و مدرسة و مسجدا سنة 765 هـ/ 1363 م ضمن مجمع معماري موحد داخل مجموعة من البساتين و لقبت المدرسة **بالمدرسة اليعقوبية** نسبة لوالده "أبي يعقوب"[*] و قد كان هذا المبنى الأخير موجودا بجانب مسجد سيدي إبراهيم الحالي.[2]

و لم يبق من هذا المجمع الذي شيده أبو حمو موسى الثاني سوى المسجد و الضريح الذي ينسب إلى سيدي إبراهيم المصمودي الذي أصبح محل زيارة من طرف المخلصين، إلا أن الإقبال على زيارة هذا الضريح قليل إذا ما قورن بضريح سيدي أبي مدين، أو سيدي الحلوي مثلا و ذلك لكونه يقع بمكان منعزل و لا يمكن الدخول إليه إلا من خلال باب المسجد.

و قبل وصفنا للضريح يجب أن نتطرق في البداية **للمسجد** الذي يعتبر الجزء المتبقي مع الضريح من مجموعة، سيدي إبراهيم نظرا لكون المدرسة اليعقوبية إندثرت و لم يبق منها أي أثر، مع العلم أن بها دفن الشيخ المصمودي 80 عاما بعد تأسيسها.[3]

يختلف المسجد بعض الشيئ عن المساجد الزيانية الأخرى في مخططه العام، ذلك أنه بني أثر الإحتلال المريني لتلمسان، فجاء متأثرا بالتنظيمات التقليدية التي نشاهدها في المساجد المرينية التلمسانية[4] (أنظر الشكل رقم **18**).

1- رشيد بورويبة : الكتابات الأثرية ....، ص 253.

*- أبو يعقوب : هو أبو يعقوب يوسف ابن عبد الرحمان و والده أبو حمو موسى الثاني، و أخ السلطان أبي سعيد عثمان الثاني و قد كان حريصا إذ ساهم بقسط وافر في إرساء قواعد حكم إبنه، فقد حارب الثورة التي قامت في شرق البلاد و قضى عليها و استطاع بمساعدة "عبد الله بن مسلم" من الزحف نحو الجزائر و تطهيرها من "شعيب بن داور رارا" و غيرهم من بني مرين... توفي أبو يعقوب بمدينة "الجزائر" و شيعت جنازته بتلمسان و مشى فيها الملك ابو حمو موسى الثاني حزينا و دفنه بجوار أبي سعيد و أبي ثابت (محمد عمروا الطمار : تلمسان عبر العصور ... ص 175)

2- William et Georges Marçais : les monuments ..., p 301.

3- William et Georges Marçais : Ibid, p 302.

4- سيدي محمد الغوتي بسنوسي : نفس المرجع السابق، ص 276.

و يتألف المسجد من قاعة صلاة ذات خمس بلاطات و مئذنة على الطراز المغاربي و صحن محاط بأروقة في الجوانب الثلاثة ذي حوض مستدير و نافورة للوضوء [1].

قاعة الصلاة مستطيلة الشكل يبلغ طولها 19 م و عمقها 15 م و البلاطات في أقصى اليمين و الشمال مغطاة بقبو متقاطع، لا تحمل أية زخرفة ... للمسجد سدّة بسيطة، أما الصّحن فيتكون من حوض مستدير من الرخام يحتوي على نافورة يحملها عمود من المرمر و تاج من الطراز القديم. و قد أشار ***Brosselard*** إلى أنه إستطاع أن يستقرئ إسم أبو حمّو موسى و لكنه لم يتبق لنا من هذه الكتابة أي أثر نظرا لتأثير المياه عليها [2] و لا بد من الإشارة إلى أن المسجد يتعرض لعملية ترميم واسعة فقد تجرّد من كل آثار الفن الأصلي القديم، لأنه أصبح يعاني حالة جد متدهورة و كاد أن يسقط بعد أن شهد تاريخا عريقا لمدة تزيد عن الستة قرون.

يقع **الضريح** على تلة أو ربوة على بعد أمتار غرب المسجد، في الناحية الشمالية و يتكون من صحن و غرفة تعلوها قبة (أنظر الشكل رقم **19**)، ندخل إليه و بواسطة باب معقود بعقد حذوي بسيط يعلوه إطار للباب أما الباب الخشبي فبسيط يبلغ عرضه 1,67 م أتت عليه عوامل الزمان فأصبح هشّا يؤدي هذا الباب إلى صحن ثم من الصحن إلى قاعة الضريح.

الصحن مربع الشكل طول ضلعه 5,65 م و تحيط بالصحن أروقة من الجوانب الأربعة ترتكز على أعمدة قصيرة بواسطة عقود حذوية يبلغ إرتفاع الأعمدة 1,15 و قطرها 0,55 سم و حسب ما يبدوا فإن هذه الأعمدة البسيطة اسطوانية من المرمر قد جلبت من آثار المنصورة.[3]

و لكن ما لاحظناه هو تجرد العمودين الأماميين للصحن من تحلية المرمر و أصبحت فقط من الحجر، و ذلك راجع لعوامل الطبيعية لأن الصحن مكشوف.

1- محمد بن رمضان شاوش : نفس المرجع السابق، ص 252.

2- William et Georges Marçais : Les monuments ..., p 302-304.

3- William et Georges Marçais : Ibid, p 302.

يعلو الزليج زخارف حصية متنوعة تتكون من الأطباق النجمية التي تحتوي في وسطها على زخرفة كتابية أو نباتية متناوبة فيما بينها (أنظر الأشكال **24 -25-26-27-28-29**) و يعلو الزخارف الجدارية شريط يحمل زخارف هندسية و قد صعب علينا أخذ صور لها.

كما نجد في كل جدار من الجدران الثلاثة نافذتين صغيرتين ذات عقد نصف دائري عبارة عن شمسيات محلات بزخارف هندسية متنوعة تقوم بإضاءة و تهوية الضريح (أنظر الشكل رقم **30**) كما يلاحظ وجود نافذة مفتوحة في الحنية اليمنى من الضريح و لكنها لم تكن موجودة و أغلب الظن أنها فتحت بطريقة عشوائية في السنين الأخيرة. يتم الإنتقال من المربع إلى المثمّن ثم إلى الدائرة بواسطة حنايا ركنية على شكل نصف قبو متقاطع و يتخلف عن تعارض ضلوعها جوفات مثلثة (أنظر الشكل **31**) و مع أن قبة ضريح سيدي إبراهيم تعتبر النموذج الوحيد الذي وصلنا من الفن بعد إعادة إستقرار الزيّانيين من جديد بعد الرحيل النهائي للمرينيين [1] إلا أنها أصبحت اليوم تخلو من أي أثر لتكتسيها الجصية الجميلة، فلقد تأثرت بفعل الرطوبة بالغ الأثر.

أرضية ضريح سيدي إبراهيم مغطات ببلاطات خزفية طمست معالمها بفعل الرطوبة و لا تظهر شيئا ملفتا للنظر سوى تواجد 4 شواهد قبور بها (أنظر الشكل رقم **32–33**) و مع أننا نعلم من خلال المصادر أنها بنيت من طرف السلطان، أبو حمو موسى الثاني إكراما لعميه الأميرين أبي سعيد و أبي ثابت و أبيه الأمير أبي يعقوب [2] إلا أننا لم نستطع تحديد مكان هذه أو الأخرى لإنمحاء الكتابة عليها إلا أننا استطعنا أن نستقرء هذه الكتابة من شاهد القبر الموجود على يمين الباب المؤدية لقاعة الضريح و عليها مكتوب :

في السطر الأول : * السلام عليكم * (لم نستطع فهم الكلمات الأخرى و قراءتها)

في السطر الثاني : * بكم ا لله *

1- William et Georges Marçais : les monuments , p 309.

2- محمد بن رمضان شاوش : نفس المرجع السابق، ص 252.

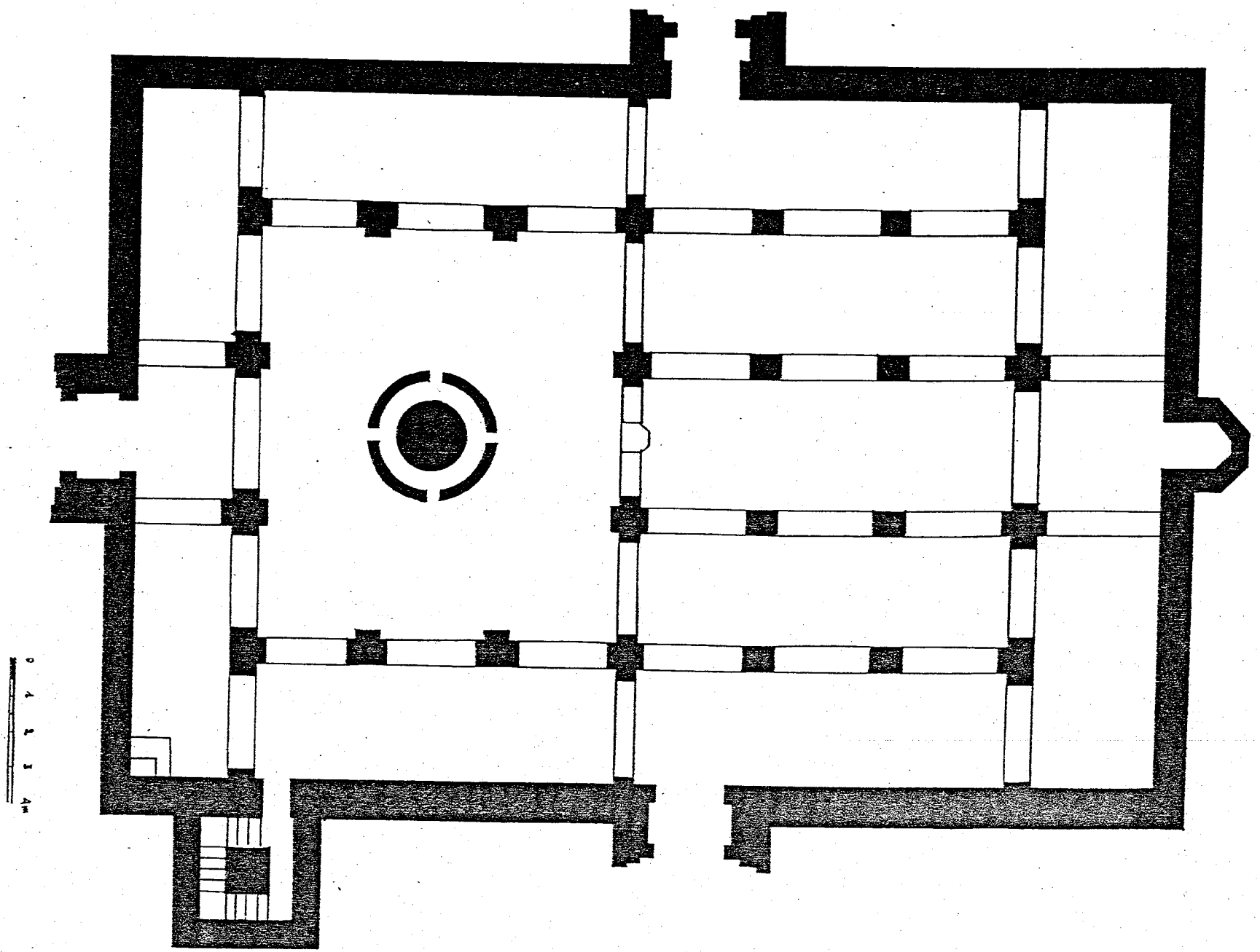

(الشكـــل رقم 18) : مخـــطط مســـجد سيدي إبـــراهيـــم المصـــمودي

(Rachid Bourouiba : L'art religieux ..., P XXI)

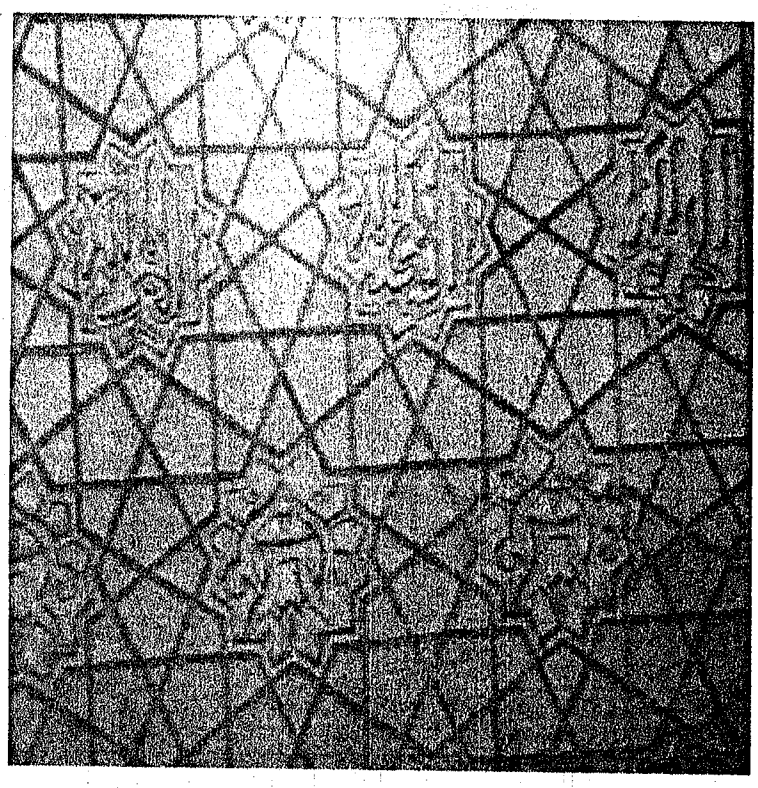

(لـــوحـــة رقـــم 24) : منـــظر للزخـــرفة الجصيـــة الجداريـــة المتنوعـــة بضريـــح سيدي إبراهيم المصمودي

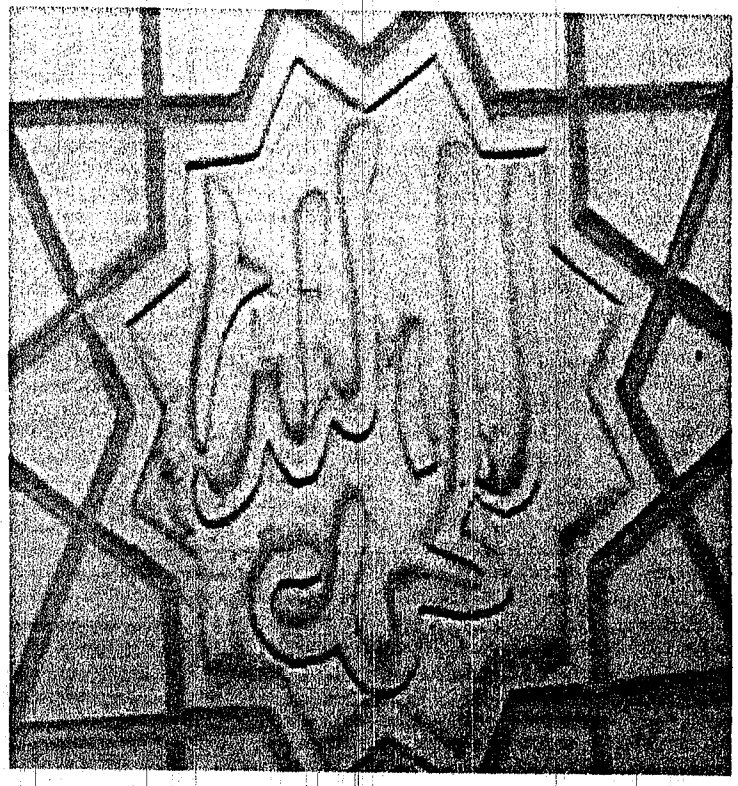

(لـــوحـــة رقـــم 25) : نـــموذج من الزخرفـــة الكتابية علـــى الجص لصيغـــة " الحمد للـه "بسيدي إبراهيم المصمودي

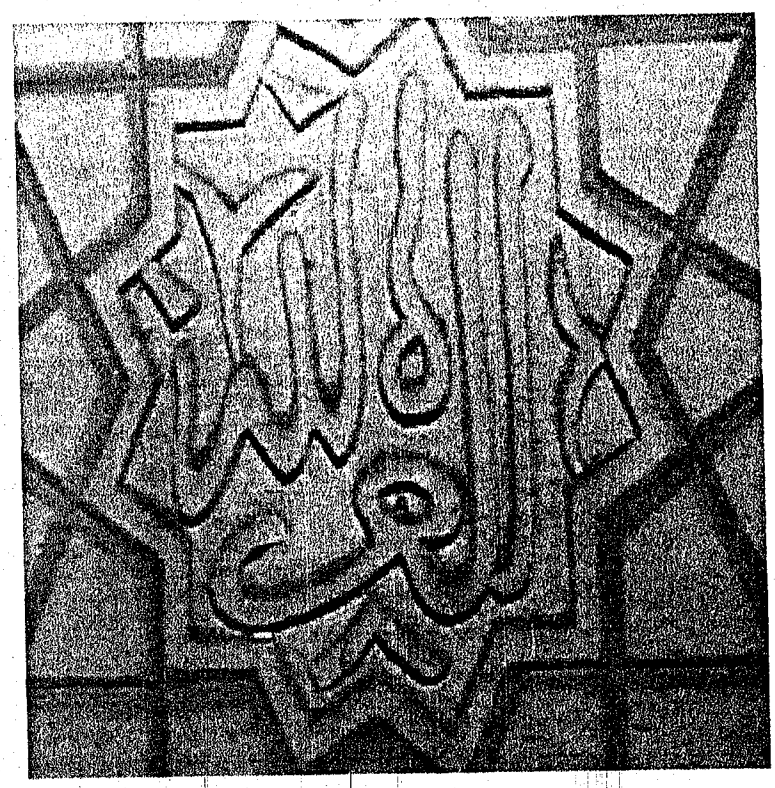

(لـــوحـــة رقـــم 26) : نـموذج من الزخرفة الكتابية لصيغة "العز للـه" بضريح سيدي إبراهيم المصمودي

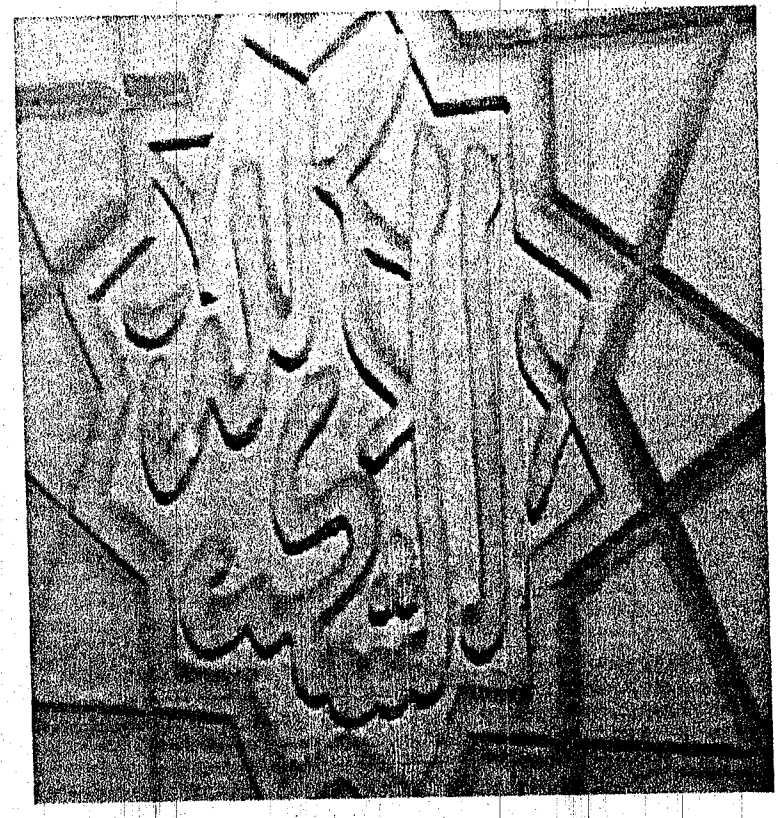

(لـــوحـــة رقـــم 27) : نـموذج من الزخرفة الكتابية لصيغة "الشكر للـه" بضريح سيدي إبراهيم المصمودي

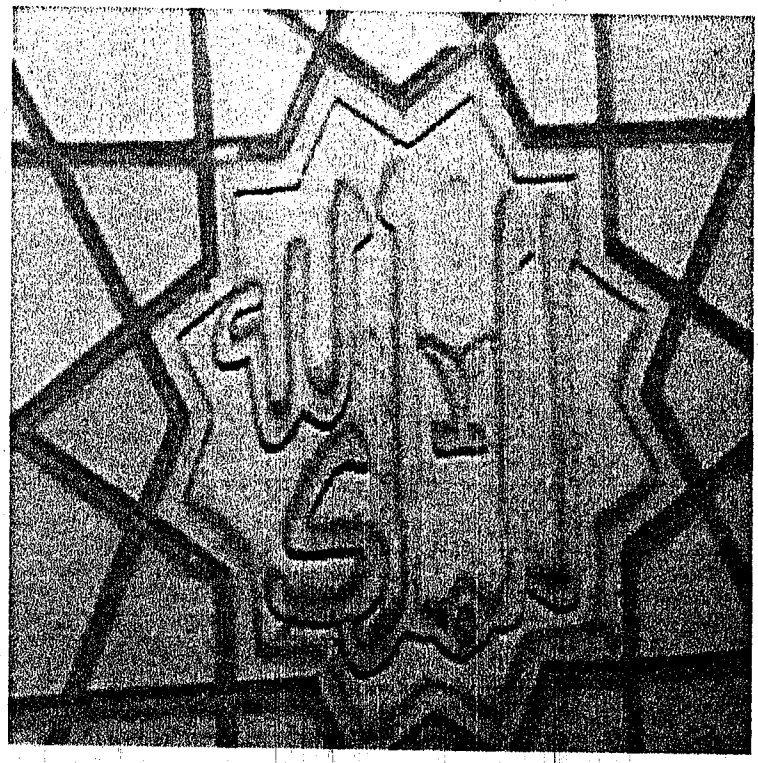

(لـــوحـــة رقـــم 28) : نـموذج من الزخرفة الكتابية لصيغة "الملك للـه" بضريح سيدي إبراهيم المصمودي

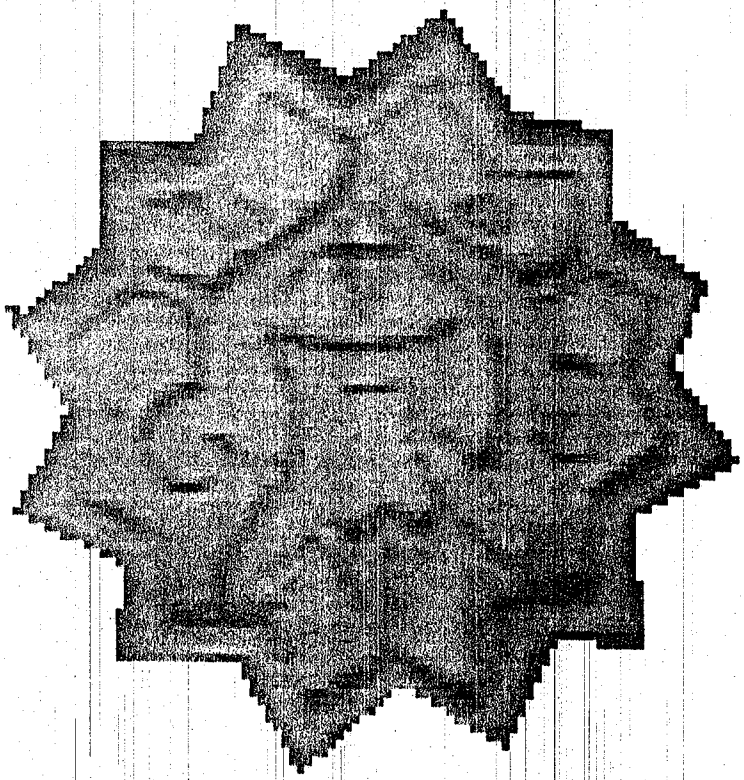

(لـــوحـــة رقـــم 29) : نـموذج من الزخرفـة النباتيـة بضريح سيدي إبراهيم المصمـودي

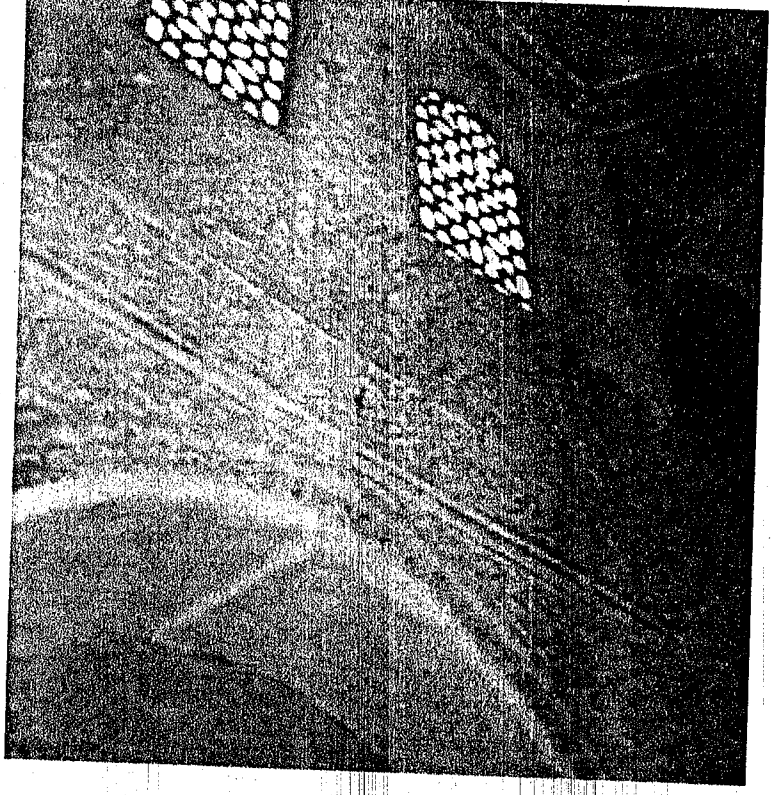

(لـــوحـــة رقـــم 30) : منـــظر لشمسيات بضريح سيدي إبراهيم المصـــمودي

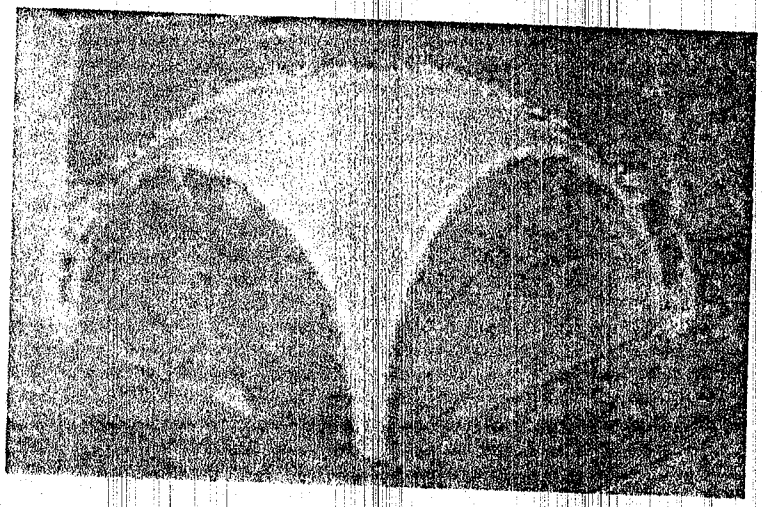

(لـــوحـــة رقـــم 31) : منـــظر لمنـطقـــة إنتقـــال القبـــة من المـــربع إلى المضلع بضريح سيدي إبراهيم المصمودي

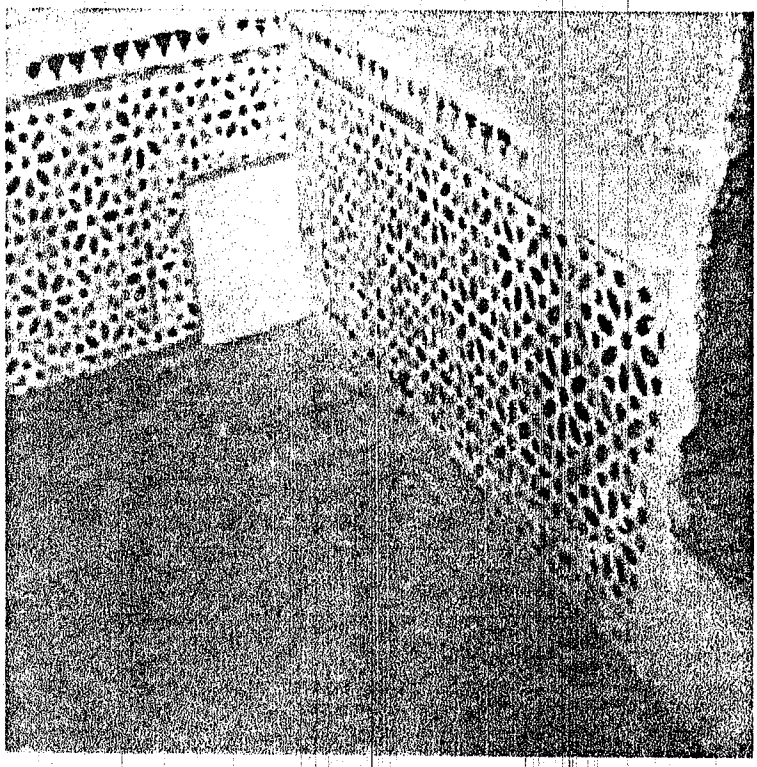

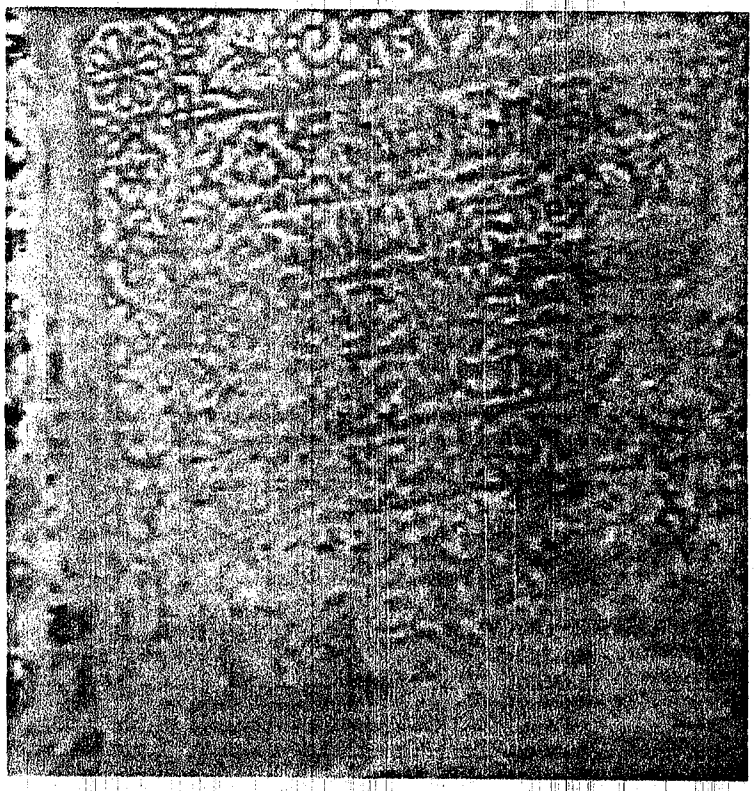

(لـــوحـــة رقـــم 32-33) : شـاهـدا قـبـر لملوك بـنـي زيان بقـاعة ضريـح سيـدي إبراهيـم المصـمودي

و ما أن ارتفع صوت المؤذن لصلاة العشاء حتى بدأ صدى الصوت يتردد ممزقا صمت الليل و سكونه. دهش السلطان و تحقق من الأمر، فأحسن العطاء للبواب و عرف أن الوزير قد خدعه و تسبب في موت الشيخ ظلما و أمر بقتله و كان ذلك خلال سنة **705 هـ –1305م**[1]

فأصر السلطان كتكفير عن خطئه تشييد ضريح يليق بعزّة و مقّام الولي، أين وضعت أشلاءه[2]

هذه هي الوقائع الحقيقية و المؤلمة لوفاة الحلوي الذي أخذ نسبة الحلوي المظلوم والذي بدأ الناس أصحاب المظالم يقصدونه من أجل نصرتهم من ظالميهم.

ب ـ علمه :

ورد حول مكانة الحلوي العلميّة و الدينية الرفيعة، و في مدى سعة صداه في الخارج و الداخل. "... يورد الشيخ أبو الحسن على الميورقي، عن شيخنا أبي عبد الله الآبلي، قال، كان ابن دهّاق، المتقدم الذكر، يدرس كتاب الطهارة من المدونة بالجامع، فقال له يوما الولي أبو عبد الله الحلوي: إلى كم ذا: غسل و حيض و نفاس؟ فلما فرغ أقبل عليه، و قال: سيدي قلت لي ما قلت فما تراني أصنع؟ فقال: اشتغل بما ينفعك، فقال له: أقرأ عليك يا سيدي قال لا، و لكن امض إلى فلان بتونس. فخرج ابن الدهاق من حينه إلى تونس، و لقي المذكور و طلب منه القراءة عليه فسأله عن بلده، فقال له تلمسان، فقال له: عليك بشيخي فيها، أبي عبد الله الشوذي. فعاد المذكور، فلما وصل لقي الحلوي خارج باب القرمادين، فقال له: ردّك إليّ؟ قال نعم، قال افعل اذن كفعلي، و ركب قصبة و انصرف، فكسر ابن الدهاق مزراقة و ركب منه

1- Brosselard : Opsit, p 168.
2- Brosselard : Ibid, p 171

الفصل الثالث

﴿ دراسة تحليلية ومقارنة ﴾

أولا : الأضرحة الإسلامية

ثانيا : أضرحة تلمسان

أولا : الأضرحـــة الإسلاميـــة

لقد واكب الضريـح الإسـلامي في المشـرق، عصـورا مزدهـرة مـن المجـد و التـألق، بـدءً مـن الضريح الفاطمي و نهايةً بالضريح الصفوي، تفاعلت عوامل عديدة من أجل جعله ضخمـا رائعـا، و بسيطا رمزيا في مختلف العصور الإسلامية المشرقة و سوف نتناول في دراستنا للضريح الإسـلامي أمثلة عن الأضرحة التي ساهمت في إثراء العمارة الإسلامية و إزدهارها باستثناء الضريح في العصـر الأمـوي و العباسـي، نظـرا لانعدامهمـا في هذيـن العصريـن لقربهمـا مـن العصـر الإسـلامي الأول و تحريم الإسلام للقبور الضخمة.

1- الأضرحة ما بين القرن 3-8 هـ :

أ- الضريح الفاطمي :

الفاطميون اسرة شيعية، قامت في المغرب الأدنى و الأوسط حيث أقبل دعاة الإسماعيلية علـى نشر مذهبهم حتى أفلح أخيرا عبيد ا لله أول الخلفاء الفـاطميين في القضـاء علـى حكـم الأغالبـة في إفريقية عام 696 هـ 909 م و استطاع بسط نفوذه على بلاد المغرب [1]

من أزهى عصور الفاطميين بمصر عهد المعز لديـن ا لله الـذي اختـط القـاهرة و شـيد الجـامع الأزهر و أهم ما بقي من العمائر الفاطمية، الجامع الأزهـر و جـامع الحـاكم و قـد ظهـرت عمـارة الأضرحة في مصر بنوع جديد من الأضرحة و قد كانت هذه الأخيرة بنوعين :

*** النوع الأول :**

كان الخلفاء الفاطميون يدفنون داخل القصور التي كـانوا يسـكنوها مـن أجـل إضفـاء طـابع القدسية على قصورهم، و لكن إنتصار الأيوبين عليهم و طمسـهم لهـذه المعـالم، لا يمكننـا مـن أن نجزم بحقيقة وجود هذه الأضرحة.

1- الدكتور زكي محمد حسن : كنوز الفاطميين، دار الرائد العربي بيروت 1401-1981، ص 7.

*** أما النوع الثاني :**

فما يعرف بالمشاهد التي كانت تقام للموتى من سلالة على ابن أبي طالب كرم الله وجهه و قد نجحت فكرتهم إلى حد بعيد، إذ لا تزال تحظى هذه المشاهد بالتبجيل و الإحترام و من أمثلة هذه المشاهد مشهد **السيدة رقية** المبنى عام 1132 م و هو يتكون من ثلاث حجرات لها ردهة و صحن صغير، و يوجد المقام تحت الحجرة التي تعلوها قبة [1] و مشهد **سيدنا الحسين و السيدة زينب.**

و قد استخدمت في هذه المشاهد القبة التي كانت تعلوها محاريب الصلاة في الجوامع و إذا بها تعلو المشاهد و الأضرحة و منذ العصر الفاطمي حتى الفتح العثماني لمصر أصبحت القبة هي المظهر الخارجي لكل ما يشيد من مشاهد أو أضرحة.[2]

ب ـ الضريح الأيوبي :

حمل الأيوبيون و على رأسهم صلاح الدين الأيوبي المتشبع بالتعاليم السنية، رياح التغيير و الثووة على التبجيل لعلي ابن أبي طالب و سلالته. إلا أنهم سمحوا و على نقيض معتقداتهم ببناء مقابر لتمجيد ذكرى بعض موتاهم و لو بتحاليلهم و محاولتهم دمج الضريح داخل المسجد رفقة عدة مبان أخرى و من أمثلة هذه المباني المقبرة الفخمة التي أمر ببناءها الملك محمد الكامل للإمام الشافعي و كانت هذه المقبرة جزء من مدرسة كبيرة إلا أن قبة الشافعي هي الوحيدة المتبقية و قد بنيت سنة 1180، كما ظهر في هذا العهد من ضمن ملحقات الضريح الخانقاه(*) الذي يحتوي على سبيل و مدرسة كتّاب[3] .

1- ارنست كونل : الفن المرجع السابق، ص 49.

2- ثروت عكاشة : نفس المرجع السابق، ص 138.

*- الخانقاه : بيت مخصص للدراويش و الصوفية يعود الفضل إلى صلاح الدين في إنشائه و يشتمل على مسجد و قبر كما يحتوي على مدرسة (أنظر كتاب ثروت عكاشة : نفس المرجع السابق، ص 138).

3- ثروت عكاشة : المرجع نفسه ، ص 138.

في السطر الثالث : لم نستطع قراءة الكتابة لأنها غير واضحة تماما.

في السطر الرابع : الكلمة الثانية * الـــلّه *

قاعة الضريح مزينة من الخارج بأفاريز من الشـرّاقات ذات السبعة فصوص و هي مغطات بقبة ذات الثمانية أضلاع.

*** الزخرفة في ضريح سيدي إبراهيم :**

فيما يخص الزخرفة الموجودة بضريح سيدي إبراهيم فتضم الزخرفة الجصية المتعددة الأشكال مع أنها تظهر فقرا في الأسلوب و تقنية الصنع. الكتابة الأثرية أخذت حيزا أكبر من الكتابة العادية، أما الخط الكوفي فلا نجده إلا ضمن نماذج تستعمل للتحلية و تأخذ حيزا ضيقا (أنظر الأشكال رقم **24–25–26–27–28**).

أ ـ الزخرفة الهندسية :

تلعب دورا هاما حيث نجد هنا النموذج الأول و الوحيد الذي تمثله المعالم التلمسانية فيما يخص الزخرفة الهندسية المستعملة في المساحات الكبيرة و الذي يكون الزخرفة الأساسية للتكسية إنه تنظيم من الأطباق النجمية ذات 12 رأسا فوق مساحة مثلثة و هذا النوع من الزخرفة يلاحظ أيضا في غرناطة و الحمراء (أنظر الشكل رقم **24**).

ب ـ الزخرفة النباتية :

فهي بسيطة جدا إذا إستثنينا المحارة الأسطوانية و هي تعلو شوكتي الحنية و هي عبارة عن نجمة تنجم عن تقاطع مربعين و هي نجمة ذات ثمانية رؤوس و بها نقش بسيط على طراز الأرابيسك (أنظر الشكل رقم **34**)، و أيضا بداخلها وردة صغيرة ذات إحدى عشرة وريقة و الملاحظ على هذه المحارة أنها فقدت طلاءها الجباتي إذ أنها لا تحمل تفريعات داخلية و هي تقترب أكثر نحو الكتابة (أنظر الشكل رقم **29**).

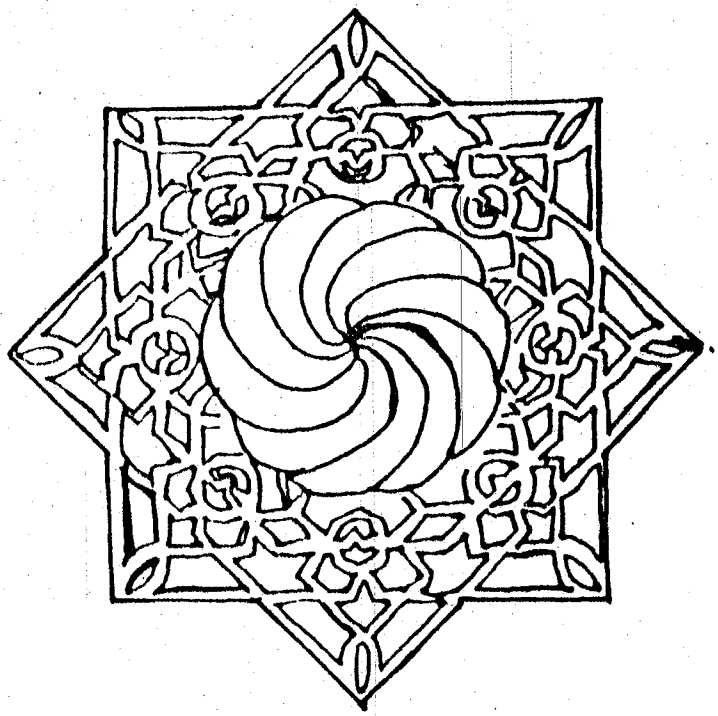

(شكـــــل رقـــم 34) : المـــــحارة التي تعـــلو شوكـــتي الحـــنايا الجداريـــة بضريح سيدي إبراهيم المصمودي

و لن نغادر الصّحن قبل أن نشير إلى وجود عدد من شواهد قبور منتشرة هنا و هناك و لا تحمل أية كتابة تدل على أصحابها.

ندخل من الصحن إلى قاعة الضّريح أو الدفن بواسطة باب يبلغ عرضه 1,27م و ارتفاعه 2,70م تكسو الإطار العلوي للباب تحلية نباتية عبارة عن مراوح نخيلية مرسومة على أرضية تتدرج ألوانها من الأخضر الفاتح إلى الأخضر الغامق ثم إلى الأصفر و الأبيض الشفّاف و فتحة الباب معقودة بعقد حذوي (أنظر الشكل رقم **20**).

قاعة الضريح قريبة من المربع طولها 8,30 و عرضها 8,10 يقابلك و للوهلة الأولى ضريح الشيخ سيدي إبراهيم المصمودي و ضريحه يتوسط القاعة و هو عبارة عن قبر بسيط يحتوي على شاهدي قبر يحملان كتابة لم نستطع قراءتها و ذلك راجع لتأثير عامل الرطوبة عليها (أنظر رقم الشكل **21**)

في وسط الجدار المقابل للضريح حنية على هيئة محراب يبلغ إرتفاعها 3,18 م و عرضها 2,42 م أما عمقها فـ 60 سم أما الحنية الجدارية الثانية الموجودة على يسار المدخل فيبلغ عمقها 57 سم (أنظر الشكل رقم **22**) في حين يبلغ عمق الحنية الجدارية التي تقع على يمين المدخل 87 سم.

و يحيط بالحنيات شريط كتابي يحمل نصا قرآنيا (سوف يرد في نهاية الوصف المعماري)

أما الجدران فمحلاة من الأسفل إلى إرتفاع يبلغ حوالي 1,20 م بالزليج و هذا الزليج يتكون من مجموعة من زخارف هندسية عبارة عن معينات متعددة الألوان من الأبيض و الأصفر و الأخضر الداكن و هذه التشبيكات الهندسية تعطي شكل النجمة ذات الثمانية رؤوس مركزها قطعة دائرية (أنظر الشكل رقم **23**).

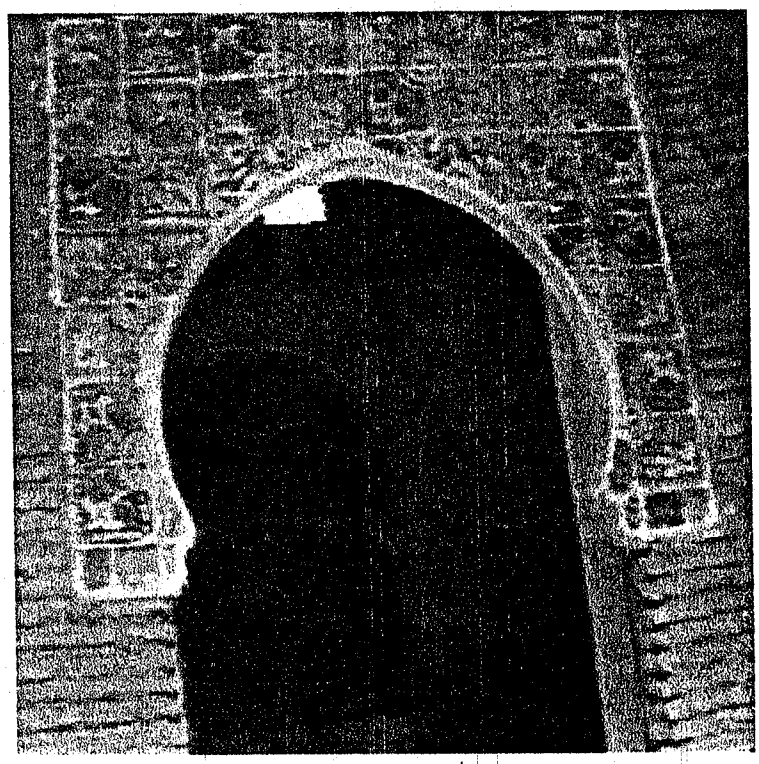

(لـــوحـــة رقـــم 20) : بـاب قاعة الدفن لضريح سيـدي إبراهيـم المصـمودي

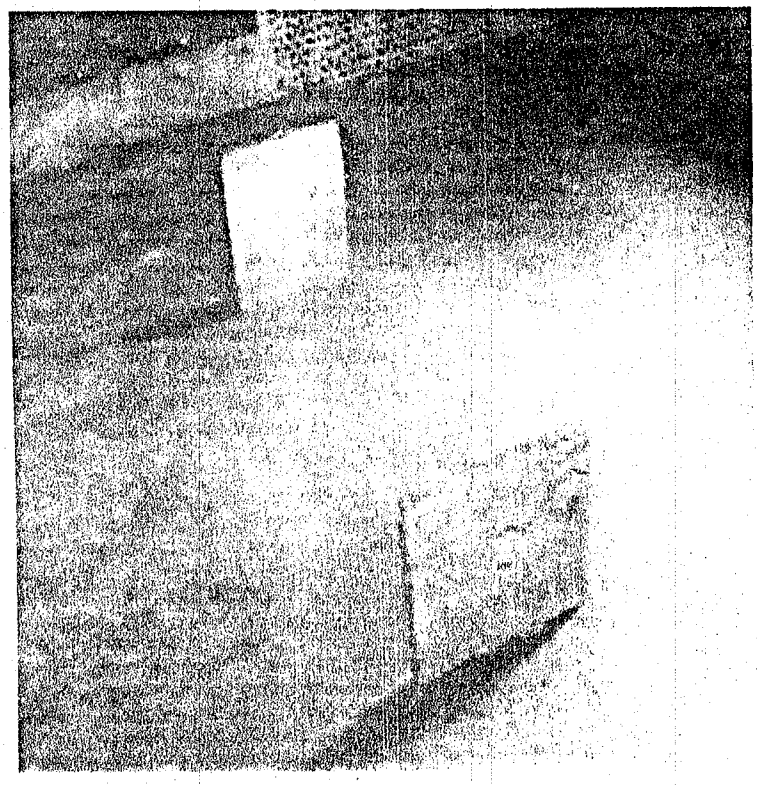

(لـــوحـــة رقـــم 21) : ضريح سيـدي إبـراهيـم المصـمودي

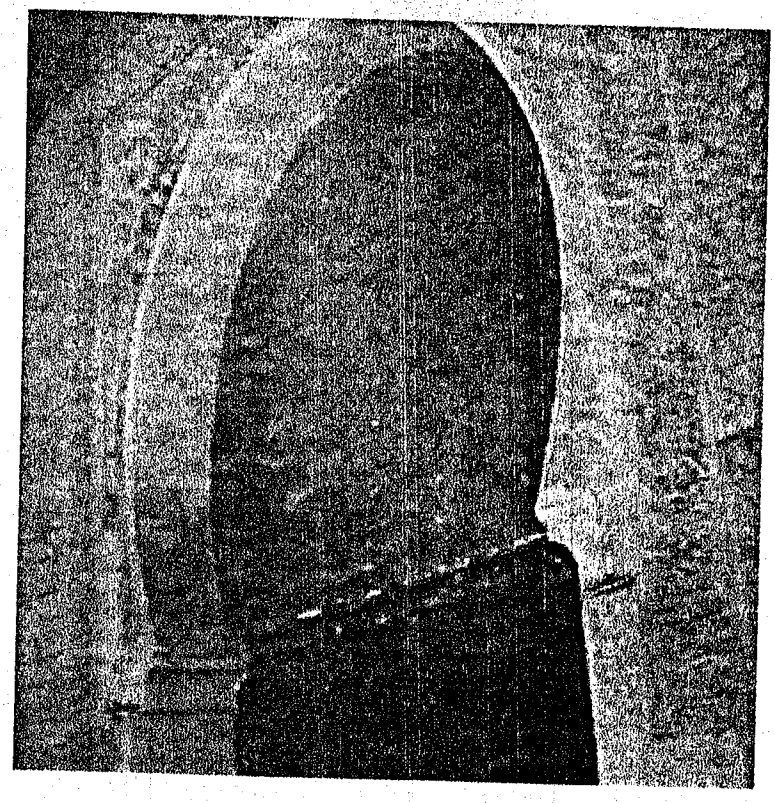

(لـــوحـــة رقـــم 22) : حنيـــة جـــدارية بضـــريح سيـــدي إبـــراهيم المصـــمودي

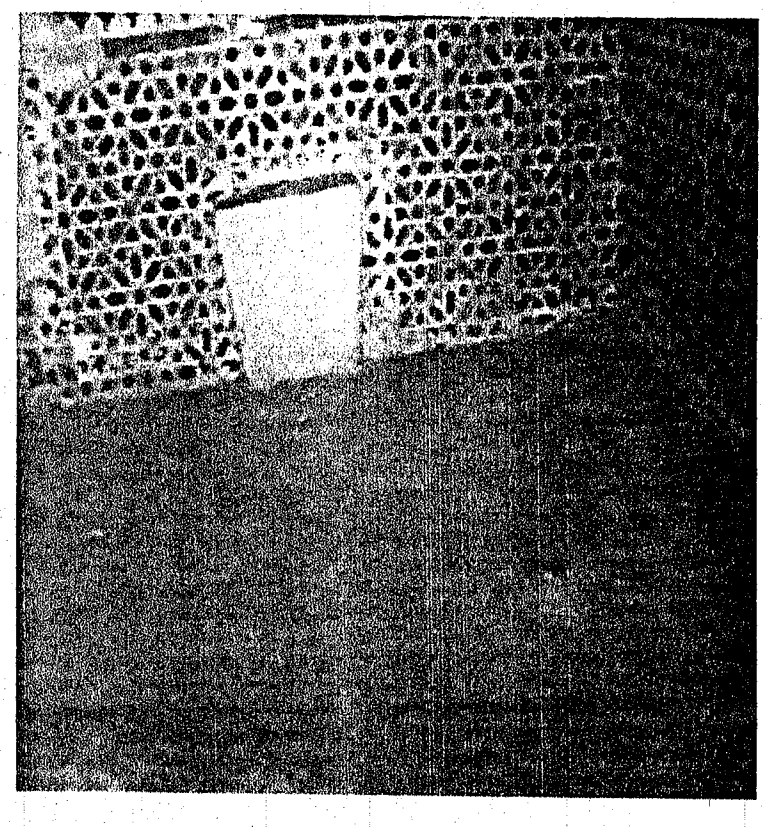

(لـــوحـــة رقـــم 23) : عيـــنة من الزليـــج بضريـــح سيـــدي إبراهيم المصـــمودي

و لعل الزخرفة النباتية لا تحمل سوى المراوح النخيلية البسيطة و خلاصة القول أن هذه التحلية بمختلف أنواعها تعكس فترة إنحطاط[1] و نحن نقدم صورا لهذه النماذج الهندسية التي تتمازج معها نماذج نباتية جميلة.

جـ ـ الزخرفة الكتابة :

فيما يلي نورد نص الشريط الكتابي الكوفي الذي يحيط بالمستطيلات المحيطة بأطر الحنيات، يبدأ هذا الشريط الكتابي من الجهة الجنوبية و يستمر إلى الجهات الأخرى ثم ينتهي إلى الجهة الجنوبية كالأتي :

* **الجدار الجنوبي** : الجامة اليمنى : بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ صَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ.

* **الجدار الجنوبي** : الجامة الأفقية العليا :

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لاَ عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الغُيُوبِ﴾ (الآية 109)

إِذْ قَالَ اللهُ

* **الجدار الجنوبي** : الجامة الأفقية اليسرى :

﴿ يَا عِيسَى إِبْنَ مَرْيَمَ أُذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَ عَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ القُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ﴾[2]

* **الجدار الجنوبي** : الجامة الأفقية السفلية اليسرى :

﴿ فِي المَهْدِ وَ كَهْلاً وَ إِذْ عَلَّمْتُكَ الكِتَابَ﴾.

* **الجدار الشرقي** : الجامة السفلية الأفقية اليمنى :

﴿ وَ الحِكْمَةَ وَ التَّوْرَاةَ وَ الإِنْجِيلَ وَ إِذْ تَخْلُقُ﴾.

* **الجدار الشرقي** : الجامة العمودية اليمنى :

﴿مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَ تُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَ الأَبْرَصَ﴾.

1- William et George Marçais : les monuments ... p 310-311.

2- الآية 109 من سورة المائدة : المصحف الشريف.

* **الجدار الشرقي** : الجامة الأفقية العلوية :

﴿ بِإِذْنِي وَ إِذْ تُخْرِجَ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَ إِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ﴾

* **الجدار الشرقي** : الجامة العمودية اليسرى :

﴿الذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ وَ إِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الحَوَارِيِينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَ بِرُسُلِي﴾

* **الجدار الشرقي** : الجامة الأفقية السفلية اليسرى :

﴿ قَالُوا آمَنَّا وَ اِشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ (111) إِذْ قَالَ الحَوَارِيُونَ﴾.

* **الجدار الشمالي** : الجامة الأفقية اليمنى :

﴿ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ : هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ﴾.

* **الجدار الشمالي** : الجامة العمودية اليمنى :

﴿عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اِتَّقُوا ا للهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (112) قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا﴾

* **الجدار الشمالي** : الجامة الأفقية العلوية :

﴿ وَ تَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَ نَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَ نَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (113) قَالَ عِيسَى إِبْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ﴾[1] .

* **الجدار الشمالي** : الجامة العمودية اليسرى :

﴿ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لأَوَّلِنَا وَ آخِرِنَا وَ آيَةً مِنْكَ وَ اُرْزُقْنَا وَ أَنْتَ خَيْرُ﴾.

* **الجدار الشمالي** : الجامة الأفقية السفلية اليسرى :

﴿ الرَّازِقِينَ (114) قَالَ ا للهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ﴾

* **الجدار الغربي** : الجامة الأفقية السفلية اليمنى :

﴿ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لاَ أُعَذِّبُهُ أَحَدًا﴾.

1- الآيات القرآنية 109 إلى 117 من سورة المائدة (ينظر إلى كتاب *Rachid Bourouiba : L'art ..., p 193-194-195*).

* **الجدار الشرقي** : الجامة العمودية اليمنى :

﴿ مِنَ العَالَمِينَ (115) وَ إِذْ قَالَ ا للهُ يَا عِيسَى إِبْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ إِتَّخِذُونِي وَ أُمِّـي إِلاَهَيْـنِ مِنْ دُونِ ا للهِ﴾.

*__الجدار الغربي__ : الجامة الأفقية العلوية :

﴿ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ﴾.

* **الجدار الغربي** : الجامة العمودية اليسرى :

﴿مَا فِي نَفْسِي وَ لاَ أَعْلَمُ مَـا فِـي نَفْسِـكَ إِنَّـكَ أَنْـتَ عَـلاَّمُ الغُيُـوبِ (116) مَـا قُلْـتُ لَهُـمْ إِلاَّ مَـا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أُعْبُدُو﴾.

* **الجدار الغربي** : الجامة الأفقية السفلية اليسرى :

﴿ ا للهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ وَ كُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾.

* **الجدار الجنوبي** : الجامة السفلية اليمنى :

﴿ كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَ أَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٍ (117) ﴾ .

* **الجدار الجنوبي** : الجامة العمودية اليمنى :

﴿ ... عَلَيْنَا ... الشَّيْطَانُ الرَّجِيمِ﴾.

جـ ـ الأضرحة السلجوقية (الطرز السلجوقية):

قامت في خراسان دولة على يد سلجوق بن دوقاق و حفيده، و السلاجقة قبائل من التركمان الرحل الذين نزحوا من براري القرغنيز و إيران حيث أقاموا من ما أعطى النفوذ للعنصر التركي في الشرق الإسلامي [1] و قد أطلقوا على أنفسهم إسم التركمان بعد دخولهم في الإسلام، و هم سنيون، أخذوا على عاتقهم حماية الدولة العباسية و هكذا استطاع **طغرلبك** أن يدخل بغداد سنة 447 هـ (1055م) و أصبح سلطانا للدولة [2] .

لقد كان الضريح في صدارة العمارة السلجوقية في آسيا الصغرى كبناء له قدسيته و هيبته و قد إتخذ الضريح السلجوقي صورتين هامتين أو شكلين متميزين : شكل الأبراج و شكل القبة.

ـ الشكل الأول : ذلك الذي على شكل أبراج و قد كانت في البداية أبراجا بسيطة لكن العبقرية السلجوقية جعلت منها روائع معمارية و أبراجا ضخمة، و لعل أقدم نصب معروف هو **جنبيدي قابوس** الذي شيد في جرجان على قاعدة نجمية الشكل، يضيق قليلا قليلا كلما إرتفع و ينتهي بقمة مخروطية (أنظر الشكل رقم**35**) أما جدرانه فهي عبارة عن عشرة أضلاع مثلثة كنتوء أو بروز مسنن و هو يعد رائعة من الروائع المعمارية إذ يبلغ إرتفاعه 50م، و لا يحمل الضريح أية زخرفة عدا الشريطين الكتابين بالخط الكوفي (أنظر الشكل رقم **36**).

و قد آثر غرب إيران بالذات النموذج المضلع (المربع أو المثمن أو ذو العشرة **الأ**ضلاع) و أجمل مثال بين الأمثلة،ضريح مؤمنة خاتون في نخجوان و قد شيد في عام 1186. أما الشكل المستدير ذو القمة المخروطية فمحبوب في إيران بصورة خاصة و هو أملس الجسم (كما في دمغان) و مثال ذلك ضريح **علمدار** بدمغان (***Pir - é Alamdar***) (أنظر الشكل رقم **37**) و قد إختفى سقف هذا الضريح.[3]

1- إرنست كونل : نفس المرجع السابق، ص 58.

2- إرنست كونل : المرجع نفسه، ص 58.

3- Henri Stierling : Architecture de l'Islam de l'Atlantique au Gange, office du Livre, Fribourg (Suisse) 1973, p 100.

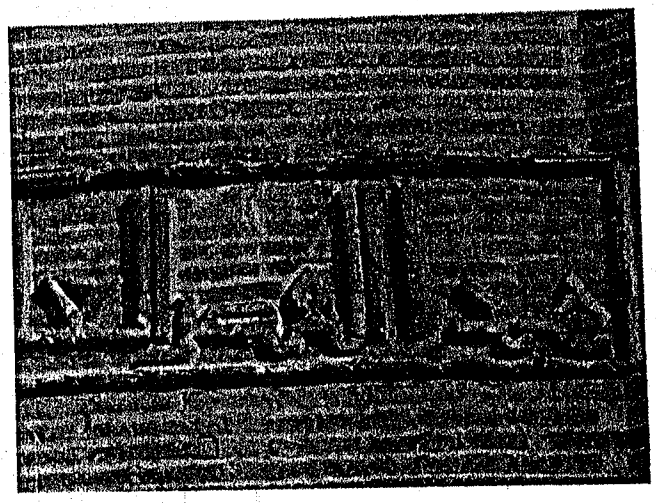

(شكـــــل رقـــم 36) :

شريـط كـتابي على ضريـح جنبيـدي قـابوس في جـرجان

(Henri Stierling : Architecture de l'Islam ..., P 103)

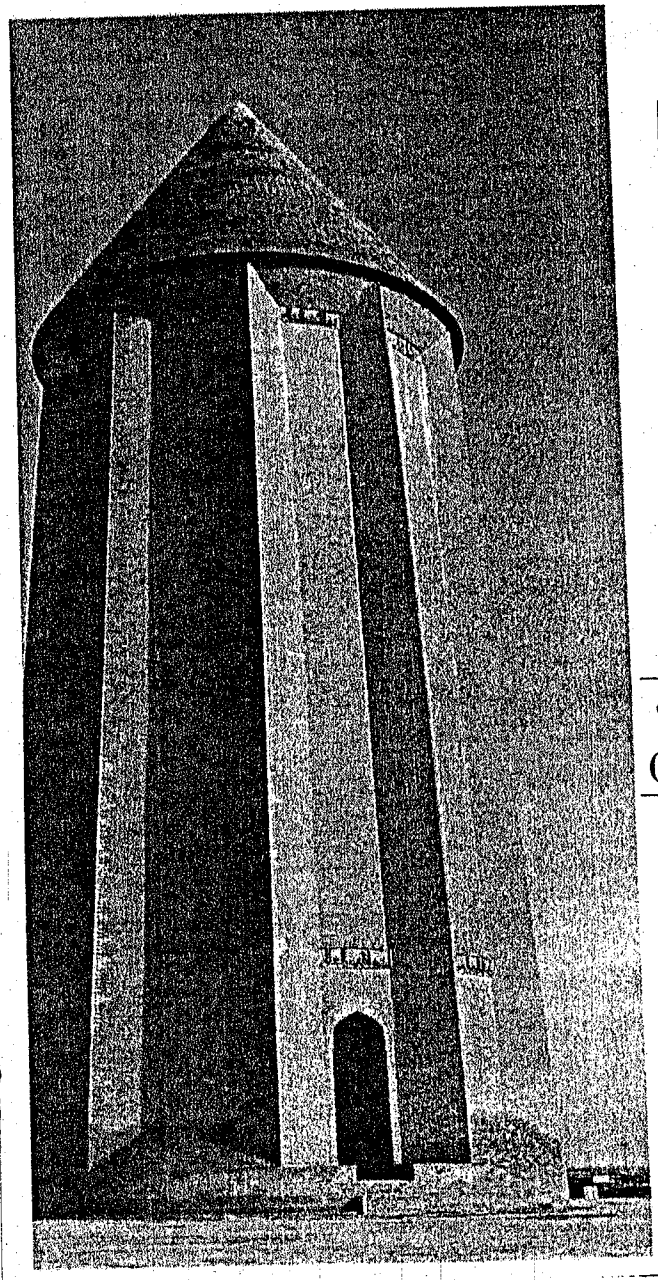

(لـــــوحـــة رقـــم 35) : ضريـح جنبيـدي قـابوس في جـرجا

nri Stierling : Architecture de l'Islam ..., P 103)

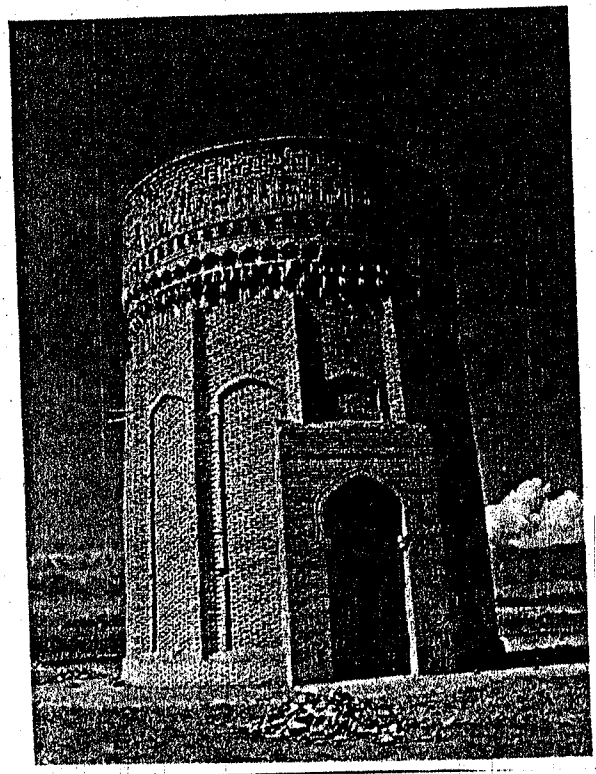

(لـــــوحـــة رقـــم 37) : ضريـح علمـدار بـدمـغان

(Henri Stierling : Architecture de l'Islam .... P 103)

كما ظهر الضريح السلجوقي الذي على شكل برج على مظهر الخيمة الفخمة و البرج مستدير الشكل أو مضلع الشكل.

أما في أرمينيا فنجد البرج السلجوقي المستدير يبنى بناءا أصمّا، و يكسى من الخارج بكل من الحجر و يميل سطحه الخارجي بعض الميل، كضريح كومبت القيصري (***Kumbet de Kayseri***)[1]

كما انتشرت في العراق القبة المقرنصة المرتفعة في عدة مناطق على شكل هرمي، منها ما يبنى فوق قاعدة مربعة الشكل و منها ما يقام على قاعدة مثمنة الأضلاع من الخارج و الداخل كضريح **زبيدة** بالقرب من بغداد [2] (أنظر الشكل رقم **38**).

ـ **الشكل الثاني** : أما شكل القبة فيرجعه (***Diez***) ديتس إلى أن فكرة الأضرحة المقببة مشتقة من نموذج مألوف من المنازل التي كانت تعلوها قباب في المدن الصحراوية الفارسية، و من أروع أمثلة هذه الأضرحة ضريح السلطان "**سنجر**" المتوفي سنة 1157 م و هنا أصبحت الرقبة عبارة عن طبقة منصّة مرتفعة أين نجد القبة مغشاة بصفين من الحنايا لا يدرك من مظهرها الخارجي البادي كطاقية فوق طارة ما في الداخل من تقبية واسعة .. و كذا الضريح الموجود بطوس و الذي يحوي رفات الإمام الغزالي (*) الصوفي الشهير المتوفي سنة 1111 م و هو يشبه بمدخله و بحناياه الجانبية المتسطيلة، و منصته المرتفعة المثمنة الأضلاع،الإيوان.(أنظر الشكل رقم **39**).[3]

1- Henri Stierling : Opcit, p 202.

2- إرنست كونل : نفس المرجع السابق، ص 62.

*- الغزالي : هو الإمام محمد بن محمد بن أحمد الطوسي الغزالي ، حجة الإسلام، ولد بطوس سنة خمسين و أربعمائة ... أخذ التصنيف للأحياء و صار يطوف المشاهد و الترب و المساجد ... و يكلف نفسه مشاق العبادات و من تصانيفه البسيط و الوسيط و الوجيز و الخلاصة و المستصفر و المنخول ... توفي بطوس في الرابع عشر جمادى الآخرة خمسة و خمسمائة، ينظر كتاب زين الدين أبي الفضل : المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخرج ما في الأحياء ما من الأخبار، الجزء الأول، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ص 3-4-5-6.

3- إرنست كونل : المرجع نفسه، ص 62.

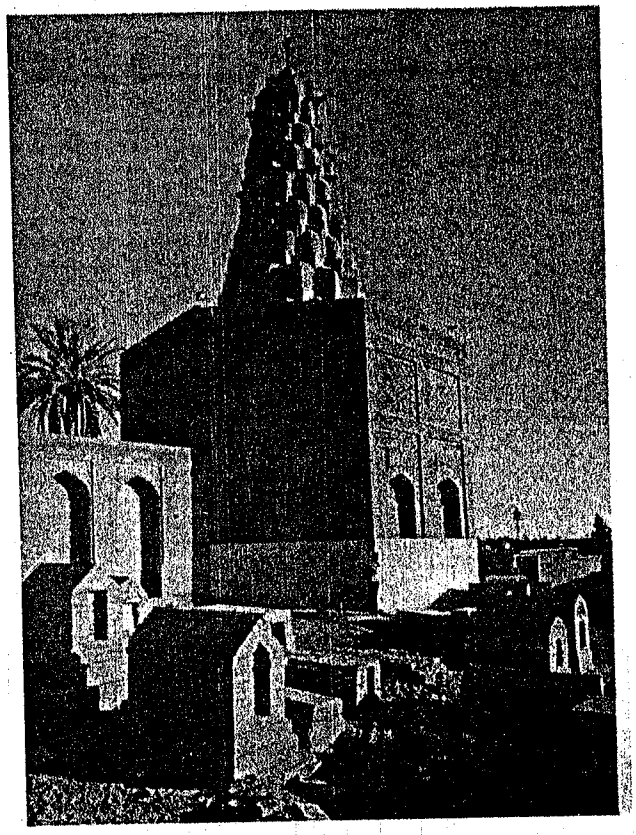

(لـــــوحـــة رقـــم 38) : ضريـح زبيـــدة ببـــغداد

(Henri Stierling : Architecture de l'Islam ..., P 109)

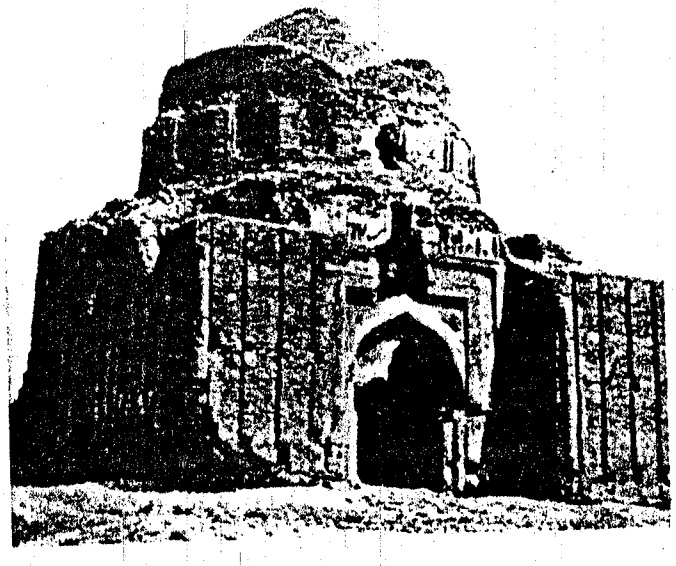

(لـــــوحـــة رقـــم 39) : ضريـح الغـــزالي بـــطوس

(أرنســت كـــونل : (الفـن الإســلامي، ص 76)

د – الأضرحة في العهد المملوكي :

بعد أن وضع صلاح الدين عام 1171 حدا للدولة الفاطمية التي بقيت قرنا كاملا في مصر و أسس دولة إنتسبت إليه و سميت بالدولة الأيوبية قامت بعدها الدولة المملوكية. لقد انحدر المماليك من أصل تركماني و قد كانو في بداية أمرهم رقيقا ثم ارتفعوا إلى مرتبة الزعماء المأجورين و تمكنوا من إنتزاع السلطة لأنفسهم [1] و يصف الدكتور زكي محمد حسن في كتابه فنون الإسلام قائلا : "... لا ريب في أن عصر دولتي المماليك فيما بين عام 648 و 923 هـ (1250–1517م) هو العصر الذهبي في تاريخ العمارة الإسلامية في مصر فقد كان الإقبال عظيما على تشييد العمائر.[2]

و لعل أهمية المماليك تكمن في أن هؤلاء قد أدخلوا إلى مصر الأشكال التركية، فقد تأثرت مصر بالأشكال التركية، كما عرفت طراز الأضرحة ذات القباب من غرب تركستان عن طريق المماليك فقد أصبح الضريح جزء من المسجد كما ذاع بناء المدافن الكبيرة و هي تشبه إلى حد بعيد أضرحة بلاد التركستان، و لكنها تطورت و ارتقى تصميمها في مصر ففي الحقيقة لم تبنى مقابر السلاطين المماليك المصريين لتكون في الأصل أضرحة إلا أننا لاحظنا ظهورها في مدارس فخمة و خانقوات.

و حتى المساجد بنيت كذريعة يخفي وراءها المؤسس رغبته العميقة في أن يدفن فيها و يخلد إسمه،و القاهرة حافلة بهذا النوع من المباني التذكارية و هي تعد أروع مدينة أموات في العالم لوجود عدد ضخم من مقابر الخلفاء. و الحقيقة أنها أضرحة المماليك، و من بين أضخم

1- أرنست كونل : نفس المرجع السابق، ص 904.

2 – الدكتور زكي محمد حسن : فنون الإسلام، ص 71.

المنشآت تلك التي بناها السلطان قلاوون (*) و خاصة الضريح الذي تظهر قاعته قريبة من المربع بها أربعة أعمدة ضخمة و أربعة دعامات و على هذه الركائز الثمانية تستند الرقبة المثمنة بواسطة عقود مذببة (تميل إلى المخموس) و قد فتحت في رقبة القبة ثمانية نوافذ في زوايا المثمن [1] (أنظر الشكل رقم **40**) (أنظر المخطط رقم **41**).

و من أمثلة المدافن أيضا مدفن وخانقاه قايتباي (*) و مدفن بارسباري (*) أما مدفن برقوق (*) فقد أمر بإنشائه الملك الظاهر برقوق قبل وفاته و كاد أن يفعل لولا موته المفاجئ.

و قد تم ذلك على يد ابنه الناصر فرج (*) سنة 813 هـ (1410م)، يقع الضريح في المكان المسمى مقبرة الخلفاء و يحتوي على مسجد كبير و ضريح يرقد فيه السلطان برقوق و أفراد أسرته و خانقاه.[2]

و الضريح مربع الشكل يبلغ طول ضلعه 73م، يقع المدخل في الزاوية الشمالية الغربية للضريح أما المدخل الثاني فمن الجهة الشمالية الشرقية يتألف الضريح من صحن به نافورة

---

*- السلطان : قلاوون ، قائد من قواد المماليك البحرية و من قواد الجيش الذين برزوا في عهد السلطان الملك الظاهر ركن الدين (بيبرس)، ما لبث أن استقل بالحكم سنة 678 - 689 هـ (1279 -1290 م و قد توفي سنة 689 هـ - 1290 م و هو يتأهب لغزو عك، ينظر إلى كتاب علي عبد المنعم شعيب : المختصر في تاريخ مصر (من أقدم العصور حتى الإحتلال البريطاني)، دار إبن زيدون للطباعة و النشر و التوزيع - بيروت لبنان، ص 211-212.

1- Henri Stierling : opcit, p 163.

*- قيتباي : تولى الأشرف "قاتباي" الحكم سنة 873 - 902 هـ 1468 - 1496 م، و هو من المماليك البرجية و يعد عهده أطول هذه الدولة حكما، كان في بداية أمره مملوكا إشتراه "بارسباي" و قايتباي محبا للعمارة و قد قام بترميم العديد من المساجد و المدارس و الحصون و قد توفي سنة 901 هـ/1496م، (ينظر كتاب علي عبد المنعم شعيب : ، نفس المرجع السابق، ص 217-218)

*- بارسباري : تولى الملك سنة 835 هـ/ 1422 م، حكم نحو 16 سنة أي (835-841 هـ : 1422-1438 م) توفي بارسباري سنة 841 هـ/ 1438 م بعد أن اختل عقله (أنظر كتاب علي عبد المنعم شعيب : نفس المرجع السابق، ص 216-217).

*- برقوق : هو الملك الظاهر سيف الدين "برقوق" خلع آخر المماليك البحرية و تولى الملك و هو ينتمي إلى المماليك البرجية. و عندما تهدد البلاد خطر إغارة التاتار بقيادة "تيمور لنك"، إمتنع برقوق عن تسليم مصر إليهم و اتحد مع أمراء شمالي الشام و سلطان العثمانيين. توفي سنة 801هـ/ 1399 م) للسلطان "برقوق" مبان عظيمة، منها مدرسته العظيمة بين القصرين بالنحاسين الشهيرة بجامع برقوق (ينظر كتاب علي عبد المنعم شعيب : نفس المرجع السابق، ص 216).

*- الناصر فرج : هو ابن السلطان "برقوق" و هو الذي قام بأمور الدولة بعد وفاة والده، و قد انتقم الناصر فرج لأبيه من الشراكسة لنكرانهم أفضاله عليهم و هذا هو تفسير نجاح الشراكسة في خلع السلطان فرج و مقتله. و من مخلفاته المدفن ذو القبتين بالجبانة الشرقية خارج القاهرة المعروف أيضا بجامع "برقوق" ، توفي في شوال من سنة 801 هـ (ينظر إلى كتاب الدكتور "عبد القادر أحمد اليوسف" : علاقات بين الشرق و الغرب بين القرنين الحادي عشر و الخامس عشر، منشورات المكتبة العصرية، صيدا - بيروت 1969، ص 67-69.

2- إرنست كونل : نفس المرجع السابق، ص 106.

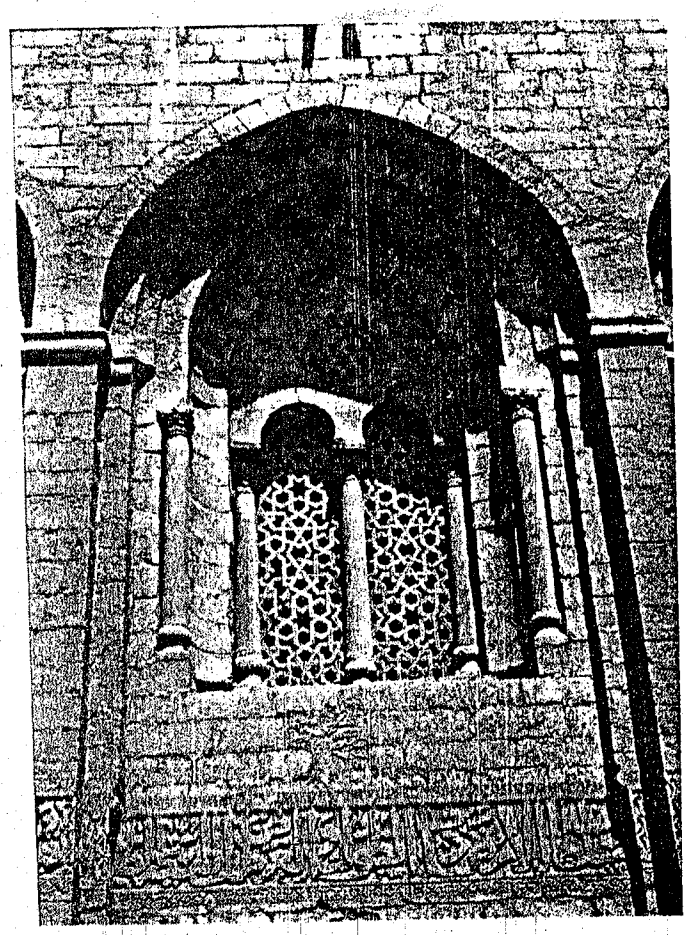

(شكـــــل رقـــم 40): واجـــهة ضريـــح الســـلطان قلاوون بوسط القـــاهرة

(Henri Stierling : Architecture de l'Islam ..., P162)

(لـــــوحـــة رقـــم 42) : مـــدرسة الســـلطان حسـن بالقـــاهرة

(Henri Stierling : Architecture de l'Islam ..., P172)

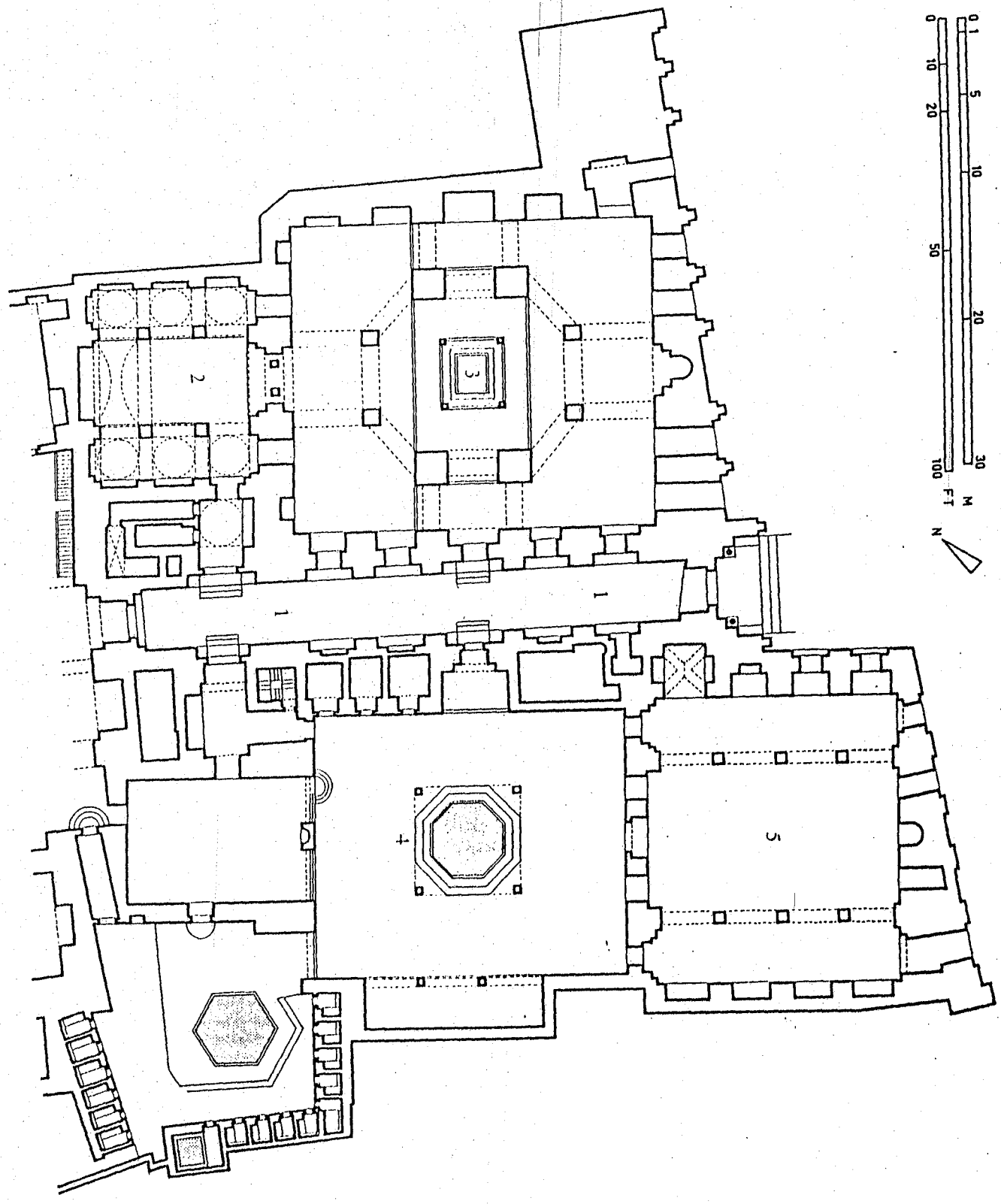

(شكـــــل رقـــم 41) : مخـــطط مجـــمع قـلاوون بالقـــاهرة

(Henri Stierling : Architecture de l'Islam ..., P164)

للوضوء، تتقدمه في الجهة الجنوبية قاعة للصلاة، في الجهة الموازية لقاعة الصلاة يوجد ضريحان مغطيان بقبة يبلغ قطر القبة حوالي 15 م و ترتفع عاليا بحوالي 35 م و هي مثمنة الشكل.[1]

من أعظم المدافن المملوكية مدفن قايتباي، الذي بني سنة 489 هـ (1474 م) و يتألف أيضا من مدرسة و سبيل و مكتبة و قبة، و يتجلى جمال هذا المبنى في جمال النسب في عمارته.[2]

رائعة أخرى من الروائع المملوكية و هي مدرسة **السلطان حسن** [*] (أنظر الشكل رقم **42**) بنيت بين سنتي 1356 و 1363، تصميمها على هيئة صليب لاتيني، تملأ أركانها مجموعات مبان خصصت لتدريس المذاهب السنية الأربعة و يشتمل كل من هذه البنايات على صحن صغير و قاعة للدرس و غرف من عدة طبقات، أما الضريح فيقع في إتجاه القبلة مكونا إمتدادا لإحدى أذرع الصليب، كما أنه يعتبر عنصرا بارزا من المدرسة التي تحتوي على منارتين تتمركز على يمين و شمال القبة، أما قبة الضريح فيبلغ إرتفاعها (50 م).[3]

لقد اتخذت القبة في الأضرحة المملوكية شكل الحذوة فقامت على قاعدة مضلعة أو أسطوانية مكونة في الغالب من مقرنصات مصحوبة بمثلثات كروية.[4]

كما شاع عمل القباب في القاهرة حتى في زمن العثمانيين، و ارتكزت القباب التي تشبه في شكلها خوذات المماليك، فوق رقبات أسطوانية عالية و قد أعطت المقابر التي من هذا النوع لقاهرة القرن الخامس عشر مظهرا جديدا.[5]

و هذه المباني كثيرة الشبه مع تلك الموجودة في شاه زنده.

1- Henri Stierling : Opcit, p 177-182.

2- إرنست كونل : نفس المرجع السابق، ص 106.

*- السلطان "حسن" : هو الملك "ناصر حسن" حفيد "قلاوون" و إبن محمد الناصر و هو باني المدرسة العظيمة التي لم يخلف السلاطين أعظم منها بناءا و لا أتقن صناعة و هي المشهورة الآن بجامع السلطان "حسن" (بجوار قلعة القاهرة) و بحكمه إنقرضت هذه الدولة و استولى المماليك الشراكسة على الحكم (ينظر كتاب علي عبد المنعم شعيب : نفس المرجع السابق، ص 213).

3- Henri stierling : Ibid, p 171-172-174.

4- إرنست كونل : المرجع نفسه، ص 106.

5- أوقطاي آصلان آبا : نفس المرجع السابق، ص 39.

2- الأضرحة ما بين القرن (8 و 12 هـ) :

أ- الأضرحة العثمانية :

بعد إغارة المغول على دولة السلاجقة في آسيا الصغرى و نجاحهم في القضاء عليها في بداية القرن الثامن الهجري قامت الدولة العثمانية بواسطة عثمان بن أرطغول و بسط هؤلاء نفوذهم على أقطار العالم و ما فتئوا أن أخذوا لقب الخلافة الإسلامية.[1]

و لقد كانت العمائر العثمانية إمتدادا للفن السلجوقي الذي كان سائدا إلا أنه حدث إزدهار رائع في كل مجالات الفن التركي الذي قام منذ أوائل ظهوره على قواعد راسخة الأصول.[2]

أما الأضرحة العثمانية فكانت جزء من المساجد الكبيرة التي يشيدها السلاطين تربة لأفراد أسرهم. أما من أكثر التطورات التي ميزت النصف الثاني من القرن الرابع عشر الأضرحة ذات السقفية و المكونة من قبة محمولة فوق أربعة عقود. و لعل أول ضريح عثماني ذو قيمة معمارية هو ضريح **بايازيد الأول** كما أنه تم بناء ضريح السلطان محمد جلبي و هو عبارة عن مخطط مثمن الشكل تعلوه قبة مخروطية قطرها 15 م تستقر على رقبة عالية و يسمى هذا الضريح بالقبة الخضراء متخذا هذه التسمية من لون البلاطات الخزفية الفيروزية التي تكسوها من الخارج كما تظهر روعة التابوت أو الناووس المكسو بالبلاطات الخزفية حيث يرقد السلطان [3] هناك أيضا مقبرة السلطان محد الفاتح و مقبرة زوجته كلبهار خاتون الذان يتوجدان خلف محراب المسجد الذي ينتسب إلى محمد الفاتح بإستانبول، كما لن تفوتنا الإشارة إلى ثلاث من الأضرحة ترجع إلى أواخر القرن الخامس عشر و هي ضريح **محمود باشا** و **ذوود باشا** و هما بإستانبول و **روم محمد باشا** في اسكدار و تعد روائع من الناحية المعمارية.

1- أوقطاي آصلان آبا : نفس المرجع السابق، ص 57.

2- إرنست كونل : نفس المرجع السابق، ص 165.

3- أوقطاي آصلان آبا : المرجع نفسه، ص 227.

إن الحديث عن الأضرحة العثمانية يطول و سوف نختصره في ذكر بعض الأضرحة المعروفة لسلاطين أو أبناءهم كضريح السلطان **محمد الثالث** و السلطان **أحمد** و التي تضم مجموعة من المقابر و عددها 36 قبرا من بينهم السلطان **عثمان الثاني** و السلطان **مراد الرابع** و مؤسسها السلطان **أحمد الأول** و زوجته **خصكي كوسيم سلطان** و غيرها. [1]

ب ـ الأضرحة الصفوية :

في سنة 1502 قامت بإيران أسرة ملكية شيعية أسسها الشاه إسماعيل الصفوي المنتمي إلى ولي في أردبيل يدعى الشيخ صفي، و بعد حرب مع العثمانيين إضطر الصفويون إلى الإرتداد داخل حدود إيران الطبيعية حيث عملوا على إزدهار الثقافة بين الشعب و المثل الوطنية العليا [2] هكذا إذن نمت ثقافتهم و تقاليدهم الوطنية نماء لا مثيل له خاصة في عهد الشاه عباس الأكبر ثم إنتقلت العاصمة من تبريز إلى إصفهان في نهاية القرن العاشر الهجري 16 الميلادي.[3]

و قد احتلت الأضرحة مرتبة مهمة و مكانة علية في العمارة الصفوية و إكتفى في هذه الفترة بالشكل المعروف بإسم "إمام زاده" مع توسيع فيه في غرب إيران بإضافة ردهة إلى بنائه لتحويله إلى بناء مقبب مدينة، بينما إنتشر في الشرق طراز الجوسق المثمن الأضلاع المشتمل على حنايا إيوانات مسطحة.

و من أروع الأضرحة الصفوية ضريح الشاه زاده حسن (بخسفان) شيد تحت حكم الشاه تهمسب (***Tahmasp***) و يعد من الأمثلة الرائعة للفن الشيعي الإيراني في الحقبة الصفوية بفضل رواقه المغطى و المحمول بواسطة أعمدة من الخشب، زخرفته رائعة يتمازج فيها الخزف و الزجاجيات متعدد الألوان (أنظر الشكل رقم **43**).[4]

1- أوقطاي آصلان آبا : نفس المرجع السابق، ص 218.

2- إرنست كونل : نفس المرجع السابق، ص 138.

3- Henri stierling : opcit, p 112-113.

4- Henri stierling : Ibid, p 113-116.

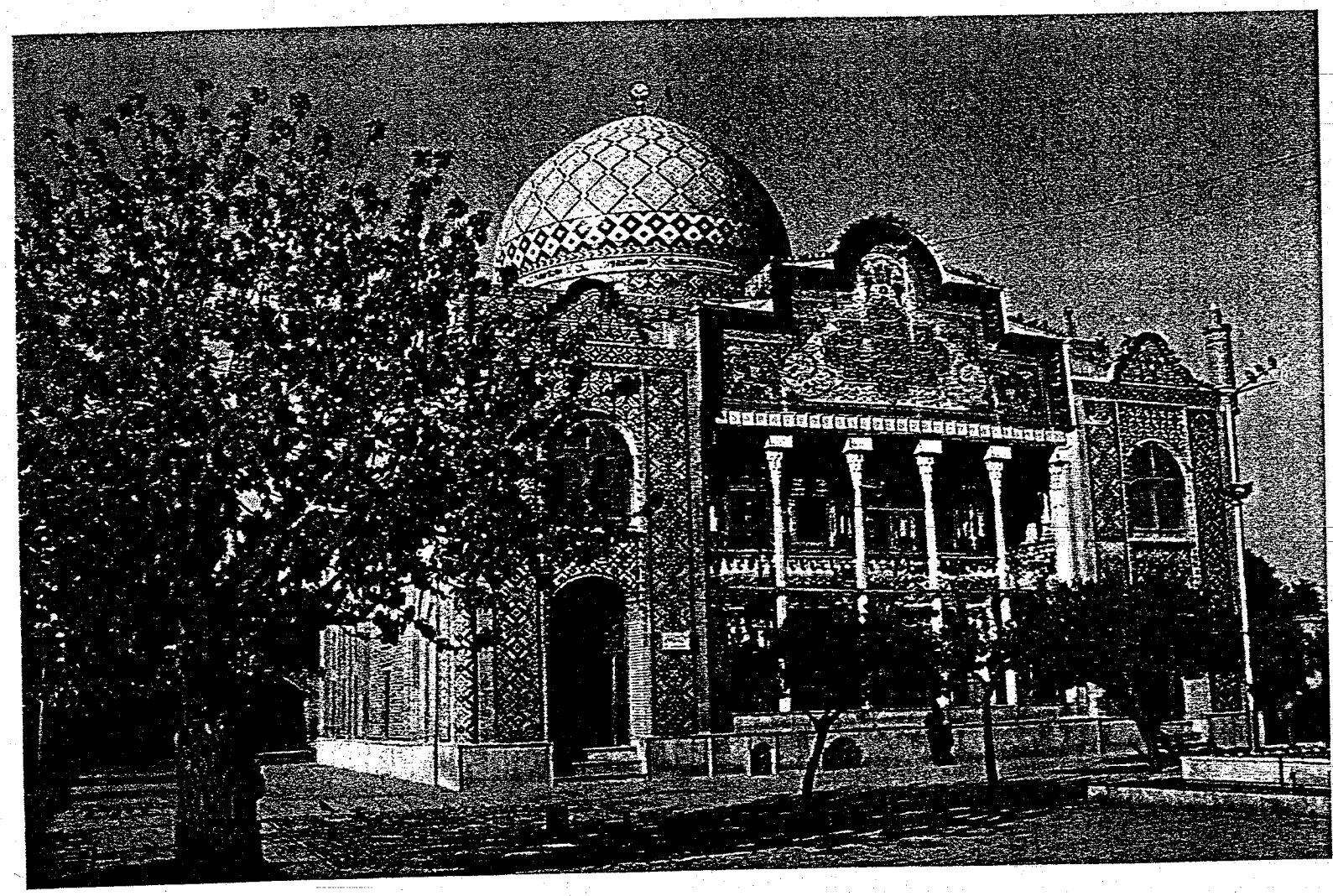

(لـــــوحـــة رقـــم 43) : ضريـح الشاه زاده بخسفـان

(Henri Stierling : Architecture de l'Islam ..., P117)

إن المشاهد و الأضرحة الصفوية لم تكن بحاجة إلى التستر وراء منشآت أخرى للخدمات الإنسانية و المرافق العامة كما رأينا في مصر و في عصر الدولة الأيوبية بل كانت تبنى في وضوح و صراحة. كما نجد نموذجا غريبا مثيرا للإهتمام من نماذج المقابر لأنه ينطوي على مزيج من مبدأين متعارضين : المبدأ السني الأيوبي الذي يجعل المقابر ملحقة بمبان أخرى لها طابع إنساني في خدمة الجمهور و المبدأ الشيعي الجريئي الذي اتخذ من الأضرحة بيوتا واجبة التقديس.[1]

جـ ـ الطراز الفارسي المغولي :

إذا كان سلطان السلجوقين قد حجب الخلافة العباسية و أضعفها و إن أبقى على الأقل سلطتها الروحية، فإن الغزو المغولي الكبير حوالي منتصف القرن الثالث عشر قضى أيضا على هذه البقية الباقية من عز قديم قضاء مبرما، كما فعل بكثير غيرها ... و أسست بزعامة الجبار جنكيزخان في حملة غزو واحدة لم يسمع بمثل جرأتها.[2]

و قد عرفت العمارة الجنائزية بفضل الحملة المغولية مظهرا رائعا و أصبحت سمرقند عاصمة تيمورلنك من أفخم و أعظم العواصم.[3]

أما فيما يخص الأضرحة في هذا العصر فقد استبقي نموذج البرج في المنشآت السلجوقية في بادء الأمر و لكن ضريح **أولجاتيو خوده بنده** قد فتح عهدا جديدا للعمارة التذكارية و ضريح **أولجاتيو خوده بنده** بالسلطانية كان مشيدا للإمامين الشيعيين علي و الحسين حتى يصبح محل حج الشيعة إلا انه لم يتحقق له ذلك و دفن هو نفسه فيه.[4]

1- ثروت عكاشة : نفس المرجع السابق، ص 139.

2- إرنست كونل : نفس المرجع السابق، ص 86.

3- henri stierling : opcit, p 102-104.

4- Henri stierling : Ibid, p 102-104.

و ما يلفت النظر في هذا الضريح توكيد عمودية قبته التي يبلغ قطرها 24,5 م و إرتفاعها 50 م المدببة المكتفة بثماني دعائم متوجه على هيئة المئذنة، و مخطط هذه القاعة مثمن الشكل [1] (أنظر الشكل رقم **44**).

و قد أصبحت سمرقند بفضل مدافن شاه زنده مدينة فريدة من مدائن الأموات في العالم, من أشهر الأضرحة أيضا الضريح المعروف بـ "**غورامير**" (أو ضريح الأمير) المثمن الشكل، يبلغ قطر أضلاعه العشرين مترا تقريبا [2] و به رقبة أسطوانية و قبة محززة تحزيزا بديعا مشدودة نوعا ما على هيئة الخيمة مع واجهة إيوان و يتم الوصول إلى المثمن عن طريق حنايا مقبوة، و تقوم قبته الفارسية الطابع فوق منطقة الإنتقال ذات الستة عشر ضلعا (أنظر الشكل رقم **45**) (المخطط رقم **46**).

د ـ الطراز المغولي في الهند :

على غرار العمارة الصفوية احتلت الأضرحة مكانة الصدارة في العمارة بالهند و تميزت هذه الأضرحة بفخامة الأشكال إصطبغت بصبغة الأهمية من الناحية المعمارية فالقباب مثلا ظهرت تشبه زهرة اللوتس أبو البصلة، و على غرار كل المدافن عرفت مدافن الحكام المركز الأول و ارتبطت بالأضرحة هندسة الحدائق الهندية على شكل جواسق مربعة بها بوائك من العقود المدببة، كانت تقام وسط الماء أو بين روضة غنّاء.[3]

و من أهم هذه البنايات التي وجدت في القرن السادس عشر الميلادي ضريح شيرشاه في (ساهسارام) و يبدو كتلة منسقة بارزة من الماء تحف به شرافات بديعة رائعة.[4]

و لعل أروع الأبنية في هذا النوع "تاج محل" قرب أجرا و التي شيدها "شاه جهان" (1630-1648م) تخليدا لذكرى زوجته الجميلة "تاج محل" التي توفيت شابة. محاط بحدائق رائعة توصل إليها

1- رنست كونل : نفس المرجع السابق، ص 88.

2- Henri stierling : Opsit, p 104.

3- إرنست كونل : المرجع نفسه ، ص 153.

4- إرنست كونل : المرجع نفسه، ص 153.

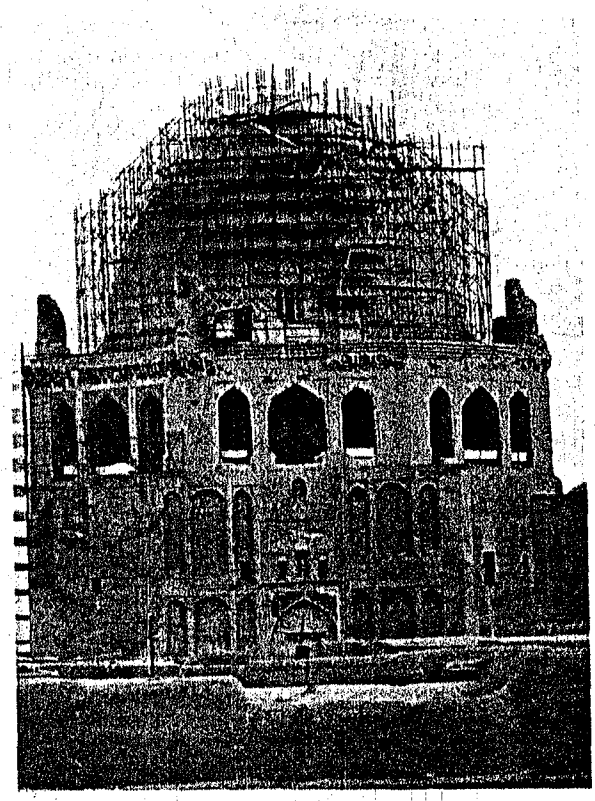

(لـــــوحـــة رقـــم 44) : ضريـح أولجايتو خوده بنده بالسلطانية

(Henri Stierling : Architecture de l'Islam ..., P113)

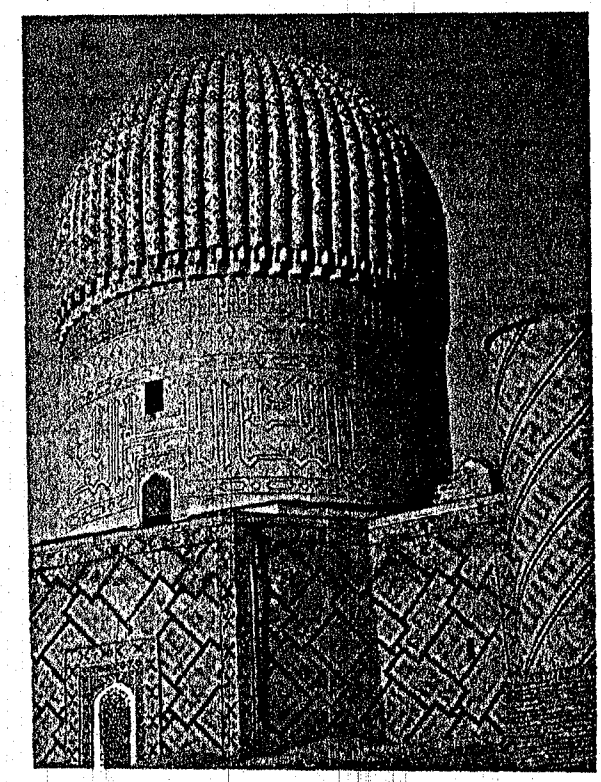

(لـــــوحـــة رقـــم 45) : ضريـح تيـمور بسمرقـند

(Henri Stierling : Architecture de l'Islam ..., P113)

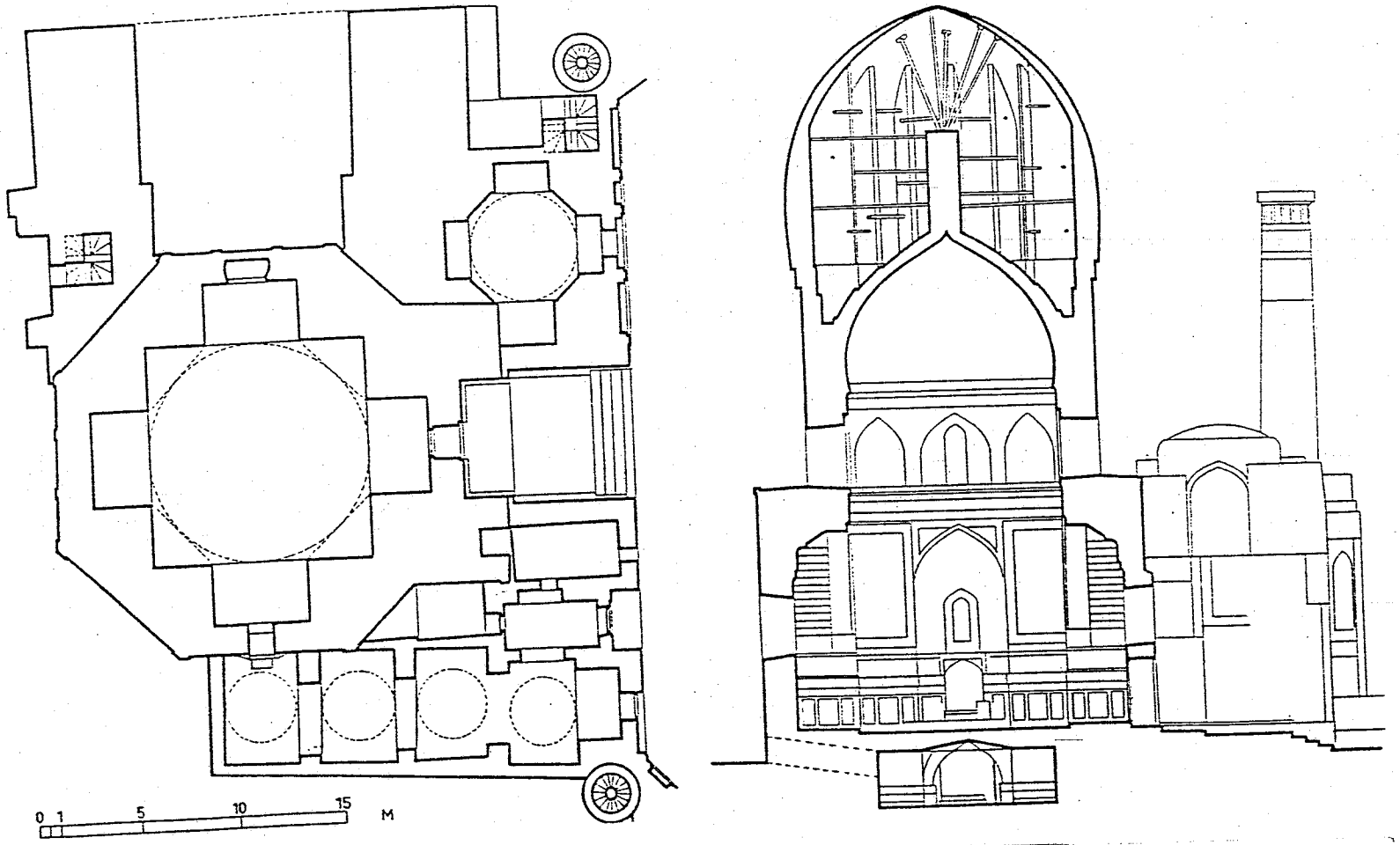

(شكـــــل رقـــم 46) : مخـــطط ضريـــح غورامـيـــر بـــسمرقنـــد

(Henri Stierling : Architecture de l'Islam ..., P107)

مرآة مائية تحف بالسرو (*) نجد الضريح من الرخام الأبيض ببسط واجهته المثقوبة (المخرمة) بواسطة رواق من المقرنصات [1] (أنظر الشكل رقم 47).

و يبدو الطابع الإيراني واضحا في واجهته وحدها، بينما يغلب الطابع الهندي على ما عداها في الأركان المائلة و محيط القبة، و تشكيل أبراج الزوايا الأربعة، و كذلك في الأبنية الداخلية و الضريح في مجموعة يوحي بعبقريته مبتكرة.[2]

بين رافض للأضرحة الضخمة و مشيد لها وجدت هذه الأخيرة في الشرق الإسلامي بكثرة و احتلت مكانة الصدارة عند بعض الشعوب الإسلامية كالسلاجقة الذين أبدعوا فيها و جعلوا منها روائعا معمارية تستوقف الأفئدة قبل العيون بجمالها و زخارفها و تناسق بناءها، و لعل السبب الجوهري في هذه الأضرحة المتبانية راجع إلى النزعة الدينية الشيعية التي أصبغت على الأضرحة ظاهرة القدسية و أفرطت في إظهارها بمظهر يبث الهيبة و الإحترام و من هذه الأمثلة الأضرحة أو المشاهد التي شيدها الفاطميون للأموات من سلالة علي كرم الله وجهه، في حين رفض الأيوبيون بقيادة صلاح الدين الأيوبي هذه المشاهد و حاولوا إقتلاع الولاء لها من قلوب الناس.

لقد تشابهت الأضرحة في الشرق الإسلامي في أدوات بناءها مع أن الملاحظ أن السلاجقة و المماليك و الصفويون قد أبدعوا في تشييدها و تزيينها.

---

*- السرو : شجرة من الفصيلة الصنوبرية.

1- Georges Marçais : l'Art Musulman, presses universitaire de France 108, Boulevard Saint-Germain paris 1962, p 152.

2- إرنست كونل : نفس المرجع السابق، ص 154.

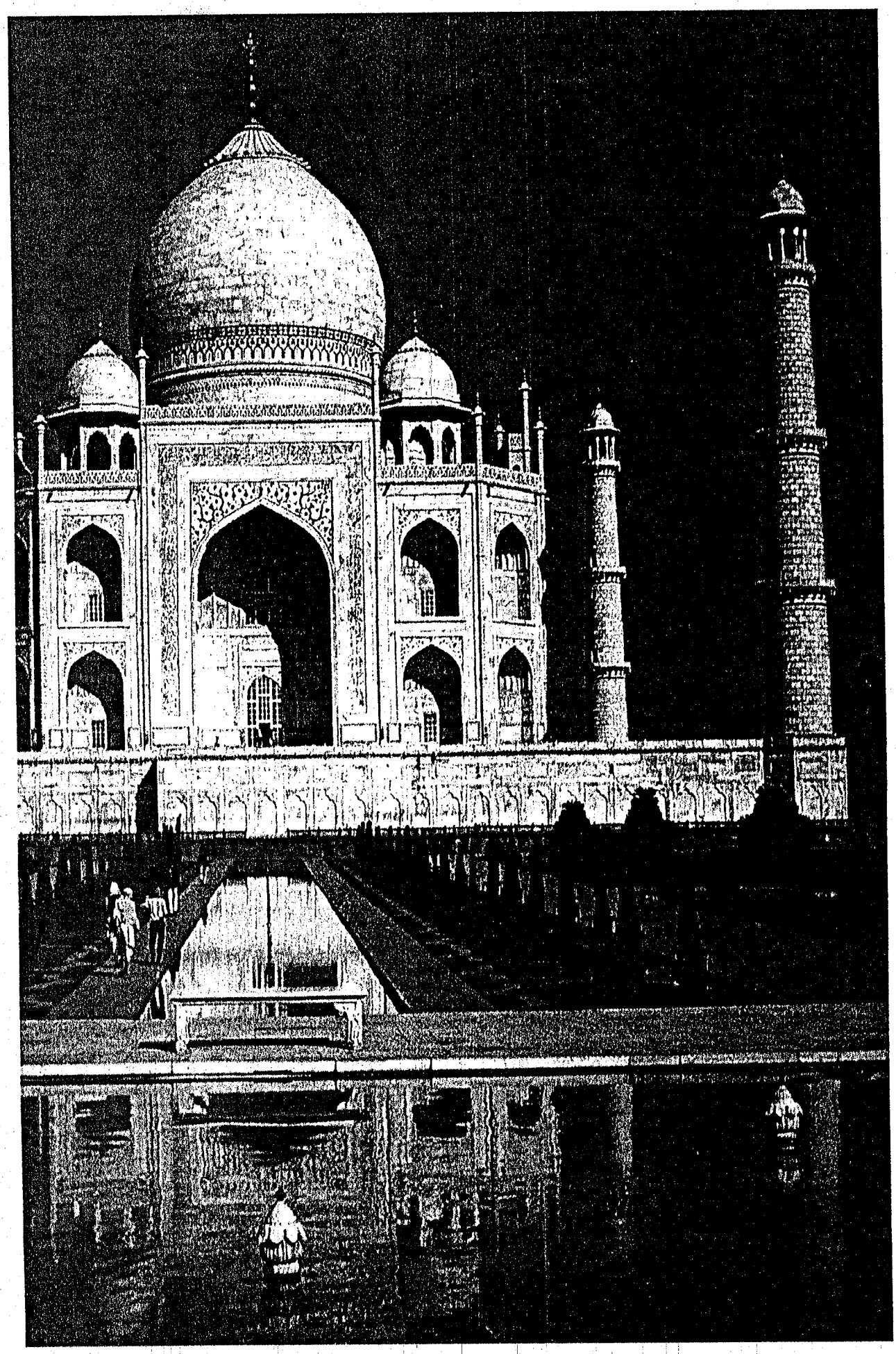

(لـــــوحـــة رقـــم 47) : ضريـح "تـــاج محـــل"

(Henri Stierling : Architecture de l'Islam ..., P260)

إن الدولة الزيانية في بداية عهدها كانت بطيئة الحركة في مجال الفنون، ففي عهدي أبي حمو موسى الأول و ابنه أبي تاشفين، عرفت الفنون تقدما بطيئا للغاية بتلمسان، لأن الشعب الذي جعل من المدينة مركز سلطانه، كان لا يزال يحتفظ بخشونة الحياة البدوية.[1]

و لعل أوج التقدم الذي عرفته الدولة الزيانية، كان بفضل أبي حمو موسى الثاني الذي أعطى لتلمسان وجها جديدا و حباها بمعالم رائعة بقيت شاهدة على عبقريته و ذوقه الغني الراقي، و نحن إذ نتحدث عن هذا الأخير، لا ننكر فضل سابقيه الذين أثرو المدينة كأبي حمو موسى الأول و ابنه أبو تاشفين، و لكننا نصب إهتمامنا على أبي حمو موسى الثاني لكونه مؤسس **المدرسة اليعقوبية** الذي دفن فيها الشيخ سيدي إبراهيم المصمودي ضمن "روضة آل بني زيان". و سوف لن نطيل في هذا السياق لأننا قد تعرضنا له في فصل سابق، و لكن لا بد من الإشارة إلى الأبعاد التاريخية التي ساهمت في تكوين هذه الشخصية الفذة التي أحبت المعمار و ساهمت في إثرائه، لقد شب أبو حمو موسى الثاني بغرناطة، و لعل ذلك كان في عهد إزدهار هذه الأخيرة التي كانت في أوج حضارتها و مجدها، فاستنشق الشاب من هوائها حبه العميق للفنون و الآداب فأخذ عن سلاطينها الذوق الرفيع و الحب للعمارة و البناء و ربما يرجع أيضا إلى إحتكاكه بالمجلس الحفصي بتونس.[2]

لقد كانت لفترة شبابه التي قضاها بغرناطة دورا أساسيا في صقل شخصيةالفذة فهو الذي شيد بتلمسان المدارس و المساجد و البيوت ... إلخ.

و لعل حديثنا عن أبي حمو موسى قد طال و هذا من أجل إبراز مدى تأثير البيئة في صقل شخصية المؤسس و مدى تأثير تفاعلاتها عليه. و سوف نتحدث عن العناصر المعمارية الزيانية، التي تعد إمتدادا للعناصر التي كانت موجودة بغرناطة فيما بعد، و لعل ما يهمنا الآن هو الحديث عن

1- William et Georges Marçais : Les monuments ..., p 35-36.
2- BARGES : Complément de l'histoire ..., p 149.

مؤسس ضريح سيدي الحلوي و هو أيضا سلطان زياني، ينتمي للفترة الأولى من حكم الزيانيين ألا و هو السلطان **أبو زيان محمد بن عثمان**، حفيد يغمراسن الذي عاشت في عهدته تلمسان حصار السبع سنوات و لعل هذا ما جعل من الظروف الصعبة عائقا حال دون ظهور ضريح مشيد بطريقة تجلب الأنظار فضريح سيدي الحلوي بسيط للغاية إذا ما قورن بالضريحين الآخرين سيدي أبي مدين و سيدي إبراهيم المصمودي، فقد أنشأ فقط من أجل لم اشلاء جثة الولي سيدي الحلوي الذي قتله السلطان ظلما، أما المؤسس الثالث و الذي لا يعد الوحيد الذي ساهم في بناء سيدي أبي مدين. إلا أنه أحسنهم إبداعا و أوفرهم إثراءا لهذا المعلم (الضريح) ألا و هو السلطان **أبو الحسن المريني** الذي ينتمي لقبيلة بني مرين.

لقد كان أبو الحسن المريني ذلك السلطان التقي الودع و مع خصاله الكريمة فقد كان مولعا بالعمران و التشييد و لم يكن بناءه لمسجد سيدي أبي مدين حذاء ضريح الشيخ أبي مدين محض صدفة بل كان تجسيما لورع السلطان و تقواه و تعظيما لذلك الولي الصالح.[1]

و ما يهمنا في حديثنا حول هذه الشخصية (أبو الحسن المريني) هو أنه استقى هذا الشغف بالعمران من بيئته حيث أن بنو مرين قد عاشوا بالمغرب الأقصى و اختاروا مدينة فاس عاصمة لهم و خلال هذه الفترة تركوا لنا روائع معمارية بقيت شاهدة على حسن استيعابهم لفنون عصرهم.

و تجدر الإشارة إلى أن الفن قد عرف مع الدولة المرينية، أوج العظمة و التقدم و خير دليل على ذلك ما خلّفه لنا أبو يعقوب بالمنصورة، كما خلف لنا أبو الحسن المريني ما يفوق كل اعتبار فقد رمم ضريح سيدي أبي مدين و حلاه و أنشأ مجمعا معماريا حقيقيا يشتمل على مسجد و قصر و حمام عمومي و مدرسة [2] و بعده ابنه أبو عنان فارس الذي أنشأ مسجدا يحاذي ضريح سيدي الحلوي، و هو المسجد الرائع الذي يحمل إسم الولي صاحب الضريح تكريما له.

1- سيدي محمد الغوتي بسنوسي : نفس المرجع السابق، ص 353-354.

2- سيدي محمد الغوتي بسنوسي : المرجع نفسه، ص 353-354.

و من خلال هذه النبذة القصيرة حول الشخصيات التي شيدت الأضرحة، يتبين لنا أن لعامل البيئة دورا أساسيا في صقل شخصية المؤسس **فأبو حمو موسى الثاني** الذي شب بالأندلس قد انطبع بالفن الأندلسي، و لم يكن الوحيد، فالفن الزياني جله مستمد من الفن الأندلسي، إلا أن أبا حمو موسى الثاني قد ساهم في إثراء تلمسان مستغلا كل الإمكانيات المادية و البشرية، و قد نعمت تلمسان في عهده بالأمن و الإزدهار، و كذا أبو الحسن المريني الذي ورث عشق الفنون من أجداده المرينين قد أثرى تلمسان بأجمل ما يوجد اليوم لدينا بتلمسان مسجد سيدي أبي مدين الذي بقي محافظا عن طابعه الأصلي و الأصيل و الذي لم تطله الأيادي. و ما عمل أبو الحسن المريني سوى انعكاس صادق للفن المريني المزدهر و الراقي برقي حضارة المغرب الأقصى أما ضريح سيدي الحلوي الذي شيده السلطان أبو زيان محمد بن عثمان حفيد يغمراسن فيظهر بسيطا يعكس عدم الإستقرار السياسي و الإجتماعي و بالتالي ضعفا ظاهرا في الفنون.

2- مقارنة الأبعاد المعمارية و الفنية بين الأضرحة :

تتم المقارنة بين الأضرحة المدروسة، من الناحية المعمارية من أجل إلقاء الضوء على أهم العناصر المعمارية و الفنية التي استعملت في تشييد هذه الأضرحة مع الحديث عن أوجه الشبه و أوجه الإختلاف.

2-1- المخطاطات (الشكل و تقسيمات الضريح) :

ظهرت الأضرحة المدروسة بنوعين من المخططات :

أ- الأضرحة المغطاة بقبة :

يحتوي مخططي ضريح سيدي أبي مدين و ضريح سيدي إبراهيم على صحن يسبق قاعة الدفن. صحن ضريح سيدي أبي مدين دو مخطط قريب من المربع يبلغ طوله 5,40 م، أما مدخل قاعة الدفن ففي ضريح سيدي أبي مدين يقع على يمين المدخل، في حين نجد قاعة الدفن بضريح

سيدي أبي مدين ذات مخطط مربع الشكل تقريبا يبلغ طولها 6,50م و عرضها 6,30 م بها ثلاث حنيات جدارية و تعلوها قبة أما صحن سيدي إبراهيم فذو مخطط مربع الشكل طول ضلعه 5,65 م، أما مدخل قاعة الدفن فمقابل مباشرة بباب المدخل الرئيسي. قاعة الدفن بضريح سيدي إبراهيم قريبة من المربع يبلغ طولها 8,30 م بها ثلاث حنيات جدارية يبلغ إرتفاعها 3,18م و عرضها 2,42م أما عمقها فالبنسبة للحنية التي تقع على يسار المدخل فيبلغ عمقها 54 سم، أما الحنية المقابلة لمدخل القاعة و التي على شكل محراب فيبلغ عمقها 60 سم، الحنية الثالثة و التي تقع على يمين المدخل هي الأكثر عمقا إذ يبلغ عمقها 87 سم.

لا بد من الإشارة إلى مدى تشابه مخطط ضريح سيدي أبي مدين و سيدي إبراهيم مع مخططات الأضرحة المملوكية، إذ أن الأضرحة في العصر الأيوبي أصبحت جزءا من المساجد و واصلت على نفس المنوال في العصر المملوكي أين نجد الضريح جزءا من المسجد و مرافقه. فمثلا في مخطط مدرسة السلطان حسن الموسومة بسمة المدرسة الضريحية نجد بها مبان خصصت لتدريس المذاهب السنية الأربعة، يشتمل كل من هذه البنايات على صحن صغير و قاعة للدرس و غرف من عدة طبقات [1] ولعل مجمع سيدي أبي مدين هو الأقرب إلى مخطط مدرسة السلطان حسن إذ أنه يحوي المدرسة بغرفها و من حسن الحظ أن هذا المجمع قد بقي شاهدا لم يختفي كما اختفت المدرسة اليعقوبية بمسجد سيدي إبراهيم المصمودي، كما نجد نفس المجمع مع بعض الإختلاف في الأضرحة العثمانية التي تعد وثيقة الصلة بالمساجد كضريح محمد الفاتح و ضريح زوجته كلبهار فاتون الذان يتواجدان خلف محراب المسجد الذي ينتسب إلى محمد الفاتح بإستانبول.[2]

1- إرنست كونل : نفس المرجع السابق، ص 106.

2- أوقطاي آسلان آبا : نفس المرجع السابق، ص 227.

ب ـ الأضرحة المغطاة بسقف هرمي :

مخطط ضريح سيدي الحلـوي مستطيل الشـكل يبلـغ طـول الغرفـة 7,30م و عرضهـا 2,05م و يشتمل على صحن بل يتألف من غرفـة الدفـن فقـط. بـالضريح ثـلاث كـوات جداريـة، الكـوة الأولى التي تقع في الجدار الجنوبي الغربي يبلغ عرضها 45سم أما عمقها 32 سم، أمـا الكـوة الثانيـة المتواجدة في جـدار القبلـة فيبلـغ عرضهـا 55 سـم و عمقهـا 35 سـم. في حـين نجـد الكـوة الثالثـة و الأخيرة في الجدار الشمالي الشرقي فيبلغ عرضها 25 سم و عمقهـا 35 سـم، يغطـي هـذه الغرفـة سقف هرمي الشكل يكسوه قرميد بنيّ.

2-2- العناصر المعمارية :

أ ـ المـــحاريب :

تطورت عمارة المساجد، و زادت فيها أجزاء العمائر المسيحية، و المحراب قـد يكـون منقـولا عن حنية في صدر الكنيسة متجهة في معظم الأحيان إلى الشرق أي إلى بيت المقدس[1]، و المحـراب تجويفة مضعلة أو نصف دائرية يكتنفها عمودان يقف بهما الإمـام للصـلاة بالجماعـة و يـدل علـى جهة القبلة. و قد سهر المهندس المسلم على إبراز هذا العنصر المعماري، فأبدع في زخرفة التجويفة و إطارها بزخارف متنوعة جصية أو من الفسيفساء أو الخزف. تطور المحراب من التقاليد المسـيحية و غير وجهته شطر المسجد الحرام و أصبـح عنصـرا معماريـا أساسـيا في عمـارة المسـاجد.لاحظنـا وجوده في الأضرحة، فقد بني في ضريـح سـيدي إبراهيـم و سـيدي أبـي مديـن علـى شـكل حنيـة جدارية مقابلة للضريح و في إتجاه القبلة، أما بضريح سـيدي الحلـوي فيوجـد محـراب بسـيط علـى يسار التابوت و هو عبارة عن حنية مضلعة يعلوها عقـد حـذوي يرتكـز علـى عمـوديـن صغـيرين. (أنظر الشكل رقم **13**).

1- زكي محمد حسن : فنون الإسلام، ص 21.

و لا بد من الإشارة إلى أنه و حسب ما استقيناه من معلومات من طرف بعض السكان، و القائمين على ضريح سيدي أبي مدين فقد وجد محراب على هيئة فتحة صغيرة في الهيكل الخشبي الذي كان يزين قاعة الدفن بضريح سيدي أبي مدين، إلا أننا لا نستطيع تأكيد أو تفنيد هذه المعلومات نظرا لتعرض الضريح إلى الحرق إذ لم يبقى من الهيكل الخشبي شيء. و المهم في حديثنا عن المحاريب هو أنها موجودة في كل الأضرحة الثلاثة التي درسناها، و هي جزء أساسي من الإطار المعماري للضريح مع أن الضريح لا تقام به الصلاة لا في المشرق و لا في المغرب.

كما يشير "ثروت عكاشة" إلى وجود المحاريب في الأضرحة بالقاهرة مع العلم أن الصلاة لا تقام بها " و من الملاحظ أن هذه المقابر و المدافن لم تستخدم قط كمساجد و إن اشتملت على محاريب، و حرص المصريون على إقامة صلاة الجنازة في مساجد خاصة أو في زوايا مزودة بمحاريب تلحق بإحدى المدارس القريبة من المقابر و قد كان ذلك في عهد المماليك[1] و لعل السبب في وجود المحاريب بداخل الأضرحة يعود إلى رغبة في التضرع إلى الله بالدعاء في إتجاه القبلة، و المحراب يمثل وجهة القبلة.

ب ـ العقـــود :

إستعملت في الأضرحة المدروسة (ضريح سيدي أبي مدين ــ ضريح سيدي إبراهيم المصمودي ـ ضريح سيدي الحلوي) أنواع مختلفة من العقود كالعقد الحذوي و العقد النصف دائري و العقد المخموس و العقد المفصص و قد استعمل العقد المخموس و العقد المفصص في سيدي أبي مدين فقط.

1- ثروت عكاشة : نفس المرجع السابق، ص 138.

جـ ـ النوافذ و الفتحات :

استعملت النوافذ و الفتحات في ضريحي سيدي أبي مدين و إبراهيم المصمودي للإضاءة و التهوية و تظهر في ضريح سيدي أبي مدين على شكل شمسيات تنتهي بقوس مزدوجة و مزينة بتشبيكات هندسية على الجص، أما في مستوى أعلى فنوافذ أصغر حجما معقودة بنصف دائري تدخل الضوء عن طريق قطع زجاجية ملونة تعمل على تخفيف الضوء، أما بضريح سيدي إبراهيم فتظهر على شكل شمسيات معقودة بعقود نصف دائرية و محلات بزخارف هندسية تقوم بإضاءة و تهوية الضريح و هي تدخل الهواء على عكس تلك الموجود بسيدي أبي مدين فهي تدخل الضوء فقط، في حين نلاحظ إنعدام النوافذ بضريح سيدي الحلوي و بالتالي إنعدام الهواء و الضوء لذا نلاحظ الحالة المزرية التي وصل إليها الضريح بفعل الرطوبة.

د ـ الأعمدة و التيجان :

إستعملت الأعمدة في ضريحي سيدي أبي مدين و سيدي إبراهيم المصمودي بالصحن و هي من المرمر. تعلو أعمدة ضريح سيدي أبي مدين تيجان من المرمر جلبت من قصرا لنصر الذي شيده أبو الحسن بالمنصورة [1] أما أعمدة ضريح سيدي إبراهيم فإنها من المرمر لكنها لا تتوجها تيجان، كما أن هذه الأعمدة قصيرة يبلغ قطرها 0,55 م و أغلب الظن أن هذه الأعمدة البسيطة الأسطوانية قد جلبت من آثار المنصورة.

و لعل أعمدة ضريح سيدي أبي مدين أحسن حال من الأعمدة الموجودة بضريح سيدي إبراهيم إذ أنها بهذا الأخير قد تجرد إثنان منها من المرمر و أصبحت فقط من الحجر و ذلك لأن الصحن مكشوف، أما الأعمدة الموجودة بضريح سيدي الحلوي فبسيطة إذ لا توجد إلا بالمحراب و هي عبارة عن عمودان بسيطان، أما فيما يخص دور هذه الأعمدة فهي في صحن ضريح سيدي

1- William et George Marçais : les monuments ..., p 263.

أبي مدين تعمل على حمل القبة الخشبية التي تعلو الصحن، أما بضريح سيدي إبراهيم المصمودي فإنها تحمل العقود التي يرتكز عليها سقف الصحن.

- **التيجان** : إن التيجان المستعملة في صحن ضريح سيدي أبي مدين و التي جلبت من قصر النصر الذي بناه أبو الحسن المريني بالمنصورة [1] و لا بد من الإشارة إلى أن المرينيين قد استعملوا نوع التيجان الزيانية في المنصورة و نجد إثنان من هذه التيجان بصحن ضريح سيدي أبي مدين و هي على شكل تيجان يحمل جزءها السفلي زينة عبارة عن تغرج أين نجد الزخرفة النباتية غصينات و زهيرات لم نشاهدها من قبل في المعالم الدينية[2] كما نجد تيجان كرنثية بمدخل ضريح سيدي أبي مدين تعلو عمودان خشبيان. و لا نجد أثرا للتيجان بضريح سيدي إبراهيم و ضريح سيدي الحلوي.

هـ - السقوف :

ينتمي ضريحي سيدي أبي مدين و سيدي إبراهيم المصمودي إلى طرز الأضرحة التي تعلوهما قبة. تظهر قبة قاعة الدفن بضريح سيدي أبي مدين على شكل مقبة مقسمة إلى 12 لوحة بواسطة 24 عقدا نصف دائرية و ينتهي تنظيم التشبيكات الهندسية بنجمة ذات 24 رأسا، أما من الخارج فتظهر على شكل سقف ذو أربع أرداف أي هرمي الشكل مغطى بقرميد أخضر (و يعد القرميد الأخضر من الخصائص الهامة التي ميزت السقوف المرينية حيث نجده بمدخل باب الضريح يعلو الشرعة، و كذا بمسجد سيدي الحلوي يغطي قبته و سقف المسجد)، بينما تظهر قبة سيدي إبراهيم ذات الثمانية أضلاع أي مثمنة الشكل، و هي النموذج الوحيد الذي بقي لدينا بعد إستقرار الزيانيين من جديد بعد رحيل المرينيين النهائي إلا إنها اليوم في حالة تبحث عن الحسرة إذ

1- William et Georges Marçais : Les monuments ... p 234.
2- Rachid Bourouiba : Apports de l'Algérie a l'Architecture Religieuse Arabo - Islamique, Office des Publications Universitaires - Alger -, 1986, p 108.

أختفت كل معالمها بفعل الرطوبة و إنعدام العناية، أما من الخارج فهي مزينة بصف من الشرافات ذات السبعة فصوص. ولعل هاتين القبتين تشتركان في عنصر أساسي إذ أن الإنتقال من المربع إلى المضلع بالنسبة للقبتين يتم بواسطة حنايا ركنية على شكل نصف قبو متقاطع(أنظر الشكل رقم**31**)

كما تجب الإشارة إلى وجود قبة خشبية تعلو صحن ضريح سيدي أبي مدين الذي هو في الأصل مكشوف على غرار صحن سيدي إبراهيم و لسنا ندري إن كانت هذه القبة قديمة أم حديثة العهد، إذ أننا لم نجد في المصادر و المراجع ما يشير إليها. أما ضريح سيدي الحلوي فسقفه هرمي بسيط يكسوه قرميد بني و هو من الداخل عبارة عن سقف خشبي تآكل بفعل الرطوبة و لا نلاحظ به أي زخرفة تذكر.

و ـ المداخل :

* **المداخل الخارجية** : يظهر مظهر ضريح سيدي أبي مدين معقودا بعقد حذوي يحمل هذا المدخل كسوة من البلاطات الخزفية متعددة الألوان و الأشكال كما نلاحظ به الشرعة التي تغطيه و تضفي عليه بهاءا و جمالا، أما المدخل الخارجي لضريح سيدي إبراهيم المصمودي فبسيط و هو معقود بعقد حذوي بسيط يعلوه إطار للباب، أما مدخل ضريح سيدي الحلوي فيقتصر على مدخل خارجي بسيط و هو عبارة عن باب معقود بعقد حذوي بسيط، و لعل الأضرحة الثلاثة تشترك في نوع العقد المستعمل في المدخل إلا أن ضريح سيدي الحلوي ليس به مدخل آخر إذ أنه من المدخل الخارجي ندخل إلى قاعة الدفن مباشرة.

* **مداخل قاعات الدفن** : يظهر مدخل قاعة الدفن بضريح سيدي أبي مدين عبارة عن إطار به كتابة أثرية تشير إلى المرمم و تاريخ الترميم و به بعض الزخرفة النباتية البسيطة و محارتين تحتل شوكتي الإطار السفلية. أما مدخل قاعة الدفن بضريح سيدي إبراهيم المصمودي فتكسو الإطار العلوي منه بلاطات خزفية متعددة الألوان و الأشكال و نلاحظ غياب الكتابة الأثرية و يشترك

مدخلا قاعتي الدفن بضريح سيدي أبي مدين و ضريح سيدي إبراهيم في كونهما يحملان زخارف نباتية و إن كانت قليلة في مدخل ضريح سيدي أبي مدين و كذلك في كونهما يرجعان للعهد التركي كما سبق و أن أشرنا.

3- العناصر الزخرفيـة :

لقد تعددت الزخارف و عناصرها على أساس الزخارف الرئيسية المعروفة في الفن الإسلامي، مثل الزخارف الهندسية و النباتية و الكتابية... و هي الموضوعات التي ميزت الفن الإسلامي بطابعه الخاص و شخصيته المتميزة عن بقية الفنون الأخرى و بلغت فنونه الزخرفية درجة سامية من الجمال الفني تفوق فيها تفوقا منقطع النظير.[1]

أ- الزخرفة النباتية :

تعتبر الزخارف النباتية إحدى المواضيع الرئيسية التي لجأ إليها الفنان المسلم و قد استعمل الزيانيون الزخرفة النباتية بشكل ملحوظ و ثري عن المرينيين، لقد استعمل الزيانيون ضمن زخارفهم النباتية المراوح النخيلية البسيطة و هي عبارة عن مراوح قصيرة ذات الحاشية العريضة و المراوح التي على شكل علامة إستفهام أو حرف باللغة اللاتينية S و يظهر هذا النوع من المراوح ضمن الزخرفة النباتية التي توجد بجدران ضريح سيدي إبراهيم المصمودي [2] .

و قد استعملت الزخرفة النباتية عند الزيانيين رفقة الزخارف الكتابية أو الهندسية إلا أننا لم نجد زخرفة نباتية مستعملة لوحدها.

يعدالأرابسك العنصر أو النموذج المركزي للزخرفة ، حيث تظهر ساق متوسطة تتخللها خطوط مقوسة متشابكة،تستعمل الأرابسك خاصة في تزيين الأطر و اللواحات الضيقة و المرتفعة.[3] نجدها بجدران قاعة الدفن بضريح سيدي إبراهيم المصمودي أين نجد زخارف نباتية

1- الدكتور عبد العزيز محمد لعرج : نفس المرجع السابق، ص 275.

2- Rachid Bourouiba : L'art Religieux ..., p 203.

3- Henry Martin : l'Art Musulman, Flammarion 26, Rue Racine, 26 PARIS 1926, p 20.

و هي عبارة عن مراوح نخيلية بنوعيها البسيط و على شكل علامة الإستفهام مع صيغ كتابية **كالعز لله** و **الملك لله** و **الشكر لله** تتكرر في إطار هندسي بديع فوق الجص كما تظهر ضمن إطار باب قاعة الدفن بضريح سيدي أبي مدين أين تحيط بالكتابة الأثرية سيقان رفيعة و زهيرات صغيرة.

نجد نوعا آخر من الزخارف النباتية المشتركة مع الزخارف الهندسية في ضريح سيدي إبراهيم المصمودي ضمن الزخرفة الجدارية الجصية يتمثل في النجمة ذات **12** رأسا بها مراوح نخيلية متشابكة (أنظر الشكل رقم **29**).

كما لا تفوتنا الإشارة إلى المحارتين التي تعلو شوكتي الحنايا الجدارية أين نجد النجمة ذات الثمانية رؤوس بها زخارف الأرابسك.

كما وجدنا ضمن البلاطات الخزفية لمدخل قاعة دفن سيدي إبراهيم المصمودي، زخارف و هي عبارة عن دائرة تحتل مركز المربع و تتفرع منها مراوح نخيلية عبارة عن مراوح بسيطة منقسمة إلى قسمين تنجم عنها مروحة منبسطة (أنظر الشكل رقم **20**).

أما بضريح سيدي أبي مدين فيظهر هذا النوع من الزخارف ضمن البلاطات الخزفية التي تكسو المدخل و تظهر أيضا هذه الزخرفة في سقف الشرعة عبارة عن نجمة ذات الثمانية رؤوس ناجمة عن تقاطع مربعين تحتل هذه النجمة المركز و تحيط بها تشبيكة من المراوح النخيلية (أنظر الشكل رقم **03**) كما تظهر ضمن البلاطات الخزفية للصحن و هي عبارة عن دائرة مركزية تحتل مركزها **8** زهيرات مقفلة و تحيط بها أشكال هندسية مختلفة أو دائرة تنطلق منها تفريعات نباتية و هي عبارة عن وريقة منبسطة تتناوب مع زهرتين مقفلتين (أنظر الشكل رقم **07**)، كما تظهر بلاطات أخرى باللون الأزرق و الأصفر و اللون الأزرق التركوازي الذي يتدرج من الفاتح إلى الداكن و يتكون تصميم العام من عنصر مركزي عبارة عن مربع متداخل غير منتظم تشع منه

أوراق حماسية الفصوص و أوراق على هيئة أوراق الأكانتس مرسومة بأسلوب محور و حفظت هذه العناصر باللون الأبيض على أرضية كوبالتية رقيقة [1] و أخيرا نجد المحارتين التي تحتل شوكتي الإطار السفلى لباب مدخل قاعة الدفن بضريح سيدي أبي مدين.

أما بضريح سيدي الحلوي : فتظهر النجمتان التي تحتل شوكتي المحراب بشكل النجمة ذات 8 رؤوس مركزها زهرة ذات الثمانية باتلات. (أنظر الشكل رقم 17).

ب ـ الزخرفة الهندسية :

تشبيكات هندسية تنجم عنها معينات من الزليج الذي به شكل النجمة ذات ثمانية رؤوس(أنظر الشكل رقم 23)، و كذا نجمات ذات 12 رأسا بضريح سيدي إبراهيم المصمودي.

أما بضريح سيدي أبي مدين فنجد النجمة ذات الثمانية رؤوس ناجمة عن تقاطع مربعين، كما تظهر النجمة ذات 24 رأسا التي تكون قبة ضريح سيدي أبي مدين و كذا المعينات المفصصة التي تحلي جدران قاعة الدفن و التي تحمل زخرفة هندسية بالتناوب مع زخرفة كتابية. كما نجد المربعات على شكل مربع الشطرنج في البلاط الأرضي للصحن.

أما بضريح سيدي الحلوي فتظهر النجمة ذات الثمانية رؤوس الناجمة عن تقاطع مربعين.

جـ ـ الزخرفة الكتابية :

تحتل الزخرفة الكتابية مكانة هامة جدا في فن بني عبد الواد على غرار الفنان المسلم، قدس الفنانون الخط العربي و أبدعوا فيه حيث زخرفت الجدارن بالآيات القرآنية و العبارات الدينية أو الجمل المتنوعة.

تظهر الزخرفة الكتابية بضريح سيدي أبي مدين بنوعين :

1- عبد العزيز محمود لعرج : نفس المرجع السابق، ص 153.

*** الكتابة التذكارية :**

توجد بباب قاعة الدفن بضريح سيدي أبي مدين و التي تبين تاريخ ترميم ضريح سيدي أبي مدين.

*** الأشرطة الكتابية و العبارات الدينية :**

- يتجلى الشريط القرآني المحيط بغرفة الدفن و الذي يحمل الآيات من **100-106** من سورة الأنبياء بخط مغربي.

في حين تظهر العبارة الدينية التي تحلي جدران قاعة الدفن و التي تحتل مركز المعينات المزخرفة بخط كوفي العبارة هي **له الملك** و هي معكوسة في المعينات الموازية للمعينات التي تظهر فيها.

أما بقاعة الدفن بضريح سيدي إبراهيم فتظهر على شكل شريط قرآني يحيط بأطر الحنايا الجدارية لقاعة الضريح و أيضا عبارات دينية ... أما الشريط الكتابي فيحمل الآيات القرآنية رقم **109-117** من سورة المائدة و هو مكتوب بالخط النسخي.

و حتى العبارات الدينية أو الصيغ الدينية و هي : الحمد لله، العز لله، الشكر لله، الملك لله، فهي أيضا مكتوبة بالخط النسخي المغربي.

أما بضريح سيدي الحلوي فلم نجد سوى كلمتين بجامة إطار المحراب و هي **يم، ا لله** و لا نستطيع أن ننسب لها خطا من الخطوط نظرا لقلتها.

2- 3- مواد البناء :

أ- البلاطات الخزفية :

توجد البلاطات الخزفية في ضريح سيدي إبراهيم المصمودي ضمن مدخل قاعة الدفن للضريح إذ نرى زخرفة نباتية و هي عبارة عن مراوح نخيلية بسيطة أو مزدوجة و بألوان مختلفة

كالأخضر و الأصفر و الوردي و الأبيض الشفاف و ضمن هذه البلاطات الخزفية تندمج الزخفة النباتية رفقة الزخرفة الهندسية و هي عبارة عن دوائر بسيطة و يرجع الدارسون لهذه البلاطات الخزفية الملونة إلى العهد التركي [1]

أما بضريح سيدي أبي مدين فتظهر البلاطات الخزفية بأشكال متعددة فمنها النباتية المشتركة مع الهندسية و منها الهندسية فقط و ترجع أيضا حسب الدارسين إلى العهد التركي [2] أما بضريح سيدي الحلوي فلا أثر للبلاطات الخزفية.

ب - الزليـــج :

الزليج عبارة عن تنظيم من القطع المطلية ذات ألوان مختلفة، مجزئة حسب رسم و مندمجة مع بعضها البعض. هذه القطع أو الأجزاء المقولبة مسبقا، تشوى ثم تغطى و تشوى بالطلاء الخزفي ثم تسوى بواسطة مبرد و بعدها توضع حسب الكرتون فوق مساحة و أخيرا تجمع و تلصق ببعضها البعض بواسطة ملاط من الرمل و الكلس و بهذا نحصل على لوحة ذات 0,05 من السمك و التي سوف نلصقها فوق المكان الذي نريد أن نزينه. و نثبتها بواسطة قضيب عضمي أو خشبي. [3]

يظهر الزليج بقاعة الدفن بضريح سيدي إبراهيم المصمودي بالجدران، و هو مكون من مجموعة من الزخارف الهندسية عبارة عن معينات متعددة الألوان من الأبيض و الأخضر الداكن و الأصفر الفاتح و الداكن و البني. و هذه التشبيكات الهندسية تعطي شكل النجمة ذات الثمانية رؤوس مركزها قطعة دائرية (أنظر الشكل رقم **23**) و لم يستعمل الزليج في ضريحي سيدي أبي مدين و سيدي الحلوي.

1- محمد بن رمضان شاوش : نفس المرجع السابق، ص 252.

2- William et George Marçais,les monuments ...., p 232.

3- William et Georges Marçais : Ibid,p 80-81.

جـ ـ الرخام أو المرمر :

إستعمل في عقود و تيجان سيدي أبي مدين كما نجده في أعمدة ضريح سيدي إبراهيم المصمودي، و هو منعدم بضريح سيدي الحلوي.

دـ الجـــصّ :

يعد الجص من العناصر الأساسية المستعملة في الأضرحة من أجل البناء و التزيين، يظهر الجص بضريح سيدي أبي مدين ضمن الإطار الخارجي لباب قاعة الدفن و هو يحمل كتابة أثرية تدل على التاريخ و صاحب الترميم، كما تجب الإشارة إلى وجود محارتين في أسفل جامات الإطار الكتابي و هي تحتل شوكتي الإطار من الأسفل على اليمين و على الشمال. كما نجد الجص ضمن الحنايا الجدارية الموجودة بقاعة الدفن بضريح سيدي أبي مدين فهو على شكل كتابة جصية ضمن جامات الأطر الثلاثة لكل حنية جدارية و هو أيضا موجود بالشمسيات الموجودة في هذه الحنايا و الجص بها على شكل شبكة هندسية. أما الحنية فبها تشبيكات جصية كما يحيط بالجدران الأربعة لضريح سيدي أبي مدين شريط كتابي مكتوب على الجص و تحمل جدران قاعة الدفن أيضا تكسية جصية و هي عبارة عن معينات مفصصة تحتلها زخرفة كتابية جصية و أخيرا يظهر الجص مزينا قبة سيدي أبي مدين بمختلف الأشكال.

أستعمل الجص بضريح سيدي إبراهيم المصمودي بثراء، إذ أننا نجده ضمن الحنيات الجدارية و في أطر الحنيات يحمل شريطا كتابيا كما يظهر ضمن الزخارف الجدارية على شكل أطباق نجمية تحتوي في وسطها على زخرفة كتابية أو نباتية متناوبة فيما بينها (أنظر الشكل رقم **24**) كما يعلو هذه الزخارف الجدارية شريط يحمل زخارف هندسية من الجص صعب تحديد نوعها لإحتلالها أعلى الجدارن و لخفوت الضوء. أما القبة و مع أن المصادر و المراجع قد أشارت إلى أنها تحتوي على تكسية جصية جميلة إلا أننا لم نجد لهذه التكسية أثرا.

أما بضريح سيدي الحلوي فقد وجدنا الجص ضمن إطار المحراب و هـو بقيـة شـريط كتـابي بقي منه كلمتين فقط و اختفت الكتابات الأخرى التي كانت تحيط بإطـار المحـراب و يظهـر أيضـا على شكل نجمتان تحتلان شوكتي المحراب العلوية و هذه النجمـات مـن الجـص عبـارة عـن تقـاطع مربعين تنجم عن تقاطعها نجمة ذات ثمانية رؤوس تحتل وسطها زهرة ذات الثمـاني بـاتلات (أنظـر الشكل رقم **17**).

يعد الجص مادة أساسية من مواد البناء سواء عند بني عبد الواد أو عند المرينيـين مـن بعدهـم و نلاحظ تواجده بكثرة .بمختلـف الإسـتعمالات في ضريـح سـيدي أبـي مديـن و بضريـح سـيدي إبراهيم المصمودي و يكاد يظهر في نفس العناصر المعمارية التي تظهـر بضريـح سـيدي أبـي مديـن و بضريح سيدي إبرهيم مع أن إستعماله بضريح سيدي أبي مدين يظهـر جميـلا خاصـة في زخرفـة القبة التي لا تزال تحـافظ علـى عناصرهـا الجصيـة الجميلـة إلا أن حنيـة ضريـح سـيدي أبـي مديـن الجدارية تظهر أفقر في الصنع منها في ضريح سـيدي إبراهيـم أيـن نجـد الزخرفـة الهندسـية الجصيـة المستعملة في المساحات الكبيرة نموذجا فريدا و جديدا في المعالم التلمسـانية "و هـذا النـوع يلاحـظ أيضا في غرناطة و الحمراء[1] " و قد أشار "بورويبة رشيد" إلى أن التحلية الجدارية الجصية بضريـح سيدي أبي مدين تظهر بنفـس الأسـلوب المسـتعمل في بـاب قاعـة الدفـن و لهـذا ترجـع إلى العهـد التركي.[2]

هـ ـ الخشـــب :

ينمثل الخشب بمدخل ضريح سيدي أبي مدين في عمودان خشبيان بدنهما ذو قنوات، كمـا نجد الخشب بقاعة الدفن بضريح سيدي أبي مدين على شكل ألـواح خشـبية علـى إرتفـاع المـترين تقوم بتقسيم قاعة الدفن عرضيـا إلى قسـمين تنطلـق هـذه الألـواح مـن جهـة النصـف الجنوبـي إلى

1- William et Georges Marçais : Les monuments ..., p 310-311.
2- Rachid Bourouiba : l'Art Religieux ..., p 279.

الشمالي مقسمة القاعة إلى مقصورتين متساويتين تقريبا، هذه الألواح المحلات بنقوش ذات الطابع الجنائزي تكبر و تصغر في الوسط على شكل قوس قوطية. و بتعرض الضريح إلى الحريق في السنوات الأخيرة إختفت هذه الألواح تماما و لم يبقى لها أثر و ما أوردناه عنها مأخوذ من المصادر و المراجع.[1]

كما تظهر بصحن ضريح سيدي أبي مدين قبة خشبية تغطي الصحن المكشوف في الأصل. لا يظهر الخشب بضريح سيدي إبراهيم المصمودي أما بضريح سيدي الحلوي فهو يظهر ضمن هيكل التابوت الخشبي الذي تآكل بفعل الرطوبة كما يظهر الخشب في السقف و هو على حسب ما قيل لنا متواجد في البيوت القديمة و يسمى "**بالخشبة**".

1- Barges : La vie de ..., p XXXI - XXXII

الخـــــاتمـة

عرفت الأضرحة و لا تزال إقبالا و شغفا شديدين من طرف سكان مدينة تلمسان و مـع أن أنواع هذه الأضرحة قد اختلفت في أشكالها و عناصرها المعمارية إلا أنها بقيت في مغزاها و ما ترمز إليه تستحوذ على التقدير و الإحترام. من خلال دراستنا للضريح في مدينة تلمسان من خـلال ثلاثـة نماذج يمكن أن نقيم عملنا و نستخلص منه نتائجا مختلفة، بدى لنا أن نقسمها إلى قسمين.

لقد لعبت الخلفية التاريخية و الدينية دورا أساسيا في صقل شخصية المؤسس و هذا من خلال الفنون التي خلفها. إذ نلاحظ أن المؤسسين الثلاث الذين درسنا الأضرحة التي خلفوهـا إثنـان منهـم نمو ببيئات توفرت فيها العوامل الأساسية التي أثرت بالغ الأثر في إنجـازاتهم المعماريـة و يتعلـق الأمـر بالسلطانين أبو حمو موسى الثاني و أبو الحسـن المريـني، في حـين بقـي السـلطان الزيـاني و المؤسـس الثالث أبو زيان ابن عثمان ابن يغمراسن متشبعا بالبيئة البدوية و كذا بالتيارات الدينيـة نظـرا لقـرب عهده بالعهد الموحدي الذي غلب عليه الطابع الديني.

كـان الإسـتقرار السياسـي بـالغ الأثـر علـى العمـارة إذ أننـا لاحظنـا و مـن خـلال دراسـتنا للأضرحة الثلاثة أن الضريح سيدي الحلوي الذي بني قبيل رفع الحصار السبع سنوات علـى تلمسـان من طرف المرينيين، كان بسيطا فهو يعكس عدم الإستقرار السياسي الذي عرفتـه تلـك الفـترة، إنـه يميل أكثر إلى إبراز دلائل روحية و رمزية أكثر منها معمارية.

أما النتائج التي تتعلق بالجانب المعماري الفني فلقـد إسـتطعنا أن نسـتنتج عـدة نتـائج في هـذا المجال و هي كالآتي :

1- تجدر الإشارة إلى أن الأضرحة الثلاثة التي درستها يعلو إثنان منها قبة في حين يتميز الثالث و هو ضريح سيدي الحلوي بالبساطة و ذلك راجع إلى سبب أساسي و هو أن الضريح سيدي الحلوي من أنواع الأضرحة التي تبنى عند بوابات المدن بغرض الحماية و الحراسة فهو الحارس المعنوي الذي لا يمكن الإستغناء عنه و سيدي الحلوي هو حامي باب الزاوية كما يحمي سيدي أبي مدين باب الجياد.

أما ضريح سيدي أبي مدين و ضريح سيدي إبراهيم المصمودي فتعلوهما قبة و مع ذلك فهناك إختلاف في نقطة هامة و هي : أن ضريح سيدي أبي مدين و ضريح سيدي إبراهيم المصمودي يعدان أعلى مرتبة و أكثر رقيا من الضريح الأول و هذا ليس إقلال من المرتبة الدينية لسيدي الحلوي و لكن سيدي أبي مدين أعلى درجة في التصوف و لشدة إجلاله و إحترامه فقد بني بجانب ضريحه مسجد بكل مرافقه، أما سيدي إبراهيم فضريحه ضمن روضة آل بني زيان (روضة ملكية) و إكراما للولي و للملوك أدمج الضريح ضمن مرافق المسجد، فالقبة إذن من سمات الضريح الأكثر شرفا و إجلالا.

2- لقد تأثرت عمارة الأضرحة بتلمسان بعمارة الأضرحة في المشرق الإسلامي، فضريح سيدي إبراهيم مثلا كان مندمجا ضمن مرافق أخرى كالمدرسة على غرار الضريح عند الأيوبين، و بجانب ضريح سيدي أبي مدين بني المسجد و المدرسة ضمن مجمع معماري. لقد كان أبو الحسن المريني أول من بنى المرافق بجانب المسجد (كالمدرسة و هي تتفق تماما مع الخانقاه في المشرق) في المغرب في حين كان المماليك أول من أدمج تصميم المدرسة و الضريح ضمن المسجد.

3- لقد كان الأيوبيون أول من بنى قبة أو ضريحا إكراما لرجل تقي و علم من أعلام الإسلام ألا و هو الإمام "**الشافعي**"، كما شيد السلاجقة بعدهم ضريحا مستقلا بذاته للإمام الغزالي حجة الإسلام سنة (1111م) و سار على منوالهم سلاطين المغرب إذ أنهم بنو أضرحة إما مستقلة أو مندمجة

للعلماء و الأولياء و كذا السلاطين، على أن هذا النوع الأخير قليل بتلمسان، عدا روضة آل بني زيان و ضريح يغمراسن المندمج ضمن الجامع الأعظم إلى جانب الإمام ابن مرزوق.

4- لقد غلب إستعمال القبة في المغرب فوق الأضرحة المربعة أو المستطيلة الشكل على غرار القباب التي تعلو بعض الأضرحة في المشرق، في حين غابت الأنواع الأخرى كالتي على هيئة أبراج، فلقد آثر المغرب الشكل المربع أو المثمن، ففي ضريحي سيدي أبي مدين و ضريح سيدي إبراهيم نجد إختلافا واضحا في شكل القبة إذ أنها تظهر في ضريح سيدي أبي مدين إنعكاسا صادقا للفن المريني و هي ترتكز على 12 لوحة مزينة بأربع و عشرين عقدا نصف دائريا منها تنطلق سلسلة التشبيكات الهندسية تنتهي بنجمة ذات أربعا و عشرين رأسا أما من الخارج فتتميز النجمة بسقف ذو أربع أرداف و هي مغطاة بقرميد أخضر و تظهر هرمية الشكل و القرميد الأخضر أيضا ميزة شائعة في الأسقف المرينية، أما قبة سيدي إبراهيم فهي قبة ذات الثمانية أضلاع و لكن الملاحظ هو الشبه في كون القبتين يتم الإنتقال فيهما من المربع إلى المضلع بواسطة أنصاف أقبية متقاطعة و يتخلف عن تعارض ضلوعها جوافات مثلثة، أما قبة سيدي إبراهيم فمزينة من الخارج بأفاريز من الشرفات ذات السبعة فصوص.

لقد كانت العناصر المعمارية المستعملة تقريبا نفسها و كذا الأدوات المستعملة تقريبا نفسها مع بعض الإسراف أو النقص، لقد وجدنا في كل الأضرحة محاريب و زخارف كتابية و هندسية و نباتية في حين إنعدمت النوافذ و الفتحات و البلاطات الخزفية و الزليج في ضريح سيدي الحلوي.

من خلال مقارنتنا بين أضرحة سيدي إبراهيم و سيدي أبي مدين و سيدي الحلوي، لاحظنا مدى تشابه ضريحي سيدي أبي مدين و سيدي إبراهيم و ذلك لتأثر الزيانيين بالأسلوب المريني و لكن ضريح سيدي أبي مدين يظهر أكثر رونقا و جمالا من حيث الإبداع في الأشكال

و الإسراف في المواد و العناصر المعمارية و لولا الحريق الذي تعرض له خلال السنوات الأخيرة لبقي هذا الضريح شاهدا على روعة المعماريين و مدى تفوقهم في المجال الفني. و لو لم يهمل ضريح سيدي إبراهيم لحافظ لنا على مختلف عناصره و خاصة القبة التي تعاني كثيرا من التصدع و الإهمال.

و الشبه بين سيدي أبي مدين و سيدي إبراهيم يتمثل في المخطط و مواد البناء و كذا في العناصر الزخرفية في حين يظهر ضريح سيدي الحلوي مختلفا من حيث مخططه عن الإثنين السابقين و حتى في عناصره المعمارية و لعله أفقر الأضرحة الثلاثة من الجانب المعماري.

و لعل ضريح سيدي الحلوي يعكس فترة لم تكن فيها الفنون قد بلغت بعد فترة الثراء و الرقي التي وصلت إليها فيما بعد بسبب قرب عهد أبي زيان محمد بن عثمان حفيد يغمراسن بالعهد الموحدي الذي غلب عليه الطابع الديني فلم يسرف الفنانون في إستعمال العناصر المعمارية في بداية العهد الزياني، كما يرجع ذلك إلى عدم الإستقرار السياسي الذي كانت تعيشه الدولة الزيانية و الذي إنعكس سلبا على الفنون فلم ترقى إلى ما وصلت إليه فيما بعد في عهد السلطانيين أبي الحسن المريني و أبي حمو موسى الثاني.

إن الأضرحة و هي جزء من الآثار المعمارية المخلفة لدينا، تعكس بصدق مدى تفوق الفنون و رقيها حينما تتوفر لها العوامل الأساسية و مدى ضعفها و بساطتها حينما لا يتوفر لها الإستقرار و الإهتمام.

لقد كان ضريح سيدي أبي مدين و لا يزال من أحسن نماذج الأضرحة المخلفة لنا رغم كل ما تعرض له من حرق و تعسف فهو يبرز تفوقا ملحوظا في الجانب المعماري، و ذوقا ثريا رغم الترميمات العشوائية التي قد تشوه بعض الجوانب المعمارية.و من خلال مقارنتنا بين هذه النماذج

الثلاثة إستطعنا أن نجعل مرتبة الصدارة لضريح سيدي أبي مدين ثم بضريح سيدي إبراهيم في المرتبة الثانية و أخيرا ضريح سيدي الحلوي.

و مهما يكن تبقى هذه الأضرحة تحتل مكانة لا يستهان بها في قلوب سكان مدينة تلمسان لذلك يجب الحفاظ على حرمتها و معالمها الأثرية لأنها ترمز إلى ماض عريق حافل بالأمجاد.

قائمة المصادر العربية

1- مصحف الحرمين الشريفين بالرسم العثماني، إعتنى بطبعه و نشره "محمد علي بيضون"، دار الكتب العلمية بيروت (عن رواية حفص)

2- **الدكتور جبور عبد النور و الدكتور سهيل إدريس** : المنهل الوسيط (قاموس فرنسي -عربي) دار العلم للملايين - دار الآداب، الطبعة الرابعة 1981 بيروت.

3- **علي ابن أحمد بن أبي الكرم إبن الأثير** : "الكامل في التاريخ"، دار صادر - دار بيروت - لبنان.

4- **أبو زكرياء يحي إبن خلدون** : بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ، تقديم و تحقيق و تعليق الدكتور : "**عبد الحميد حاجيات**"، إصدارات المكتبة الوطنية (النصوص و الدراسات التاريخية 4) الجزائر 1400-1980.

5- **عبد الرحمان إبن خلدون** : "المقدمة"، دار الجيل بيروت.

"كتاب العبر": دار الكتاب اللبناني بيروت 1966.

6- **محمد ابن مرزوق** : "المسند الصحيح الحسن في مآثر و محاسن مولانا أبي الحسن"، دراسة و تحقيق الدكتورة ماريا خيسوس بيغيرا، تقديم محمود بوعياد، إصدارات المكتبة الوطنية (SNED) النصوص و الدراسات التاريخية 5، الجزائر 1401 - 1981.

7- **أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد الشريف المليثي المديوني المعروف بإبن مريم** : " البستان في ذكر الأولياء و العلماء بتلمسان" المطبعة الثعالبية الجزائر ـــ سنة (1908-1326).

8- **زين الدين أبي الفضل** : "المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الأحياء ما من أخبار الجزء الأول، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.

9- **أحمد بن أحمد بن عجيبة الحسني** : "كتاب إيقاظ الهمم في شرح الحكم"، المطبعة الجمالية بحارة الروم، مصر 1913.

المراجع الأجنبية

1- *M. L'Abbé J-J-L Barges : Complément de l'histoire des Béni-Zeiyan Rois de Tlemcen, Ouvrage du Cheikh Mohamed Abdal-Djalil Al-Tenessy, Ernest Leroux, 28 Rue Bonaparte, 1887.*
2- *M. L'Abbé J-J-L Barges : Vie du Célèbre Marabout Cidi-Boumédin, autrement dit Sidi-Boumedien, Paris Larous Librairie.*
3- *Rachid Bourouiba : L'art Religieux Musulman en Algérie, Société Nationale d'Edition et de Diffusion 2ème édition, Alger 1983.*
4- *Rachid Bourouiba : Apports de l'Algérie a l'Architecture Religieuse Arabo - Islamique, Office des Publications Universitaires - Alger -, 1986, p 108.*
5- *Ammar Dhina : Cités Musulmanes d'orient et d'occident, Entreprise Nationale du livre - Alger, N 4 Edition : 1351 / 83 Alger 1986.*
6- *Georges Marçais : l'Art Musulman, Presses Universitaires de France 108, Boulevard Saint-Germain Paris 1962.*
7- *William et Georges Marçais : Les monuments Arabes de Tlemcen, Librairie des Ecoles Françaises, 4, Paris 1903.*
8- *Henry Martin : l'Art Musulman, Flammarion 26, Rue Racine, 26 Paris 1926.*
9- *Henri Stierling : Architecture de l'Islam de l'Atlantique au Gange, Office du livre, Fribourg (Suisse) 1979.*

المجلات و الدوريات الأجنبية

1- *Ch Brosselard : Inscriptions Arabes de Tlemcen, in R. Africaine .T4 Office des Publications Universitaires, Alger 1859-60.*
2- *Leclerc : Inscriptions Arabes de Mascara, in R. A N° 4. Office des publications Universitaires, Alger 1859/60.*
3- *Le Site Tlemcen*

الرسائل الجامعية

1– س. محمد الغوتي بسنوسي : "الزخرفة في مساجد منطقة تلمسان"، رسالة جامعية مقدمة للحصول على درجة الماجستير، جامعة تلمسان معهد الثقافة الشعبية 1410هـ– 1990م.

2– جمال الدين بوقلي حسن : "إبن يوسف السنوسي في الذاكرة الشعبية و في الواقع"، رسالة لنيل درجة "ماجستير" جامعة تلمسان، معهد الثقافة الشعبية سنة 1997.

3– سيدي محمد النقادي : "التصميم العمراني لمدينة تلمسان و دلالته الإجتماعية"، رسالة لنيل درجة الماجستير معهد الثقافة الشعبية، جامعة تلمسان، سنة 1991.

المـــراجع العـــــربية

1- **أوقطاي آصلان آبا** : "فنون الترك وعمائرهـم". ترجمة أحمد موسى عيسى، مركز الأبحاث للتاريخ و الفنون و الثقافة الإسلامية، الطبعة العربية الأولى مطبعة رانكل بإسطنبول 1987.

2- **عبد القادر أحمد اليوسف** : علاقات بين الشرق و الغرب بين القرنيين الحادي عشر و الخامس عشر، منشورات المكتبة العصرية، صيدا بيروت 1969.

3- **محمد حجاج أول** : "تلمسان مدينة الفن والتاريخ"، محاضرة ملفات خلال الملتقى الدولي للأدب (***Litérature comparé***) جامعة 2 باريس ـ السربون (***Paris V***) 22-26 ماي 1984.

4- **رشيد بورويبة** :" الكتابات الأثرية في المساجد الجزائري"، ترجمة "إبراهيم شبوح" التاريخ و الحضارة 2، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع الجزائر (***SNED***) 1973-1399.

5- **جمال الدين بوقلي حسن** : "إبن يوسف السنوسي وعلم التوحيد"، المؤسسة الوطنية للكتاب 3، شارع زيروت يوسف، الجزائر 1985.

6- تلمسان سلسلة الفن و الثقافة.

7- **عبد الرحمان الجيلالي** : "تاريخ الجزائر العام"، الجزء 2، 1375-1955 الجزائر.

8- **محمد بن ميمون الجزائري** : "التحفة المرضية في الدولة البكداشية"، مطبعة الجزائر، 1981.

9- **زكي محمد حسن** : "الفن الإسلامي"، ترجمة الدكتور "أحمد موسى"، دار صادر بيروت 1966. كنون الفاطميين، دار الرائد العربي بيروت 1401-1981.

10- **عبد الحميد حميدو** : "السعادة الأبدية لأبي مدين شعيب فخر الديار التلمسانية"، طبع المطبعة الجديدة بطالعة فاس سنة 1354هـ - 1935م.

11-**عبد العزيز سيد سالم** :"المغرب الكبير العصر الإسلامي" دار القومية القاهرة .

12 **سيد أحمد سقال** : "الولي الصالح أبي مدين"، منشروات سقال 10، نهج إدريس، تلمسان، 1993.

13- **محمد بن رمضان شاوش** : "باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان"، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، 03-1985.

14- **عكاشة الشايف** : "الحضارة العربية الإسلامية بين التطور و التخلف"، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، 04-1994.

15- **علي عبد المنعم شعيب** : المختصر في تاريخ مصر (من أقدم العصور حتى الإحتلال البريطاني)، دار إبن زيدون للطباعة و النشر و التوزيع بيروت - لبنان -.

16- **محمد بن عمرو الطمار** : "تلمسان عبر العصور دورها في سياسة و حضارة الجزائر"، المؤسسة الوطنية للكتاب 3، شارع زيروت يوسف الجزائر 1985.

تاريخ الأدب الجزائري، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع الجزائر 1980.

17- **ثروت عكاشة** : "القيم الجمالية في العمارة الإسلامية" (الأضرحة و المقابر)، دار المعارف القاهرة 1981.

18- **إرنست كونل** : "الفن الإسلامي"، ترجمة الدكتور أحمد موسى، دار صادر بيروت 1966.

19- **عبد العزيز محمود لعرج** : الزليج في العمارة الإسلامية بالجزائر في العهد التركي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الطبعة الأولى الجزائر 1990.

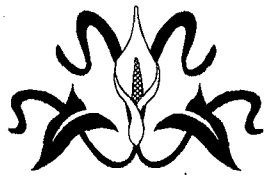

10- **أبو العباس أحمد بن محمد زروق** : "قواعد التصوف"، مكتبة الكليات الأزهرية ـ القاهرة 1983.

11- **نور الدين الشطنوفي** : "بهجة الأسرار و معدن الأنوار" ، مكتبة و مطبعة مصطفى البابي الحلبي و أولاده بمصر.

12- **كمال الدين عبد الرزاق القاشاني** : "إصطلاحات الصوفية"، تحقيق و تعليق الدكتور "محمد كمال إبراهيم جعفر"، مركز تحقيق التراث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1981.

13- **محمد بن محمد مخلوف** : "شجرة النور الزكية في طبقات المالكية"، دار الكتاب العربي ، بيروت ـ لبنان.

14- **أبو العباس أحمد بن ينصارن الماجري المغربي** : "المنهاج الواضح في ذكر المناقب"، الشيخ أبي محمد صالح الطبعة الأولى 1933 المطبعة المصرية محمد محمد عبد اللطيف.

15- **أحمد بن محمد المقري** : "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب"، دار صادر بيروت ، المجلد السابع.